

غسان رحّال

في البال

غصون رحال

في البال

رواية

الإهـداء ؛

إليـــــه هنـــــاك ،
فـي عليــائــــــه . . .

«تعالي فما زال لون السحاب
حزيناً . . . يذكّرني بالرحيل
رحيل
تعالي تعالي نذيب الزمان
وساعة في عناق طويل
ونصبح بالأرجوان شراعاً وراء المدى
وننسى الغدا . . .
بدر شاكر السيّاب

(١)

وراء الباب ، ليل يذوي بصمت .

في الخارج ، مطر يطرق زجاج النافذة بعنف ، وريح هوجاء تصرّ على النفاذ عبر شقوقه الجانبية مثبتة حضورها .

في الجو ، رائحة رطوبة لزجة ترشح من ثنايا الجدار .

في الركن ، مصباح معدني طويل يسعل ضوؤه العليل ، فتتراقص فوق جدران الحجرة البيض خيالات شاحبة ، مسبغة على المشهد حسّاً جنائزياً مبكراً .

فوق السرير ، يسترخي جسدها نصف حيّ ، نصف ميت!

الحرام الصوفيّ المرقّط يلفّها بوبره الغزير ، مغيباً ما تبقى من معالم الجسد المغيبة أصلاً ، ورأسها الحليق يختفي تحت قبّعة قطنية ناعمة لا تفارقه ليلاً أو نهاراً .

عيناي تلتقطان مشهدين متعاكسين . عين على شاشة التلفزيون ، وعين على وجهها الشاحب ، يطلّ من مرآة طاولة الزينة المقابلة للسرير . الشاشة التي لا ترحم تواصل قصفنا بأخبار الموت ، والفسفور الأبيض . دويّ القنابل الهادر دون انقطاع منذ يومين ، موصلاً الليل بالنهار ، ينذر بمجزرة محققة ،

بمذبحة فاخرة تعتزم احتلال أروقة الفضاء لزمن غير معلوم . . . أوركسترا من آلات القتل والدمار تعزف ، براً وبحراً وجواً ، سيمفونية الموت المدنّس .

تلتقط بيدها الواهنة جهاز التحكم عن بعد ، وتضغط على أزراره متجوّلة ما بين القنوات الفضائية . . .

قناة الجزيرة تبث صورا لبيوت متهالكة ، وأجساد ممزقة . . . «زووم إن» ، ويظهر وجه طفل مغطى بالدماء فوق نقّالة يحملها رجال الإسعاف . «زووم أوت ،» ويظهر بيت يلتصق بالأرض وامرأة تولول فوق أنقاضه . . .

نيتانياهو ، وباراك ، وليفني يعقدون اجتماعاً مصغّراً وهم يتبادلون الابتسامات على قناة CNN . . .

خبر عاجل على شاشة العربية : «حزب الليكود يتصدر قائمة استطلاعات الرأي للفوز بالانتخابات القادمة . . .»

وزيرة الخارجية «تسيبي ليفني» تطل على شاشة BBC ، في بث محموم للمؤتمر الصحفي الذي عقدته برفقة وزير الخارجية المصري من قلب القاهرة قبل أيام قليلة ، معلنة بحزم : «لن تتهاون حكومة اسرائيل مع صواريخ حماس بعد اليوم . . . Enoght is enough» .

أطفأتُ أنوار تلك الشاشة اللعينة ، إلا أنها أصرّت على أن تعيد إليها بريقها المحموم ، متذرّعة بأنها تريد أن تتفقد الشهداء ، وتحفظ أسماء المنكوبين ، على الرغم من علمها التام أن الشهداء والمنكوبين لا أسماء لهم ، فقد تحولوا إلى مجرد

أرقام تحتلّ الشريط المتحرك في أسفل الشاشة ، تتكاثر بصمت وتصميم لا يردعه إلا موت مماثل!

منذ أيام ، أشياؤها الصغيرة لم تبرح مكانها . تمترست داخل إطار ثابت تمّ اختزاله في صورة فوتوغرافية ، التقطت على حين غرّة ، ثم تركت جانباً . زجاجة العطر على طاولة الزينة لم تنقص رشّة واحدة ، شالها الحريري ما زال يحتضن كتف الكرسي ، حقيبتها الجلدية السوداء الصغيرة ، التي رافقت نزهاتنا ، تقبع في مكانها على الأرض ، معطفها الرمادي الأثير يتعلّق بإهمال على علاّقة الملابس الخشبية في الركن البعيد . هي الغائبة الوحيدة عن المشهد ، وكأنها مومياء تعرّت للتو من أشيائها الصغيرة تلك ، وتركتها على أمل العودة إليها في حياة أخرى!

أضع بصري جانباً ، وأطلق لبصيرتي عنانها . إنه موسم الموت بلا أدنى مراوغة . إنه عام الموت كما وصفته! أرقبها تئنّ بصمت ، وتحرّك رأسها ذات اليمين ، وذات اليسار فوق الوسادة ، قبل أن تذهب في نوبات غياب ، تطول أو تقصر ، وفقاً لمفعول المسكّن الذي وقع عليه اختيارها من بين كمّ المسكنات الملقاة على الطاولة الجانبية .

أتساءل في نفسي : أيّ مسكّن بوسعه أن يحول بينها وبين هول ما يجري على الشاشة؟ وكأن المرض الذي يفتك بجسدها غير كاف ، حتى تختتم حياتها بمثل هذا الخراب الذي لا يوصف!

في لحظة فاصلة ما بين ليل دخاني السواد ، وفجر فسفوري البياض . استردّت وعيها ، فتحت عينيها على اتساعهما ، استجمعت أنفاسها ونطقت برغبتها الأخيرة :يا غريب ، إن متّ ، فألّف نشيد أناشيد لي ، واحفر اسمي على جذع قبر قرب شجرة ياسمين . . .

أمسكتُ برأسي بين يديّ مانعاً إياه من سقوط محتّم . ابتلعت دمعة عالقة في حلقي ، وأطلقت تنهيدة حارقة . تأملت هذيانها هامساً : أيتها الغريبة ، ما أنا بمنشد ، فأي إرث تحمّلينني؟!

ما أنا إلا عابر سبيل على أرض باعت ضميرها ، أجّرت غيماتها للطائرات المقاتلة ، ومنحت شواطئها للبوارج المدجّجة بالقنابل ، طوّقت أطرافها بالعسس والحراس ، واختارت الانقسام إلى نصفين لا ثالث لهما : شماليّ فاحش الغبن ، وجنوبيّ غارق في اليتم . . . حتى وإن حاولت تنفيذ رغبتك الغريبة هذه ، فلن أستطيع . إذ لست أدري كيف أبدأ ، ولا من أين أبدأ ، وعلى أي شكل سيأتي نشيدك هذا؟ ملهاة أم مأساة؟ ربما ملهاة سوداوية تليق بما يجري في هذا العالم ، أو مأساة هزلية تضفي على الحكاية بعداً أسطورياً غامضاً .

تمتمت لنفسي : لابد أنها تهذي ، ولا تعي ما تقول ، أو أن الأمر التبس عليها بفعل ما تتناوله من أدوية ومسكّنات!

دسست نفسي إلى جوارها في السرير ، أغمضت عيني في محاولة للوصول إلى نوم خاطف مريح ، غير أن النوم ضلّ سبيله

اليّ ، ولم تجد نفعا كل الخراف التي عددتها ، وذبحتها ، وسلختها بغية استجلابه . كل خروف من الخراف التي عددتها كان يثغو في أذني قبل ذبحه : ماذا لو لم تكن تهذي؟ ماذا لو كانت جادة في رغبتها؟

اعتدلت في السرير ، أشعلت سيجارة ، وسحبت أنفاسها ببطء شديد ، سحقت عقبها في منفضة السجائر الزجاجية القابعة على الطاولة الجانبية للسرير ، رشفت رشفة من كوب الماء قبل أن أعود لمطاردة النوم ثانية . أفرغت ذهني من أية فكرة مزعجة ، بحلقت في السقف وتخيّلت أنني أمتطي بساط الريح المزركش وأعلو به فوق السحاب ، أنفذ من غلاف الكرة الأرضية إلى حيث فضاء شاسع مرصّع بالكواكب والنجوم ، نجوم كثيرة لا تحصى تلمع في البعيد ، أطوف حولها وأكاد ألمسها بأصابعي . . .

فجأة ، اختفت النجمات المضيئة عن ناظري ، وارتسمت على اتساع سقف الغرفة صور ومشاهد تمثّل ما مضى من عمري بما اعتراه من اهتراء ، وما لحق به من خدوش ، معروضة أمامي في فيلم تسجيليّ محايد ونزيه . رأيت حياتي بكل تفاصيلها ماثلة أمام عيني كما لو كنت أرى حلماً بعينين مفتوحتين .

نهضت من الفراش مفزوعاً ، جرعت ما تبقى من كوب الماء ، جلست على حافة السرير حاملاً رأسي بين كفيّ ، هززته بشدة في محاولة لنفض ما يمكن أن يكون قد علق به من وساوس وتهيؤات . أسندت رأسي إلى الوسادة وحاولت العودة

إلى النوم مجدداً دون فائدة ، ضربت بقبضتي الهواء ساخطاً : كيف أخلّص رأسي من هذا الجحيم؟

دوّى صوت في أذني مصدّعا جمجمتي : نفّذ رغبتها ، قد لا تكون منشداً كما تدعي ، ولكن الحكاية ، أية حكاية ، لابد لها من منشد! إنها رغبتها الأخيرة ، لن تخذلها بالتأكيد .

قفزت من السرير وكأن قوة خفيّة تحرّكني ، خطوت إلى وسط الغرفة ، ألقيت نظرة شاملة على محتوياتها ، أزحت طاولة المكتب الصغيرة لأجل أن تقابل النافذة ، وجهّزتها بمستلزمات بدت لي ضرورية لإنجاز المهمة : علبة السجائر ، دلة القهوة ، قلم حبر حالك السواد ، وأوراق بيض . أعددت للنشيد طقوسه ، ثم جلست خلف المكتب أرقب شروق الشمس خلف زجاج النافذة ، فطالعتني شجرة تقف عارية دونما خجل على الرصيف . فروعها الطويلة الجرداء تحجب عني الرؤية ، وتحيل الحقل الذي يمتد خلفها إلى صورة مشقّقة أمام ناظري .

منذ أن حططت رحالي على هذه الأرض ، لم يكن بإمكاني تمييز الفصول بسهولة ، لا الشمس ولا المطر بدليل واضح على الفصول ، فقد تسطع شمس زائفة ، باردة ،كأنها لوحة معلّقة في السماء في منتصف كانون الثاني ، وقد تهطل أمطار غزيرة محدثة فياضانات كارثية في عقر تموز .

الأشجار وحدها هي دليلي على الفصول!

راقبتها طويلاً ، رصدت مزاجها ، وتقلبات طباعها وأحوالها . تبدأ أوراقها الخضراء اليانعة ، بالتحول إلى اللون

الأحمر ، فالأصفر ، تتيبس ببطء وتتساقط تدريجياً ، مثل راقصة تعرّ تخلع ثيابها قطعة تلو الأخرى فوق حلبة رقص خافتة الإضاءة ، فأعرف أنها إشارات الخريف . تتعرى مما تبقى على أغصانها من وريقات حتى تصبح جرداء بالكامل ، وبذلك يكون فصل الشتاء قد حلّ . وعندما تعود أوراقها الصغيرة إلى البروز والتكاثف من جديد ، لتغطي كامل غصونها ، أعرف أنه الربيع . أما الصيف ، فيأتي عندما ترتدي كامل ثوبها الأخضر السميك الذي يحجب لون فروعها الداكنة .

أشعلت سيجارة ، وشربت فنجاناً من القهوة ، والأوراق البيض على الطاولة تطالعني بجفاء وتحمّلني وزر بياضها الآثم ، وزر نقائها وخلوّها من خطوط تزيّن بها عنقها أو تزنّر بها خصرها . واجهت بياضها وقلمي في يدي ، كأني أواجه موعداً مع خريف أبديّ ضاعت من حوله الفصول ، خريف يخلو من أول الغيث وآخره ، أعبر اليه أعزل من دون عتاد ، إلا من رأس يؤوي جهنّم ، أصابع من عيدان الكبريت ، وروح تسابق الزمن . . .

حرقت سيجارة أخرى ، أفرغت دلّة القهوة في جوفي ، والأوراق البيض ما زالت تحتفظ ببياضها وجفائها . أصابعي تخشبت ، والقلم في يدي يحرن عن كتابة حرف واحد . ألقيته من يدي فوق الطاولة ، ورحت أجوب الغرفة طولاً وعرضاً كأني بانتظار ولادة طفل يماطل في الخروج من رحم أمه ، في تحدّ سافر لمحاولات الطبيب الحثيثة لطرده عنوة من مأوى ألفه

وسكن إليه . ألقيت نظرة سريعة إلى حيث هي ممددة فوق السرير بوجهها الهزيل ، وجسدها العليل فانفطر قلبي لوعة وأسى . أغمضت عيني ووليت وجهي صوب الطاولة من جديد .

الموت من خلفي والأوراق من أمامي ، ولا بد لي من أن أفرغ هذه الجهنم من رأسي ، أن أصبّها كلمة كلمة حتى تنضب ، ثم أشعلها بعيدان الكبريت . أمسكت بقلمي بيد وبرأسي باليد الأخرى أعصر ما به فوق الورقة . . .

«أما آن لي أن أخلع أوجاعي وأستريح؟»

سؤال ظلّ غائباً عني حتى تلك اللحظة ، غير أنها لحظة فاصلة دون ريب ، لحظة تستولد العدم من رحم اليقين!

طالما كنت على يقين من أن أوجاعي هي جزء مني ، عضو من أعضائي ، فقد كانت ، قبل تلك اللحظة ، تشبه إلى حد كبير ، أنفي المدبب ، أو كفي الخشنتين ، أو حتى إصبع قدمي الكبير المنزوع الإظفر ، غير أنها في تلك اللحظة ، انفصلت عني لتصبح امتداداً لي! كبرت وتفاقمت حتى صارت تشبه سناماً محدّباً يعتلي ظهري . عضوي الجديد هذا ، لا يمكنني رؤيته ، لكني أشعر بجسامة ثقله فوق كتفي ، وأكاد أجزم أنني أتلمّس وبر هضبته ، ونتوءات قمته تحت أصابعي بجلاء كلما تحسّست ظهري ، فتحدوني رغبة لأن أبادر أحدهم بالسؤال : هل ترى هرماً فوق ظهري؟ وكلما أمعنت في تكذيب شكوكي ، ازداد يقيني بأن عضوي الجديد هذا قد غدا قدراً لا مفرّ منه ، تماماً

كما الهرم أو الشيخوخة .

قبل تلك اللحظة ، كنت على يقين من أن نهايتي حتماً ما ستكون فوق صدرها ، لأنني كنت قد خطّطت بالفعل لأن أمضي معها حياة طويلة ، تنتهي بشيخوخة هانئة كحال غالبية الناس هنا . وكثيراً ما كنت أغمض عينيّ لأرانا عجوزين يتعكزان على بعضهما ، يتمشيان في ظهيرة مشمسة في أنحاء حديقة عامة ، يرتاحان على مقعد خشبي حين ينهكهما التعب ، يطعمان الحمام ما يتساقط من فتات خبزهما ، وما إن تغرب الشمس ، حتى أسبل عينيّ ، ثم ألقي برأسي فوق صدرها لأموت ميتة سعيدة ، فيما تتولى الحكومة تأمين كل ما يلزمها من مسكن وعلاج ، ومصاريف دفن . . .

قبل تلك اللحظة ، كنت على الأقل ، على يقين من أنها هنا . صحيح أنها ما زالت ممزّقة ما بين الهنا والهناك ، ولكنها تظل ضمن الجهات الممكنة ، الجهات التي يمكن تحديدها والوصول إليها ، أما بعد تلك اللحظة ، فلست أدري . . . إنها لحظة مختلفة دون شك ، لحظة قائمة بذاتها ، كأنها يوم قيامة ، لا تاريخ لها ، نزعت عنوة عن قائمة الوجود ، شقّها عن مسيرة الزمن رنين هاتف وزجّ بها خارج حسابات الوقت . . .

رنّ جرس الهاتف مبدّداً صمت الجدران . فنجان القهوة الذي تبتدئ به صباحاتها لم تمسّه بعد . تحركت ببطء لتجيب على الهاتف .

وصل إلى مسمعها صوت رقيق يتحدث بلسان إنجليزي

فصيح : Mrs Faris؟

همست : Yes

جاءها الصوت متابعاً : أنا «آن» من العيادة المحلية .

لم تنطق ، أومأت برأسها وهمهمت للمرأة على الطرف الآخر بأن تكمل .

تابع الصوت : الدكتور «وايت» يود مقابلتك بعد الظهر إن أمكن .

بلّت ريقها برشفة من فنجان القهوة ، استجمعت قواها مستفسرة : بخصوص ماذا؟

أجاب الصوت : بخصوص الكشف الذي أجراه لك الأسبوع الماضي .

زفرت زفرة طويلة وقالت : حسناً .

جاءها الصوت خافتاً : نراك لاحقاً . إلى اللقاء .

تعرف ما وراء مثل هذا الاستدعاء . بالأحرى ، لم يفارق تفكيرها منذ أخبرها الطبيب العام أنه يمكن استدعاؤها ثانية من أجل إجراء فحوصات شعاعية لثديها . تيقنت حينها أن تلك الندبة التي اصطدمت بها أناملها فجأة قبل أسابيع قليلة على جانب ثديها الأيسر وهي تستحم ، لن تتركها بسلام .

حينها ، لم تلتفت كثيراً للأمر ، ظنّتها ندبة عابرة نبتت للتوّ بفعل رشاش الماء الدافق . أينعت على غفلة منها منتشية بقطرات الماء الدافئة ، وأنها لابد وأن تذوي وتذهب إلى حال سبيلها قريباً . غير أن الندبة لم تذهب ، بل اشتّدت صلابة

وتحـجّـراً ، وأصـبح لـونهـا مـريبـاً ومنفّـرا على نحـو يسـتـدعي القلق . . . ماذا لو أنه السرطان؟

استحضرت جميع القصص التي سمعتها عن سرطان الثـدي ، واسـتـعـرضت أسـمـاء النسـاء اللواتي أصبن به من قريباتها ومعارفها ، وتلك القصص التي سمعتها عن نساء لا تعرفهن أصبن به وفقدن أحد الثديين أو كلاهما ، وربما حياتهن أيضا . كل مكالمة تلفونية مع إحدى قريباتها أو صديقاتها في عمّان ، تحمل لها خبراً عن إصابة جديدة ، حتى غدت على يقين من أن هذا المرض سينال من جميع نساء الأرض ، إنها مسألة وقت لا أكثر ، وعلى جميع النساء انتظار أدوارهن برباطة جأش .

لسـوء الحظ ، أو لسـبب آخـر يصـعب فـهـمـه ، حـان دورها بأسرع مما توقعت . ورغم التحصينات التي أحاطت بها نفسها طيلة هذه السنين لمواجهة أي ضعف أو انهيار في حال إن وقع عليها الدور ، إلا أن حالة من الجزع اجتاحت كيانها . ألقت برأسـهـا إلى الخلف وأسندته إلى حـافـة المقـعـد وتساءلـت في نفسـها : وهل هذا وقته؟ ليس الآن . . . ليس هذه السنة على الأقل . . . . لم أتمّ فـرحـتي بعـد ، مـا زلت عـروسـاً وإن تجاوزت الأربعين!

قامت إلى أعمالها اليومية مسرعة ، رتّبت الفراش ، نفضت الغبـار ، غسلت الأطباق التي في حوض المطبخ ، نظّفت المنزل بالمكنسة الكهربائية ، أخرجت كيساً من اللحم من المجمّدة

مفكرة فيما عساها ستعد لوجبة العشاء ، استقرت إلى تحضير وجبة من الفاصولياء الخضراء بالإضافة إلى الأرز .

خرجت إلى الحديقة الصغيرة خلف المنزل ، الجو غائم ، الهواء راكد لكنه محمّل برطوبة ثقيلة ، نشرة الأخبار الجويّة أنبأت بسقوط أمطار في المساء . تفقّدت الأزهار التي كانت قد زرعتها مع بداية الربيع ، تحسسّت أزهارها التي تفتّحت وانتشر أريجها مع حلول شهر آب ، رشّتها ببعض الماء ، قلعت بعض الأعشاب التي تصرّ على النمو رغماً عن أنف المبيدات القاتلة التي دلقتها فوقها كي تقطع نسلها .

توجهت إلى شجرة الياسمين . غمرتها بنظرة مشفقة ، لم يتبق فوق أغصانها زهرة واحدة . سقطت جميعها . تناثرت أوراقها الصغيرة وانحشر بعضها في حواف السور طلباً للدفء . كانت تعرف مذ غرستها أنها لن تحتمل هذا الجو اللعين ، ولكنها جازفت بشرائها وغرسها طمعاً في الحصول على شمّة واحدة من رائحة الياسمين .

تفقدت بريدها الإلكتروني ، فوجدت رسالة من «لورا» تخبرها : خرجت قبل قليل من مركز الأمن الإسرائيلي بعد أن تم اعتقالي لثلاثة أيام . كنت ضمن المسيرة السلمية التي شارك فيها العديد من المواطنين الفلسطينيين والعشرات من المتضامنين الدوليين ضد السلطات الإسرائيلية في مواجهة بناء الجدار الفاصل ومصادرة أراضي قرية «نعلين» . أثناء ما كانت المسيرة تتوجه إلى الاعتصام في الأراضي التي قررت السلطات

الإسرائيلية مصادرتها ، قامت قوات الجيش الإسرائيلي بإطلاق قنابل الغاز والأعيرة المعدنية باتجاه المتظاهرين . أصيب ١٥ منهم بعيارات معدنية ، ثلاثة منهم في الرأس ، وأصيب عشرات آخرين بحالات اختناق . تصوري أن الجنود لم يكتفوا بهذا ، بل لاحقوا المواطنين إلى داخل القرية واقتحموا العيادة الرئيسية فيها ومنعوا سيارات الإسعاف من نقل المصابين!

لابد من فضح هذه الممارسات أمام العالم . أظن أنه ينبغي عليّ الآن إعادة النظر في المشروع الذي أعمل عليه .

قبلاتي لك ولوليد ،

لورا .

كتبت لها على الفور : عزيزتي لورا ، قرأت عن المسيرة في الصحف ، ولكني لم أكن أتصور أن الاعتقالات ستطالك . ما الذي زجّ بك في المظاهرة؟ وفق علمي ، مشروعك لا يتضمن المشاركة في المظاهرات . انتبهي لنفسك . قبلاتي .

عادت إلى الهاتف ، أخذت نفساً عميقاً وتنحنحت لتمنح صوتها رنّته المعهودة . رفعت سماعة الهاتف محاولة استرجاع الرقم من ذاكرتها . خذلتها الذاكرة ، قامت لإحضار دفتر الهواتف الصغير مرددة في نفسها : شكلي ختيرت .

أزاحت خصلة من الشعر تدلّت فوق عينها وهي تقلّب أوراق الدفتر . عثرت على الرقم . ضغطت على الأرقام وأنفاسها تكاد تخذلها هي الأخرى .

همست : مرحباً وليد .

قلت : أهلاً حبيبي . استحلي مناداتها حبيبي لسبب أجهله .

ضحكت وأجابت : بل أنت حبيبي .

قلت مختصراً : كيف أنت اليوم؟

تنهدت وهمست : طلبوني في العيادة . . . يبدو أن الأمر غير سار . . . أكيد عندي . . .

قاطعتها : لا تستبقي الأمور . إن شاء الله بسيطة .

ضخّت بعضاً من القوة إلى صوتها مرددة : إن شا الله .

قلت : طمنيني بعد عودتك .

همست : طبعاً .

كانت قد هبطت علينا ، مثل طيف جميل ، في منتصف شهر أيلول ما قبل الماضي ، محمّلة بما لم نعتد وجوده في محلات البضائع الكبيرة المنتشرة هنا ؛ ميرمية ، زعتر أخضر ، جبنة نابلسية بيضاء ، وبقلاوة . كان صديقاً قديماً لوالدي منذ أيام الكويت قد زوّدها بها ، وصادف أن يكون هذا الصديق جاراً لها . ما إن علم بسفرها إلى لندن حتى حمّلها ما لذّ وطاب مما يندر الحصول عليه هنا . وحمّلها سلامه إلى صديقه «أبو عماد» ، والسيدة أم عماد ، وجميع أفراد عائلة رضوان الفارس فرداً فرداً .

لم تعنني أسباب حضورها بقدر ما أسعدني وجود امرأة من هناك في بيتنا . عندما علمت بوصولها ذهبت لزيارة والديّ ، وكانت قبل وصولي قد تعرّفت على أمي وأبي وأخي

وائل وزوجته وأطفاله الثلاثة .

قلت معرفاً بنفسي : أنا سعيد .

ضحكت وقالت : وأنا أيضا سعيدة!

شاغبتها : اسمي سعيد!

تدخل وائل مصحّحاً : لا تصدّقيه ، اسمه وليد وليس سعيد ، لكنه يظن أن دمه خفيف . . .

أجبته معترضاً : كنت سأخبرها بنفسي ، لكنك تصرّ على أن تحشر نفسك دائماً . . .

قطعت علينا مناكفتنا : أهلاً وليد . ثم سألت : ماذا عن الباقين؟

أجاب وائل على الفور : عماد يقيم في أمريكا مع عائلته ، أما ليس فما زالت تقيم في الكويت مع زوجها وأولادها .

تفحصتها بنظرات خفيّة ، جمال عادي لا يثير انتباه النظرة الأولى ، لكنه يحفزّ على المزيد من التفحص الدقيق .عينان صغيرتان ثائرتان ، شعر كستنائي مشاكس ، لا هو أملس تماماً ولا متموّج بالكامل ، شفتان رقيقتان ، قوام متناسق . تتحدث مصوّبة النظر إلى عينيّ محدّثها كأنها قنّاص محترف . أعترف أنه لم يكن بوسعي أن أرد لها نظراتها بمثلها . أحيد بنظري عن مواجهة عينيها خوفاً من سهم كيوبيد الطائش الذي طالما تجنّبته . متحدّثة بارعة . تبادر بالسؤال وفتح مواضيع جديدة كلما هدأ الكلام ومال إلى الصمت . تعرف كيف تشدّ محدّثها وتبقيه تحت سحر كلماتها بعكسي تماماً . أنا بطبيعتي ميّال إلى

الصمت ، أفضّل الاستماع أكثر من الحديث . أتكلّم بنبرة خفيضة يتذمر منها الآخرون . مجامل إلى الحد الذي يجعل من حولي يتّهمني بكبت مشاعري الحقيقية والتخفي وراء الكليشيهات الجاهزة .

استضافها والداي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيتهما ، فأمضت يوم السبت في مساعدة أمي في أعمالها المنزلية وإعداد الطعام ، والتعرف على أزهار الحديقة التي قدمتها لها أمي بشرح مستفيض وهي تتحسس أوراقها بحنان غامر ، وفي عقد صداقة سريعة مع والدي . في المساء ، وأثناء ما كانت أمي تجهّز لها مكاناً للمبيت ، اعتذرت لها عن ضيق البيت قائلة : أتصدقين أنني لم أتعود على هذا البيت الصغير رغم كل هذه الأعوام؟ كم أشعر بالحرج كلما استضفنا أحداً .

تنهدت أمي بحسرة وأضافت : كان بيتنا واسعاً في الكويت . والله تخلّيت عن كل شيء ، حملت معي ما استطعت شحنه في الطائرة فقط . عمك أبو عماد اضطر إلى بيع الأثاث بسعر التراب .

شدّها الفضول لمعرفة أصل الحكاية فسألت : خالتي أم عماد ، هل يزعجك أن تحكي لي عمّا حدث أثناء الحرب بالتفصيل؟

هزت أمي رأسها نافية ، تركت الوسادة من يدها وجلست على «الصوفا» ، سحبتها من يدها وأجلستها إلى جوارها وتساءلت من أين تبدأ . زفرت بحرقة وقالت : والله ، لا أعرف

كيف أحكي عن تلك الأيام! كانت أياما سوداً . . . ذات صباح وجدنا أنفسنا مشتّتين في بقاع الأرض . عماد وزوجته ، بحكم أنهما مضيفان ، كانا في رحلة إلى أمريكا بينما ظل طفلهما الذي لا يتجاوز السنتين في عهدتي .

تمهلت قليلاً قبل أن تتابع : حتى إننا لم نعرف عن الحرب إلا عندما اتصل عماد في الصباح الباكر . سأل عن أبيه ، فأخبرته أنه ذهب إلى عمله في قصر الأمير ، فصرخ بي مستغرباً : أي أمير ماما؟! لم يبق في الكويت أمراء . . . لقد فروا جميعا . كان يتكلم بسرعة كبيرة خوفاً من انقطاع الاتصال . شرح لي حالهما في أمريكا : ماما ، الخطوط الجوية الكويتية أوقفت جميع رحلاتها إلى الكويت ، نحن عالقان هنا في نيويورك ، ديري بالك على قيس ، لا أعرف إن كنت ونجوى سنتمكن من العودة إلى الكويت مرة أخرى ، يقولون لنا في مكتب الشركة إن على جميع المضيفين والمضيفات الانتظار إلى أن تصل التعليمات من مكتب الشركة الرئيسي في الكويت . . .

عدّلت أمي من جلستها وأكملت : ولم ألتق بهما إلا بعد أن تمكنت من الخروج من الكويت قبل القصف الأمريكي على العراق بأيام ومعي الطفل ، فحضرا إلى هنا لاستقبال طفلهما . أما وليد فكان في قبرص . انقطعت بيننا الاتصالات ولم نعد نعرف عنه شيئاً .

سألت : وماذا عن وائل ولميس؟

أجابت أمي : لميس ووائل كانا يعملان في شركة WG Towelفي الكويت . هل تصدقين أن لميس وزوجها هما اللذان أنقذا أوراق الشركة ومستنداتها من عبث الجيش العراقي بعد أن فرّ صاحب الشركة؟

شنّفت آذانها مستفسرة : كيف؟

تابعت أمي : كانت لميس السكرتيرة التنفيذية لمدير الشركة وتعرف أسرار شركته كافة ومكان حفظ المستندات الخاصة بها . اتصل بها الشيخ صاحب الشركة عبر السفارة الأمريكية وطلب منها أن تخفي مستندات تسجيل الشركة في مكان آمن ، فخاطرت وزوجها بنقل المستندات من مقرّ الشركة وإخفائها في شقة هجرها أصحابها وفرّوا إلى بلدهم .

أضافت وهي تضحك : حين استوقفها جندي عراقي عند حاجز التفتيش ، أخبرته أن هذه المستندات هي أوراقها الشخصية وشهاداتها الدراسية . تفحّصها الجندي بنظرات متشكّكة ، وضع مسدسه فوق الصندوق ، وتناول أحد الملفات ، نظر إليه قليلاً ثم أعاده إلى مكانه . لحسن الحظ كان الجندي لا يحسن القراءة ، فلم يتمكن من قراءة الوثائق ، وسمح لها بالمرور . . . الله وحده حماها .

علّقت قائلة : آه والله ، معك حق .

وبعد برهة سألت : وهل بقيتم في الكويت طيلة فترة الحرب؟

هزّت أمي رأسها نافية وتابعت : غادرت الكويت قبل

القصف الأمريكي على العراق بحكم أنني أحمل الجنسية البريطانية ، وهذه حكاية أخرى . . .

قاطعتها : عن جدّ؟ وكيف حصلت عليها؟

ابتسمت أمي مستذكرة : غادر والدي فلسطين أيام الانتداب البريطاني إلى قبرص بجواز سفر بريطاني مؤقت ، كان الإنجليز يمنحونه حينها لمساعدة الناس على السفر . استقرّ في منطقة نائية في شمال الجزيرة حيث تكثر مناجم النحاس . عمل في أحد المناجم ، وسرعان ما وجد له عروساً من سكان المنطقة تزوجها وأنجب ثلاثة أولاد وأنا ، بعد زمن قصير حصل على الجنسية البريطانية ، وهكذا أصبحت أنا وإخوتي بريطانيين لأن قبرص كانت مستعمرة بريطانية وقتها .

فتحت عينيها على اتساعهما بذهول وعلّقت : حكاية غريبة فعلاً! ولكن كيف تعرّفت على عمي أبو عماد؟

تثاءبت أمي قائلة : هذه حكاية طويلة ، اطلبي من عمك «أبو عماد» أن يحكيها لك لاحقاً .

أجابت على مضض : طيب ، لنرجع إلى قصة الكويت . . .

سردت أمي ما تبقى من القصة دفعة واحدة قبل أن تذهب إلى سريرها : قبل القصف الأمريكي على العراق ، ذهبت إلى السفارة البريطانية للحصول على تأشيرة سفر لأبي عماد والأولاد ، فرفضوا منحي التأشيرة . طلبت مقابلة القنصل وأظهرت له جواز سفري البريطاني ، فوافق على إخراجي من

الكويت بمفردي ، بحكم أنني من الرعايا البريطانيين ، أما زوجي وأولادي فقال إنهم غير مشمولين بهذه الرعاية . طلبت منه أن يمنح الطفل أيضاً تأشيرة لأتمكن من إيصاله إلى والديه ، فوافق على اعتبار أنها حالة إنسانية .

بعدها ، شرح لي الخطة التي سينقلون بها الرعايا البريطانيين بعيداً عن أنظار القوات العراقية . طلب مني التواجد في مقرّ جمعية تعاونية في منطقة «حولّي» ، ليتم نقلنا إلى المطار ومن ثم إلى لندن . وهكذا خرجت وبقي أبو عماد ولميس ووائل .

التفتت إلى أبي والفضول يدفعها لمعرفة المزيد من التفاصيل . سألته : عم أبو عماد ، كيف أمضيتم الوقت تحت الاحتلال؟ هل كانت هناك مظاهر احتلال حقيقية؟ هل تعرضتم للأذى؟

ابتسم أبي الذي قارب على الثمانين وأوضح : يا بنتي ، الله بكسر وبجبر! .

نظرت إليه نظرة تدل على عدم الفهم وسألت : كيف يعني؟

رغم كبر سن أبي إلاّ أنه يحب الدعابة والمواربة في الكلام . لكنه سايرها مجاملاً ربما لكي ينهي تساؤلاتها ، ويتمكن من الذهاب إلى النوم : لم يكن احتلالاً بمعنى الكلمة ، أنا أعرف ما هو الاحتلال منذ أيام الاحتلال الإسرائيلي في يافا ، حين كان الجيش الإسرائيلي يداهم

البيوت ويعتقل سكانها ، يطوّقون القرى يومياً ويقتلون الناس في الطرقات ، أما الجنود العراقيون فكانوا يوجدون في نقاط معينة للتفتيش ، لا يطلقون النار إلا إذا تعرضوا لإطلاق النار عليهم من قبل مجموعات من الكويتيين والعرب سمّوا أنفسهم بالفدائيين . . . .

يضحك أبي وهو يكمل : كما قلت لك ، الله بكسر وبجبر ، يعني ، كنت كلما مررت بحاجز يسألني الجندي : من أين أنت؟ أجيب : فلسطيني ، فيضرب لي تحية ويسمح لي بالمرور .

سرح أبي مستحضراً تفاصيل مضى عليها ما يقارب الأربعة عشر عاماً ، ثم تابع : قليلاً ما كنت أخرج من البيت ، فقط لأجل شراء الخبز والمواد الغذائية . أحياناً كنت أخرج لأبحث عن أشخاص يستخدمون خطوطاً للاتصالات الدولية لا أعرف كيف يحصلون عليها . أنتظر لساعات حتى يصلني الدور ، فأتكلم دقيقتين أو ثلاثاً مع أم عماد هنا في بريطانيا ، كانت هذه الدقائق تكلّفني عشرة أضعاف المكالمة في الأيام العادية .

واصلت استفسارها : وكيف خرجتم؟

أسند أبي ظهره إلى المقعد مسترخياً وقال : الله لا يعيد هديك الأيام . . . حاولت الحصول على تأشيرة إلى مصر ، ولكن السفارة المصرية رفضت . تصوّري! مصر لم تسمح لحملة وثائقها بالدخول إلى أراضيها وحكمت علينا بالموت تحت

الحصار! قالوا لنا أولاد ال . . . : إذهبو إلى فلسطين ، أو اعرضوا أمركم على الأمم المتحدة لطلب اللجوء .

زفر بألم وأكمل : آخ يا بنتي ، الله يسامحهم . لو كانت فلسطين غير محتلّة لما كنا غادرناها أصلاً . منذ أن هربت أسرتي من منشية يافا في العام ١٩٤٨ ، إلى غزة وكنت مازلت فتى في السادسة عشرة ، ثم رحيلنا إلى الكويت بوثائق سفر مصرية في منتصف الخمسينات ، لم أعرف لي بلداً غير الكويت .

تسارعت أنفاسها وهي تقترب من غايتها : وكيف عايشتم الضربة الجوية على بغداد؟

هزّ أبي رأسه أسفاً وقال : أخ ، ماذا أقول الآن؟ عندما علمنا بالضربة ، صعد سكان البناية إلى السطح وتابع صغيرنا وكبيرنا ما أسموه «عملية التحرير» . قابلناها بالهتافات والزغاريد ، ليس كرهاً بالنظام العراقي بقدر ما هو الأمل بإعادة الأمور إلى نصابها والعودة إلى حياتنا الطبيعية التي ألفناها .

– وما الذي حصل بعد التحرير؟

– بعد أن انتهت الحرب وعاد الأمراء وأصحاب الشركات . حضر الشيخ صاحب الشركة التي كانت تعمل بها لميس إلى منزلنا ليشكر لميس على جميلها . كانت الحكومة الكويتية قد أصدرت قراراً بالغاء إقامات جميع الفلسطينين في الكويت ؛ فعرض مساعدتنا في الحصول على الإقامة لي ولوائل ، أما لميس فمنحت الإقامة ليس اعترافاً بجميلها ، ولكن لأن زوجها

يحمل الجنسية المصرية . فكّرتُ في عرضه فوجدته لا يتعدى طعنة في الظهر . أبعد كل هذا الإخلاص والولاء يعرض علينا الإقامة فقط؟! والله عيب . حفيدي ، ابن يوم واحد فقط ، حصل على الجنسية الأمريكية لأنه ولد على الأرض الأمريكية ، بينما لم تشفع لي ثلاثون عاماً من التفاني للحصول على أية جنسية عربية! كظمت غيظي وانتظرت أن يأتيني بالإقامة .

- وهل نجح؟

تابع أبي بمرارة : فيما نحن ننتظر ، عادت أم عماد إلى الكويت وحاولت الحصول على تأشيرات سفر إلى بريطانيا لي ، ولوائل . ولكن السفارة لا تمنح تأشيراتها لمن هم دون إقامة ، وبعد سلسلة من الوساطات ، نجحت المحاولة الثالثة التي قام بها الشيخ وحصلنا ثلاثتنا على إقامة لمدة سنة ، وعلى إثرها حصلنا على تأشيرات السفارة البريطانية ، وغادرنا الكويت في ربيع عام ١٩٩٢ . ومن حسن حظّنا جميعاً ان أم عماد تحمل الجنسية البريطانية ، ويحق لها حسب القوانين البريطانية أن تضم عائلتها . تقدمنا بطلب الحصول على الجنسية البريطانية وبعد سنتين فقط حصلنا عليها . صرفت لنا الحكومة معاشاً أسبوعياً ثابتاً ، ووفّرت لنا المسكن والعلاج المجاني ، وها نحن نعيش في هذه الغربة منذ أربعة عشر عاما .

غيّرت الموضوع بسرعة باتجاه استكمال تفاصيل الحكاية السابقة قبل أن يرخي النعاس بثقله على أبي وسألت : عمي

«أبو عماد» ، سؤال أخير من فضلك . . . كيف التقيت بخالتي أم عماد؟

تفاجأ أبي بسؤالها غير المنتظر ، تلعثم هامساً : سأجيب عن سؤالك ، ولكن باختصار . . .

قاطعته : ماشي .

تابع أبي : كان ذلك في أواخر الخمسينات ، وكنت في حوالي السادسة والعشرين من عمري ، حين طلب مني أحد أصدقائي أن أصطحبه إلى المطار لاستقبال خاله القادم من قبرص . في المطار وجدت امرأة وصبية برفقة الرجل ، عرفت أنهما زوجة خاله وابنته . في حياتي لم يقع بصري على فتاة بمثل هذا الجمال . . . صبية في العشرين ، بطول فارغ ، وعينين واسعتين ، واسعتين ، هما أكبر ما رأيت طوال عمري ، تحتلان نصف وجهها الأبيض المشرب بحمرة طبيعية رائعة . . .

همست : آه ، إذن هو حب من النظرة الأولى!

تابع أبي متجاهلاً تعليقها : طلبتها من والدها قبل موعد عودتهم إلى قبرص بأيام ، ولولا صديقي وشهادته أمام والدها بحسن سلوكي وأخلاقي ، لكانت رحلت إلى قبرص إلى الأبد . تزوجنا في ثلاثة أيام ، وأشرف والدها على جميع التحضيرات الخاصة بالمسكن والأثاث بما فيها الجهاز الشخصي للعروس .

نامت ليلتها تلك وهي تفكر في كل ما سمعته ، وربما تحلم بزمن تتشابك فيه المسافات وتختفي فيه الحدود الفاصلة ما بين

الهنا والهناك . . . زمن تلغى فيه جميع الخرائط والحدود ، وينتفي معه الاعتراف بقدسية جوازات السفر .

أبي وأمي أكتفيا من الحياة بما مضى . توقفت مسيرة الزمن بالنسبة إليهما في الثاني من آب عام ١٩٩٠ . كل ما يستحق استحضاره أو الحديث عنه ، هو تفاصيل حياتهما في الكويت لأكثر من ثلاثين عاما . كان أبي السائق الخاص للأمير جابر الصباح ، قبل وبعد تولّيه الإمارة ، موضع سرًه ، والأمين على أسرته . يوصل نساءه وأولاده إلى حيث يرغبون . يستقبل ضيوفه من القادة والأمراء والرؤساء والملوك . وكان الأمير يغدق عليه من كرمه وعطاياه في كل المناسبات ، بالإضافة إلى الهدايا الخاصة التي يمنحها له الزعماء والضيوف ، والتي لا يزال يحتفظ بها ويتذكر مناسبات تقديمها ، حتى إنه بكاه بحرقة يوم وفاته تماماً كما بكى والده ، بالرغم من تخلّيه عنه بعد الحرب .

أما أمي ، فانصبّ همّها الأول على تربية أبنائها وتعليمهم . وبعد أن كبرنا ، باشرت بأخذ نصيبها من الحياة الاجتماعية الحافلة بشتى المناسبات ، وقضاء أشهر الصيف في أوروبا .

منذ أربعة عشر عاما ، وأبي وأمي يبنيان السدود والحواجز التي تحول بينهما والعالم الخارجي في هذا البلد . بيتهما حصن منيع في مواجهة الغرباء ، لا يفتحان الباب لأي طارق إلا إذا كان هناك موعد من أجل كشف أو صيانة أو تصليح خراب ما . لا يخرجان من البيت إلا لقضاء حاجة ضرورية ، أو ابتياع

الحوائج المنزلية . في أعياد الميلاد يكتفيان بوضع بطاقة معايدة على أبواب الجيران ذوي القربى والجار الجنب ، وإن رنّ الهاتف لأمر ما ، يعتذران عن الحديث بسبب عدم تمكنهما من اللغة الإنجليزية بكلمات قليلة : sorry, don't speak English . أخي وائل وأنا من يتكفل بالتعامل مع الرسائل البريدية المتعلقة بالفواتير ، وإصلاح الأعطاب التي قد تلحق بمنزلهما .

راكم أبي خلال هذه السنوات عدداً من أمراض الشيخوخة ، بالإضافة إلى استبدال ركبتيه الطبيعيتين بركبتين حديديتين . أما أمي فتصيبها نوبات من ارتفاع ضغط الدم . فجأة ، يتأجج وجهها الأبيض بوهج أحمر ، ويصعب عليها التنفس ، فتخرج إلى الحديقة مسرعة لاستنشاق الهواء .

أبي بأعوامه التي قاربت على الثمانين ، وشعره الذي ابيضّ بالكامل رغم أنه ما زال غزيراً ، يصرّ على قيادة سيارته الصغيرة لقضاء مشاويره التي يراها ضرورية . لم يستطع نسيان مهنته السابقة . تقدم بطلب الحصول على إجازة لقيادة السيارة رغم أن مقود السيارة على اليمين ومسار الطرق على اليسار بعكس ما اعتاد عليه في الكويت . اجتاز الفحص النظري شفاهة ، لأنه لا يحسن قراءة اللغة الانجليزية وكتابتها ، ورافقه أخي وائل أثناء الفحص العملي متوليّا مهمة الترجمة بينه وبين مسؤول الفحص . يومها خبأ الصورة التي تجمعه بالملكة «اليزابيث» أثناء زيارة لها إلى الكويت في جيب سترته . لم يكشفها لمسؤول الفحص إلا بعد أن اجتاز امتحان القيادة

بنجاح . تفاجأ الرجل بها ، واستغرب كتمانه لها قبل الفحص . أراد أبي من خلال تلك الصورة ، التلميح ضمناً إلى مهاراته الفائقة في القيادة ، التقط مسؤول الفحص تلميحه بسرعة ، وحرّر له رخصة القيادة على الفور .

يتمتع أبي بحنكة أحسده عليها ، أحيانا تشعرني بعض تصرفاته بالحرج ، إلا أنني سرعان ما أكتشف أن للرجل خبرة في الحياة تستعصي على أمثالي . ورغم أنه لم يتعلم من اللغة الإنجليزية إلا النزر اليسير في مدرسة لتعليم الكبار ، إلا أنه يدأب على زيارة السوق الشعبي الذي يقام يوم الأحد من كل أسبوع «Sunday market» لعقد صفقات بسيطة . يقود سيارته التي أصبحت تحمل إشارة «ذوي الاحتياجات الخاصة» رغم تحذيرات أمي ، ويذهب إلى السوق ليدور به دورة أو دورتين مستنداً على عكّازه الخشبي .

يفاصل الباعة : How much?

وعندما لا يعجبه السعر ، وغالباً ما يكون السعر غير مناسب له ، يبادر إلى الاعتراض : No. No. Very much!

وحين يصرّ البائع على السعر ، يتركه ويمضي قائلاً : I do not want

فيرضخ البائع لإرادته ويبيعه السلعة بالثمن الذي أراده . كثيراً ما كان يعود حاملاً سلعاً قيّمة بأبخس الأثمان ، حتى تكدست حاجياته في الكوخ الصغير الذي في طرف الحديقة ، فقام بإدخال بعض منها إلى البيت أمام اعتراضات أمي

وتذمرها من ضيق المكان . أبي يبتاع كل شيء تقريباً ، من مفكّات ومسامير وبراغي ، وقطع السجاد ، والتحف الصغيرة والمزهريات التي بلغ عددها ما يقارب العشرين ، إلى أدوات المطبخ والكهربائيات . . . وربما كانت جولاته تلك ، وما يتبعها من مقتنيات عشوائية غير مترابطة ، وسيلة من وسائل تعبيره عن الرفض ، أو انعدام الأمان الذي لا يدركه أحد سواه .

وحين يغضب ، أو يضيق ذرعاً بأرجاء البيت ، يزمجر ناقماً : أنا عائد إلى يافا .

يقود سيارته إلى قرية قريبة أطلق عليها اسم يافا ، لأنه يرى أن طبيعتها تشبه مدينة يافا باستثناء البحر . ينتبذ هناك مقهى صغيراً لساعات ، والله وحده يعلم ما يدور بخلده من هواجس .

في صبيحة يوم الأحد ، هاتفتُ والدتي لأستفسر إن كان هناك ما ينقصها من حاجيات ، فطلبت منى أن أحضر خبزا طازجا وأسرع لتناول وجبة الفطور معهم . أخذت حمامي الصباحي ، حلقت ذقني ، ارتديت ثيابي ، ورششت قليلاً من العطر فوق وجهي قبل أن أستقل سيارتي إلى أقرب دكان ، تناولت الخبز واتجهت إلى بيت والدي . كانت أمي قد أعدّت إفطاراً حافلاً ، أشهى ما فيه الزيت والزعتر ، قطع الجبنة النابلسية البيضاء ، والشاي المفعم بنكهة الميرمية الطازجة .

بعد أن أنهينا أكواب الشاي ، لم أقوَ على المغادرة وتركها تمضي يوماً آخر برفقة عجوزين ، فهمست لها أن تستعد

للخروج . وكأنها قرأت ما يدور داخل رأسي ، سارعت إلى وضع سترة خفيفة فوق كتفيها ، مشت بضع خطوات باتجاه حذائها ، فلاحظت عرجاً خفيفاً في مشيتها ، ما إن ارتدت حذاءها حتى تلاشى . دققت النظر في حذائها ، فكان نعل الفردة اليمنى أغلظ قليلاً من الفردة اليسرى . حملت حقيبة يدها الصغيرة ، ووقفت عند الباب معلنة استعدادها للخروج .

نقيم على أطراف مدينة لندن ، في الجهة الغربية منها ، حيث تكثر أحياء الأقليات العرقية من مختلف الشعوب التي هجرت أوطانها هرباً من حرب ما ، أو خوفاً من طاغية ما . توجهنا إلى أقرب محطة أنفاق ، ابتعت تذكرتين من تلك التي يمكن استعمالها على مدار اليوم . صعدنا إلى القطار ولم نجد مقعداً فارغاً ، فوقفنا مستندين إلى العمدان الحديدية التي تتوسط عربة القطار ، وتعلقنا بالحلقات الجلدية المثبتة في السقف تفادياً للاهتزازات العنيفة . عند محطة «Westminster» غادرنا القطار ، وصعدنا الدرجات المؤدية إلى الشارع ، فطالعنا مبنى البرلمان وساعة «Big Ben» بعقاربها العملاقة .

تسكعنا قليلاً في ذلك الشارع المكتظ بالمشاة والسائحين من دون أن نتبادل كلمة واحدة حتى وصلنا إلى جسر البرلمان . توقفت وتدلّت بجذعها على حافة الجسر الإسمنتية ، ونظرت طويلاً إلى مياه نهر «التايمز» الرمادية العكرة ، وكأنها تفتّش عن لونه الحقيقي ، وحين عجزت عن تمييزه ، التقطت صورة للنهر ،

وأخرى لمبنى البرلمان والساعة الضخمة ثم أكملت سيرها . عبرنا النهر إلى الجهة المقابلة حيث تقف «London Eye» . تسمّرت أمامها مثل طفلة صغيرة تحلم بالطيران . فردت ذراعيها وحركتهما كأنهما جناحان وسألتني ضاحكة : أترغب بالتحليق معي؟

قلت : لم لا؟

توجهنا إلى شباك التذاكر ، اشترينا بطاقتين ووقفنا ننتظر دورنا في الصعود . وحين ارتفعت بنا العربة الزجاجية إلى السماء ، التصقنا بواجهة الكبسولة الزجاجية الواسعة ، مشفقين على تلك المدينة العريقة وهي تتضاءل تحتنا بنهرها ومبانيها القديمة ، وشوارعها وسياراتها ، وأشجارها ، بينما الضباب يلفّنا بعباءته الرمادية الثقيلة .

أخذنا القطار ثانية إلى محطة «Oxford Circus» ، قطعنا شارع أكسفورد المزدحم بالسياح والمتبضعين مشياً على الأقدام ، تفرّجنا على البضائع المعروضة خلف واجهات المحال الزجاجية ، إلى أن وصلنا إلى «Marble Arch» . أشرت بيدي إلى الشارع المجاور في الاتجاه الأيمن متسائلاً : هل ترغبين بالذهاب إلى شارع «إجوار روود» لتناول وجبة في أحد المطاعم العربية؟

هزّت رأسها نفياً وأضافت مبرّرة : لم أفتقد الطعام العربي بعد ، ما رأيك بوجبة سريعة؟

أشرت بيدي مخيّراً : ماكدونلدز أم كنتاكي؟

قالت جازمة : كنتاكي ، لا أتعامل مع ماكدونلدز .

دلفنا إلى المطعم ، وحين جاء دورنا سألتها : كوكاكولا أم سبرايت؟

ردّت بسرعة : لا أتعامل مع هذا ولا ذاك ، سأشتري عصير برتقال .

نقدتُ البائع ثمن الساندويشات وجاءت هي بالعصير وخرجنا . على باب المطعم ، سألتها : ما معنى أنك لا تتعاملين مع ماكدونلدز وكوكاكولا؟ لا تحبينها؟

فتحت زجاجة العصير وارتشفت رشفة ثم قالت : بل أقاطعها ولا أشتريها لأن أصحابها يدعمون إسرائيل .

قلت ساخراً : فهمت ، موقف سياسي يعني . . .أتظنين أن تلك الشركات ستفلس إن لم تشتري بضائعها؟!

ألقت إليّ بنظرة مشفقة دون أن تجيب ، مفضّلة عدم الدخول في جدل لا طائل من ورائه . تلفّتت حولها تستطلع المكان . ثواني وكانت تشير إلى اتجاه ما معلنة : أترى تلك الساحة؟ سنتناول طعامنا هناك . عبرنا نفق المشاة إلى حيث ساحة القوس الرخامي الشهير وجلسنا نأكل طعامنا . تقضم من رغيفها وتلقي ما يتناثر من فتات الخبز على الأرض إلى أن تجمّع سرب من الحمام عند قدميها . فتحت حقيبة يدها ، أخرجت آله التصوير والتقطت صورة للحمام المنهمك بالتقاط الفتات ، وصورة أخرى للبوابة الرخامية .

سألتها : هل ألتقط لك صورة مع الحمام؟

هزّت رأسها بالنفي ، أعادت آله التصوير إلى حقيبتها ،

وعادت هي إلى طعامها .

أردت فتح موضوع للحديث فاستفسرت : رهام ، هل هذه أول زيارة لك إلى لندن؟

قبل أن تتمكن من بلع اللقمة التي في فمها أجابتني بإشارة نافية من يدها . بلعت لقمتها وقالت بصوت واثق : أعرف لندن بكل تفاصيلها . . . زرتها مرات عدّة .

بعد أن أنهينا غداءنا ، استكملنا نزهتنا إلى حديقة « Hyde park » ، اشترينا فنجانين من القهوة من إحدى ماكنات القهوة الجاهزة التي تملأ الشوارع و سرنا حتى وصلنا إلى بحيرة صغيرة ، تعوم على جنباتها بجعات ناصعات البياض ، جلسنا على العشب . تربعت واضعة فنجان القهوة إلى جوارها .

تربّعتُ بدوري وصوّبت نظري إلى البحيرة . ارتشفتُ رشفة من كوب القهوة الكرتوني ، أشعلتُ سيجارة ، نفثت دخانها ثم سألت : ما الذي جاء بك إلى بلاد الثعالب؟

أجابت بتلكؤ : هل تريد الأسباب المعلنة . . . أم الخفية؟ وابتسمت .

ابتسمت وقلت : الاثنين .

رشفت من قهوتها وقالت : أما عن الأسباب المعلنة ، فتسطيع أن تقول إنني جئت إلى بلاد الثعالب لأجل الدراسة والبحث . . .

قاطعتها : البحث عن ماذا؟

مدت ذراعيها إلى الخلف فوق العشب الندي ، ومالت

بجذعها إلى الوراء . صوّبت نظرها نحو ماء البحيرة قائلة : لست أدري بالضبط ، ربما جئت أبحث عن زمن مفقود!

نظرت إليها باستغراب وقد بدت مثل حورية خرجت من الماء لتشارك الكائنات نشيدها .

أومأت لها بأن تكمل . ابتسمت وأشاحت بوجهها عني كأنها تخفي انزعاجاً . لكن الرغبة في البحث والاكتشاف كانت قد اجتاحتني أنا أيضا ، فواصلتُ : وكيف وجدت الزمن هنا؟

عادت إلى جلستها الأولى ، صوبت عينيها نحوي وقالت : وجدته حراً ومتجنياً في الوقت ذاته . هم أحرار منفتحون ، أقوياء ، يصوّبون أخطاءهم إن أخطأوا ويصحّحون المسار . . . غير أن على هذه الأرض ، التي تكثر فيها الثعالب ، ثعالب أخرى بشرية تحتكر الحرّية ، وتعتبرها خاصيّة لا تشمل غيرها من الأمم ، خاصة نحن . . . نحن بالنسبة لهم متخلّفون أو رعاع! لم ننضج بعد ، وعلينا البقاء تحت وصايتهم إلى أن نتعلم كيف نصبح مثلهم ، نحن بالنسبة لهم أحرار فقط عندما يتعلق الأمر بتقليدهم . . . أتفهمني؟

حاولت هضم ما قالت ، وقبل أن أتأكد من أنني فهمت . هززت رأسي بالإيجاب وقلت : وكيف هو الزمن هناك؟

زفرت زفرة طويلة وأضافت : الزمن يا صديقي لدينا محاصر ، أسير ، محنّط ، لا حدود فاصلة بين البداية والنهاية . . . نعيش في أمس أبدي أطاح باليوم والغد .

ضحكت ببراءة متسائلة :هل يعقل أن نرتّب تفاصيل حياتنا الراهنة وفق تقاويم القرون الوسطى؟ هل يعقل أن نرى الفساد يستحكم في مقدّرات الناس من دون أن يساءل أحد؟ هل الفساد لقيط بلا أبوين؟ وهل الفقر قلّة بخت من صنع القدر؟ وهل الظلم من فعل الجان . . .

سكتت فجأة وقد أحسّت بثقل الجوّ . نظرت إليّ وقالت : حتى لا أوجع رأسك ، جئت أبحث عن زمن يعيد للعقل عقله وللإرادة أصابعها .

أخرجت آله التصوير من حقيبتها والتقطت صوراً للبحيرة والبجعات خالصات البياض .

سألتها : هل ألتقط لك صورة مع البجعات؟

هزّت رأسها بالنفي .

قلت باستغراب : ألا تحبين التقاط صور لك؟

هزّت رأسها بالنفي ثانية وهمست : لا أحب التقاط صور لنفسي ، أحب تصوير الكائنات فقط .

خلعت حذاءها وأسرعت إلى حافة البحيرة بخطوات غير متناسقة ، غمست قدميها بالماء ، دارت حول نفسها مرات ، مدت يدها للبجعة فأسرعت البجعة تدسّ منقارها في كفّها ، وما إن تبين لها أن اليد فارغة حتى أشاحت برأسها ومضت .

نبّهتها : حاذري أن تؤذي البجعات ، إنها من أملاك الملكة .

عادت إلى مكانها وهي تضحك غير مصدقة . سألت :

ماذا تقصد؟

أوضحتُ : هناك مرسوم ملكي قديم يعتبر البجع الأبيض الذي يسبح في المياة المفتوحة أو البحيرات العامة من ممتلكات الملكة ، ويفرض عقوبة الإعدام على من يصطادها أو يقتلها .

نظرت إليّ في غير تصديق مكرّرة : الإعدام؟!

قلت بجدية : نعم . لأن الناس اعتادوا على صيدها وأكل لحمها في ذلك الوقت .

هزّت رأسها وعلّقت باشمئزاز : لا أظن أن باستطاعتي أكل لحمها وإن متّ جوعاً .

لم أجد ما أعلّق به ، خطر لي أن أستفسر عن عرجها الخفيف ذاك ، إلا أنني سرعان ما طردت هذا الخاطر ، وعدت إلى متابعة حديثنا السابق : لم تخبريني عن الأسباب الخفية لحضورك!

تهرّبت من الإجابة قائلة : كثيرة . . . وليس هذا وقت الإفصاح عنها .

أطرقت برأسها وشردت إلى هناك ، تجيبني على سؤالي في نفسها : آه ، لو تعلم أنني ما حضرت إلى هنا إلا هرباً . هرباً من حرب أيضاً ، ولكنها ليست كالحرب التي جاءت بكم إلى هنا . إنها حرب من نوع خاص ، إن استسلمت لها ستحيلني إلى طلقة فارغة ملقاة على أحد الأسطح ، خلّفها قنّاص وغد لا يأبه لشيء إلا اغتيال الفرح ، حرب بين نصفين يملكانني ؛ أم وأب . ميدانها البيت ، وضحاياها أنا وإخوتي .

تزوّج أبي من امرأة ثانية ، وفتحت أمي أبواب جهنم في وجه كل من في البيت وعلى رأسهم أنا ، لأني لم أفعل ما هو من صميم واجبي ؛ مقاطعة أبي وزوجته الجديدة . وما الدراسة ، إلا الحجة الوحيدة السائغة التي تمكّنني من ترك بيتي ، وأسرتي والسفر بمفردي إلى بلاد لا تخصّني . إنها الذريعة الشرعية الوحيدة التي تتيح لي استطلاع عوالم جديدة بعيداً عن علاقات الاستقطاب الأبوية الشائكة .

أبي رجل معتدّ بنفسه ، متحكّم ، لا يطيق أن يعانده أحد . يردد على الدوام : أنا فقط آمر ، فأطاع! ويجزل لمن يطيعه الحب والعطاء . قست عليه الحياة في صغره ، فثأر منها في كبره . غادر قريته الفلسطينية الغارقة في الفقر في أواخر الخمسينات وهو في الثامنة عشرة من عمره بجواز سفر أردني إلى الكويت ، أرض الأحلام في ذلك الوقت ، بحثاً عن فرصة أفضل في الحياة ، وساعدته قدرته في حفظ الأرقام واحتسابها ، التي توازي قدرة الآلة الحاسبة ، على العمل محاسباً لدى إحدى الشركات التجارية في الكويت . بعد سنتين ، عاد إلى قريته في إجازة صيفية وتزوج من ابنة عمّه . ودّعها عند انتهاء الإجازه عائداً إلى عمله ، لتلحق به بعد سنة وعلى يدها طفل .

اتخذ أبي من منطقة «النقرة» ، المعروفة بأنها «تل الزعتر» الكويتية ، مقراً لسكناه . أنجب أبي من أمي نصف دستة من الأبناء ، نصفها ذكور ونصفها إناث . منذ طفولتنا ، وضع أبي لنا

نظاماً صارماً ، واضحاً وحازماً ؛ الدراسة أولاً وأخيراً ، ربما لأنه لم يتمكّن من إكمال تعليمه . لا يتهاون البتة مع أي منّا إن تدنّت علاماته المدرسية ، ومن كان يقوده حظّه العاثر إلى الوقوع في مثل تلك الخطيئة ، كان يحرم من المصروف واللعب في الحارة ، ويخلد إلى النوم مبكراً ، رغم أن موعد نومنا في الأوقات العادية يحين مع انطلاق الشارة الخاصة بنشرة أخبار الثامنة مساء .

اعتاد أبي أن يمضي بعض الوقت معنا ، يصطحبنا أيام الجمع إلى البحر ، أو الحدائق العامة إلى أن اكتشف لعبة البورصة ، فازدادت انشغالاته يوماً بعد يوم في السوق المالي وصار يعمل طيلة أيام الأسبوع ويعود متأخراً إلى البيت ، وعوض أن نقضي يوم العطلة على شاطئ البحر أو في الحدائق ، كان يجمعنا ويضع أمامنا المئات من نماذج الاكتتاب وقوائم بأسماء المكتتبين وبياناتهم . لنقوم بملء النماذج بأسماء المكتتبين ، وعدد الأسهم المكتتبة ، وقيمة السهم الاسمية وما شابه . . . وينقدنا خمسة فلسات مقابل كل نموذج .

بالنسبة لنا ، كان الأمر محض تسلية ، أما بالنسبة له فكان تجارة مربحة ، حيث راجت تجارة الأسهم ، وكثرت المضاربات في سوق «المناخ» ، وتراكمت أرباح أبي ، فقرّر أن يستثمر أرباحه في الأردن . كان يسافر إلى الأردن لبضعة أيام ، ينتقي قطعاً من الأراضي خارج حدود التنظيم وينسى أمرها . في منتصف السبعينات ، انتقل بنا إلى عمّان ، سجّلنا في مدارس

خاصة ، بنى لنا بيتاً كبيراً ، وظل هو يتنقّل ما بين الكويت وعمّان إلى أن وقعت كارثة سوق المناخ في العام ١٩٨٢ وخسر كثير من المساهمين استثماراتهم ، فعاد إلينا نهائياً .

في عمّان ، سرعان ما اكتشف لعبة العقار . ارتفعت أسعار الأراضي في الثمانينات بصورة جنونية ، فباع أبي قطع الأراضي التي كان قد ركنها بأضعاف أضعاف ما دفعه فيها . بنى العمارات وأجّرها . في التسعينات دخل سلسلة من المشاريع غير المضمونة فخسر نصف ثروته ، وقنع بما يدرّ عليه النصف الآخر من إيرادات . لم يبخل علينا يوماً ، أشبع ولع أمي باقتناء المجوهرات والحلي الذهبية ، أنفق علينا حتى أنهينا المرحلة الجامعية ، اشترى لنا بيتاً قرب شاطئ البحر في «ويلز» كنا نمضي فيه الإجازة الصيفية ، وتكفّل بتكاليف زواج إخوتي الذكور .

مع بداية الألفية الثالثة ، نصّب أبي نفسه شيخاً واكتفى بحضور الجاهات ، وبيوت العزاء ، والمناسبات الاجتماعية العامة ، وكانت الخلافات بينه وبين أمي قد بلغت أوجها . لا يكاد ينقضي يوم من دون مواجهات ، تتسلّح أمي خلالها بالصراخ والزعيق ، ويلجأ أبي إلى التهديد والوعيد ، إلى أن نفّذ وعيده ، تزوج من امرأة ثانية واستقلّ بحياته عنا .

أمي امرأة عنيدة ، قاسية ، متقلّبة المزاج ويصعب إرضاؤها . فظّة ، إن لم تجد من تنكّد عليه نكّدت على نفسها . غشيمة بما يسمى بكيد النساء ودهائهن ، ولم تسمع عن كهن المرأة وحنكتها . لم تتفهم طبائع أبي رغم عشرتها له لسنين

متراكمة ، وبالرغم من بساطة ضرّتها وخبرتها القليلة في الرجال ، إلا أنها التقطت بحدسها الفطري مزاج أبي وطبائعه . تفانت في طاعته وخدمته ، فأغدق عليها الكثير من حبّه وكرمه ، مما أشعل نيران الغيرة والبغضاء في صدر أمي ، فأعلنتها حرباً مفتوحة .

أدار أبي وأمي المعركة فيما بينهما بحنكة القادة العسكريين ، وصار كل منهما يستخدمنا ترساً تارة ، ورمحاً تارة أخرى في مواجهة الآخر . وكلما توصلنا إلى تهدئة قصيرة ، ينتهكها أحدهما بفعل استفزازي غير مبرّر . انقسمنا إلى ثلاثة معسكرات : معسكر إخوتي الذكور الذين رفعوا راية «أمك ثم أمك ثم أمك» وناصروا أمي حتى في تعنّتها وعنادها ، ومعسكر شقيقتي البنات ، اللتين حملتا شعار «أنصر أباك ظالماً أو مظلوماً» ، فآزرتا أبي ظالماً ومظلوماً دون التقيّد بالشرط القاضي بأن نصرة الظالم تكون بردّه عن ظلمه ، فيما علقت أنا على خط التماس ، وصارت النيران تأتيني من الجانبين لأني رفضت مناصرة أيهما على الآخر . انفردت وحدي بمعسكر ثالث ، ورحت أردّد لكلا الطرفين ببلاهة أحسد عليها : صديقك من صدقك .

فيعلو صوت كل منهما محتجّاً : لست صديقتي . . . أنت ابنتي!

فأمازحهما ضاحكة : لكني بلغت من العمر ما يؤهلني لأن أكون صديقة .

قل لي بربك ، هل بإمكان أي منّا أن يطلّق أمّه أو أباه؟ هل يمكن لعلاقة مثل هذه أن يقام عليها الحدّ؟ أنا مثلك ، لم أجد إجابة شافية ، كما لم أجد ما يبرر بقائي هناك ، وإلى أن تنتهي حرب البسوس هذه ، عليّ الفرار للبحث عن هدنة قصيرة .

هكذا أنا ، ضليعة بطرق الفرار . أنسحب من أي دور أزاوله في هذه الحياة وأعيد البدء من جديد ، فلست ملزمة بأداء دور وحيد . وعندما تتعقد الأدوار ، ويسدّ أمامي الأفق ، أخلط الأوراق وأعيد توزيعها ثانية ، ولم تكن جميع الأدوار التي أوقعت نفسي بها عن سبق إصرار ، كافية لمنحي الإجابات الشافية عن الأسئلة الكثيرة التي تدور في رأسي .

أتصدّق؟ أستطيع التمسّك بهذه الفكرة ما دامت الحياة تدور على هذا المسرح الكونيّ الضخم ، وما دمت قادرة على التخفّف من الالتزامات الزوجية والعائلية . فكما تراني ، امرأة وحيدة بلا زوج أو أطفال . قطعت السنوات العشرين الأولى من عمري أتنقل من مدرسة إلى أخرى ما بين الكويت وعمّان ، أنهيت المرحلة الإبتدائية وجزءاً من المرحلة المتوسطة في الكويت ، واجتزت الإعدادية ، والثانوية فى عمان ، ثم قضيت ما يقارب الست سنوات في الجامعة أنهيتها بشهادة في العلوم السياسية . سحرتني الحياة الجامعية في القاهرة ، كما سحرتني القاهرة ذاتها ، فأطلت إقامتي هناك قدر المستطاع ، ولولا قطرات الندى تلك ، لاهترأت روحي من صدأ الوظيفة المضنية في مركز للدراسات والأبحاث .

الدائرة الآن تضيق حولي ، تكاد تخنقني ، وإن لم أجد مخرجاً ، وبشكل سريع ، سأجنّ حتماً . جاء الحلّ من حيث لم أحتسب ، منحة دراسية من دون مقابل لمدة عام في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن ، يخصصها مركز الأبحاث الذي أعمل فيه لأصحاب الكفاءة من العاملين لديه للحصول على درجة الماجستير . رأى مجلس الإدارة في طلبي الكفاءة المرجوّة ، فكانت من نصيبي .

أتينا على فنجاني القهوة ، ورحنا نتسكع في أرجاء الحديقة ، الشمس ساطعة على غير العادة ، أولاد يلعبون بزلاجاتهم الدولابية ، عجوزان يحتلان مقعدا خشبياً ، سرب من الفتيات يركضن بملابس رياضية قصيرة ، أكشاك لباعة الأيس كريم ، والمشروبات الغازية والساندويشات ، سناجب تقفز من مكان إلي آخر بلمح البصر ، حمام يلتقط ما تيسر له من طعام من بين أرجل المارّة ، وزقزقة عصافير في البعيد . . .

فاجأتها بسؤال عابر : هل أفهم مما قلت أنك لا تحبين العيش في عمّان؟

انتبهت وكأنها تعود من مكان بعيد . أجابت ببعض المرارة : يعني ، يمكنك القول إن علاقتي بعمّان علاقة ملتبسة يصعب تفسيرها أو وصفها . أحياناً أراها خبزي ونبيذي ، وأحياناً أخرى أحسّ بها مقصلتي وصليبي . أبتعد عنها كي أراها ، أخاصمها لأعاود التصالح معها ، أعاقبها ثم أصفح عنها . . . وهكذا . . .

– يعني؟

– يعني . . . كيف أصفها لك؟

– أنت أدرى!

تطلّعت إلى الأفق محاولة تجميع أفكارها ثم قالت : أشعر أن عمّان مدينة مرهقة ، أو شائكة يصعب احتواء مزاجها المتقلّب أو فهم شبكة علاقاتها الاجتماعية الجامدة ، مدينة لا تعترف بالفرديّة والخصوصية ، ومن لا ينتمي إلى عشيرة ، أو شلّة ، أو أي مجموعة مهما كانت ، يجري تهميشه ويعدّ من الضّالين ، ولكن . . .

قاطعتها بفضول : ولكن ماذا؟

نفخت الهواء وتابعت : ولكن المشكلة على الأرجح ، أنني لم أعد أستطيع مجاراتها! . لم تعد عمّان تلك الطفلة البريئة . كبرت ، وتضخّمت ، وتغيرت ملامحها بسرعة فائقة ، أصبحت امرأة فاجرة تهوى التسوق والبهرجة والسّهر ، بينما بقيت أنا على سذاجتي مغرمه بعمّان أيام زمان ، عمّان الطفلة ، قبل أن تقتلع عن أرصفتها أشجار الزيتون وتنبت على جنباتها «المولات» الضخمة ، والبوابات الشاهقة ويصير لها شارع للماركات . قبل أن تكتظ بالأنفاق ، والجسور ، وتختنق بزحمة السير ويصبح لكل سائق شارعه وقانونه . قبل أن يختفي بائع الفاكهة الجوّال الذي كان يطوف أحياءها القديمة بعربته منادياً : «عالسكين يا بطيخ» ، أو «يا لله الصبر» ، أو «أخضر يا لوز» . . . وفقاً للمواسم . قبل مجيء الديمقراطية وتشكيل البرلمان الذي

يزاود على الحكومة في فرض الضرائب ، ورفع الأسعار ، ومصادرة الحريّات . كنا على الأقل نحارب عدواً واضحاً : الأحكام العرفية ، فماذا نحارب اليوم؟

توقفت تستذكر : ماذا أيضاً؟ أه ، قبل أن يفتك بها الفقر ، وأكتشف أن تلك المرأة ذات الشعر الطويل الأشعث المصبوغ بالحنّاء ، والثياب المهلهلة ، التي كنت أراها تحمل كيس الزبالة البلاستيكي الأسود وتنبش في حاويات القمامة ، ما هي سوى «أحمد»! يؤكد لي على نحو لا يقبل الشك ، أن فقرا مثل هذا لا يمكنه إلا أن يكون ذكراً فقط؟

أشعلتُ سيجارة ، سحبت نفساً وصمتُّ أفكر في كلّ ما قالته . أحسست كم هي وحيدة ونائية ، ليس كوحدة النساء الكثيرات اللواتي ألتقي بهن في الحانات في عطلة نهاية الأسبوع ، تلك الوحدة التي تختفي ما إن يطلّ شاب وسيم عبر الباب ، إنها وحدة من نوع خاصّ . وحدة ذاك الذي يعرف ما يريد ، غير أنه يكتوي بنيران العجز عن تحقيق مراده .

أخذنا قطار الأنفاق ثانية باتجاه العودة ، نزلنا في محطة Park Royal القريبة من المنزل . في الطريق سألتها : وماذا تفعلين في الحياة؟

- أكتبها .

- حقيقة . ماذا تعملين؟

ضحكت قائلة : أتلاعب بالكلمات ، أركّبها ثم أفككها ثم أعيد تركيبها من جديد . . . . أكتب .

- وماذا تكتبين؟
- أكتب الأبحاث والدراسات . . . وأحياناً الروايات .
- حقاً؟ هل أنا أمام كاتبة وروائية إذن؟
- باستطاعتك تسجيل هذه الواقعة . وماذا تفعل أنت؟
فكّرت قليلاً : يا لها من مغرورة! ترى ما عساها تخفي وراء تلك الثقة الزائدة بنفسها؟ لابدّ أنها تتستر على قصة مؤلمة ، أو تهرب من ماض حزين .
بحثت عن إجابة لا تقلّ غروراً وقلت : أما أنا فأشقلب الكلمات .
- كيف؟
- أترجمها . . .
- من العربية إلى الإنجليزية؟
- لا . من العربية والتركية إلى الإنجليزية . . . غير أني أتقن اللغة التركية أكثر من العربية .
- لماذا؟
- لأن علاقتي باللغة العربية انتهت منذ تركت الكويت وأنا في التاسعة عشرة من عمري .
- أما أنا ، فاللغة العربية هي مثوى وجودي!
توقفت أمام أحد محال بيع الكتب ، استدارت لتستعرض بعض العناوين المعروضة خلف الواجهة الزجاجية ، ومن دون أن تلتفت سألتني : هل تعلم أننا متشابهان؟
ضحكت مستوضحاً : وهل قرأت هذه المعلومة على غلاف

أحد هذه الكتب؟

التفتت نحوي وتابعت وكأنها لم تسمع تعليقي : كلانا من أصل فلسطيني ، ولدنا في الكويت ، ثم طفنا في المنافي .

قلت : صحيح ، ولكنّا مختلفان أيضا؟

- كيف؟

دفعتها بلمسة فوق كتفها لمواصلة المسير شارحاً : مختلفان في الاتجاه ، أنا اتجهت شمالاً ، تركيا فقبرص ثم هنا ، بينما بقيت أنت جنوبية بامتياز .

هزّت رأسها علامة الموافقة وتساءلت : صحيح ، مساران متعاكسان . ما الذي جمعنا إذن؟ هل اهتدى الجنوب إلى شماله ، أم انحرف الشمال عن المسار؟

أطرقتُ أفكر في سؤالها ، ثم قلت ضاحكا : لا هذا ولا ذاك ، جمعنا الزعتر والميرمية على ما أظن .

نظرت إلى عينيّ كمن اكتشف كنزا وقالت : ولم تضحك؟ صح . . . ما جمعنا إلا خيرات الأرض ، أرضنا التي تحنو على أبنائها أينما كانوا ، وتغدق عليهم من عطاياها .

تساءلت في نفسي : لم تأخذ كل شيء بجديّة هكذا ، حتى النكتة؟ ألا تعرف كيف تكون أكثر عفوية؟

في اليوم التالي اصطحبتها إلى محطة القطار لتعود إلى جامعتها . جلسنا في المحطة ننتظر وصول القطار ، فانتهزتُ ما تبقى من دقائق قليلة لأستفسر عن أمر ألحّ عليّ بشدة ولم أطق تأجيله : هل من رجل في حياتك؟

أشاحت بوجهها عني ولم تواجهني بنظراتها كما اعتادت ، ثم قالت : لا متسعٍ للرجال في حياتي ، أنا امرأة هوائية لا أحب المكوث طويلاً في مكان واحد .

شعرت بأنها تخفي خيبة كبيرة ، فواصلتُ : ولكن ، لكل منا احتياجاته العاطفية .

قالت بحزم : أحاول تجنّب التفكير بمثل هذه الاحتياجات .

- وهل نجحت؟

لم تجب وقفت ، حملت حقيبتها وقالت : وصل القطار .

أشارت لي مودّعة ومضت .

سألت : هل يمكن أن نواصل تعارفنا عبر الهاتف؟

ومن دون أن تلتفت ، قالت : أكيد .

مضى القطار يحملها إلى عالمها الجديد ، وما إن غاب عن ناظري ، حتى أيقنت أن قصتي مع مصير ما قد بدأت .

اتخذت مقعدها قرب النافذه ، شردت تنظر إلى الحقول ، المراعي ، الأشجار ، خضرة بلا حدود ، تطغى على ما تبقى من الألوان باستثناء أفق ظلّ يحتفظ بزرقة يخالطها بياض خفيف . سرحت تجيبني عن سؤالي : آه ، نسيت أن أخبرك أنني أهرب من رجل أيضاً ، رجل تخلّى عني وتمسّك بوجهي الحجري! كنت التقيته في إحدى الندوات الثقافية ، وقد صدرت له رواية أولى كثر فيها المديح ، وما كنت قد قرأتها بعد . وحين تبرّعت إحدى الصديقات بمهمّة التعريف ، شهق : آه ، أنت شجن!

تملكتني الدهشة ، ثم تداركت قائلة :لا . أنا رهام مختار ، شجن هي إحدى صنائعي .

مطلّق ، له طفلة في الثالثة عشرة من العمر تقيم مع أمها . يسكن بمفرده في شقّة شاسعة ، يتلهّى بتجميل غرفها . يصنع سقفاً خشبياً في غرفة ، يبني موقدة حجرية في أخرى ، وينصب على جانب الشرفة أرجوحة واطئة على الطراز المكسيكي من حبال المصيص الأحمر ، والركائز الحديدية . يسلّي وحدته بالتأمل والقراءة وأعمال النجارة .

ذات جمعة ، دعاني للفرجة على صومعته . بهرتني . لم أصدّق أن رجلاً واحداً بإمكانه إنتاج هذا الكم الهائل من قطع الديكور الخشبية والمعدنية . واظبت على زيارته كل جمعة ، نحتسي القهوة ، نستمع إلى الموسيقى ، نعدّ وجبة خفيفة ، أستلقي على الأرجوحة ، فيجلس على الأرض بالقرب مني يهزّها بلطف كما لو كانت مهد طفل صغير .

سحرني عالمه المنعزل ، ناسك اعتزل الناس وأغلق باب صومعته دونهم . يطيل النظر إليّ وكأني ملاك سقط من السماء ، جوهرة نادرة لا يمكنه المساس بها ، نار مقدسة . أتعبني . وددت لو يعاملني كبشر ، كامرأة من لحم ودم . وددت لو يلمسني ، أو يقبلني ، أو يحتضنني . وددت لو يغضب مني ، أو حتى يثور في وجهي . . . إلى أن كان اليوم الذي وجد نفسه فيه مجبراً على الاختيار ما بيني وبين طفلته الصغيرة ، وما كنت أعلم حينها أن حياتي ستغدو سلسلة من الحروب

الساذجة مع طفلة عنيدة ناصبتني العداء حتى قبل أن تراني ، شحذت جميع أسلحتها وشهرتها في وجهي ما إن علمت بوجودي ، حذّرت أباها من الارتباط بي ، هدّدت بمقاطعته ، ووضعته أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أنا أو هي . وباءت كل محاولاتي في بناء هرم ثلاثي الأضلاع : أنا ، وهو ، وهي ، بالفشل . كان عليه أن يخضع لدكتاتورية طفلة عنيدة مدلّلة ؛ الاختيار . وما كان القرار سهلاً ، كان الاختيار بيننا بالنسبة له بمثابة موت يوميّ بطيء .

قررتُ الابتعاد . أخبرته بنيّتي على السفر لأجل أن أمنحه وقتاً كافياً للتفكير وحسم أمره بعيداً عن أية مؤثرات . صارت أحاسيسه وانفعالاته المتضاربة تردني تباعاً عبر رسائل هاتفية قصيرة . يصفرّ الجهاز في الفجر معلناً عن وصول رسالة : أنا في الطريق إليك ، قابليني في منتصف الطريق .

يعاود الجهاز صفيره صباحا ليخبرني : اخترت ابنتي إلى أن يقضي أيّنا على الآخر .

في المساء يصفر الجهاز مرّة آخرى : أيتها المجنونة «شجن» ، البيت فارغ ، الأرجوحة مهملة ، سأكتفي بتقبيل خدك الحجري!

كان قد طلب مني يوماً طلباً غريباً : أرغب بالاحتفاظ بابتسامتك!

ظننتها حالة من حالاته البوهيمية ، غير أنه تابع بإصرار : أرغب في تحنيط ابتسامتك . ما رأيك؟

تساءلت ضاحكة : كالموناليزا؟

أجاب بصوت واثق : تماماً . . . ولكن في تمثال!

قلت باستغراب : حسناً ، ولكن ما دوري أنا؟

أجاب بسرعة : لا شي ، اخلعي حذاءك واستلقي فوق السرير ، ثم ابتسمي واحتفظي بابتسامتك هذه فوق وجهك لبعض الوقت ، واتركي الباقي عليّ .

قلت باستنكار : لن أخلع حذائي .

سأل : لماذا؟

اخترعت كذبة صغيرة أداري بها عاهتي : ستقتلك رائحة قدميّ .

ومن دون أية كلمة ، انحنى على الأرض ، خلع حذائي ، جرّني إلى الحمام أشار لي أن أقفز في حوض الاستحمام ، والجلوس على حافته . ملأ إبريق الماء ، وتناول قطعة الصابون عن المغسلة ، ثم ركع على ركبتيه على أرضية الحمام ، وغسل لي قدمي بالماء والصابون دون أن ينتبه إلى عرجي . أحضر منشفة وجفّف قدميّ هامساً : انتهت مشكلتك يا سيدتي . . . كم أحب هاتين القدمين الصغيرتين .

ضحكتُ مستفسرة : كقدمي ساندريلا؟

وشرحت : هذا ما قاله لي يوماً بائع أحذية في شارع الحمرا في بيروت ، عندما طلبت منه أن يحضر لي مقاس ٣٦ من زوج حذاء أعجبني . قال إنه مقاس ساندريلا ، ولا يوجد منه غير الزوج الذي في«الفترينة» ، اشتريته رغم علمي أن عرجي

سيحول بيني وبين ارتدائه ، خرجت من المحل أحمله في كيس بلاستيكي بكلّ ثقة ، ولا أدري إن كان البائع قد وضع زوجاً غيره في الفترينة ، أم ظلّت ساندريلا حافية القدمين!

ابتسم وقال برجاء : موناليزا . . . ساندريلا ، أرجوك دعيني أعمل الآن . وقبل أن أمنحه موافقتي ، قام مسرعاً إلى أدواته ، خلط الجبس والماء ، فرش شرشفاً قديماً فوق لحاف السرير ، فتح النوافذ والمروحة الكهربائية وكل منافذ الهواء ليجفّ الخليط بأسرع ما يمكن . طلب مني الاسترخاء فوق الشرشف ورسم ابتسامة خفيفة فوق شفتيّ والاحتفاظ بها ، وضع في فمي أنبوباً بلاستيكياً لأتنفس من خلاله ، سكب المزيج الأبيض فوق وجهي وعنقي ، وكنت أجاهد نفسي حتى أبقي على ثبات ابتسامتي ، ومواصلة التنفس عبر الأنبوب . ما إن جفّ المزيج حتى خلع عني قناعي ، اشتغل عليه بأدواته وأصابعه قليلاً حتى صار له وجه يشبهني تماما .

عندما جئته مودعة ، بكى مثل طفل صغير وأهداني التمثال . رفضت وطلبت منه الاحتفاظ به عوضاً عني . أرسل لي يوم سفري رسالة هاتفية أتت على ما تبقى له في قلبي من مشاعر : ضعي قلبك في المجمدة ، أو ألقي به تحت الطاولة للكلاب .

بعد وقت قصير أتبعها برسالة أخرى : يا من غسلت لها قدميها ، فغسلت لي روحي ، لا تتركيني .

عرفت حينها أنه ممزّق ، وعاجز عن التقاط مزقه ، وتأكّد لي

أنه ليس فقط أضعف من أن يتّخذ قراراً ، بل وحبيس ضعفه ذاك أيضاً ، لا يقوى على التغلب عليه أو التخلص منه . لم يبق أمامي إلا أن أتغلّب على ضعفي وأردّ له الصاع صاعين . أرسلت له رسالة نهائية كضربة قاضية : سألقي بقلبي تحت الطاولة للكلاب!

وكان آخر ما تسلّمت منه : عو . . عو . . عو . . .

تركته ينبح وصعدت إلى الطائرة ، وما بين السماء والأرض لاح لي مكمن الخلل . لا ريب أننا نرى ما يدور فوق سطح الأرض بوضوح أكبر حين نبتعد عنها . في السماء ، تجلّت لي الحقيقة ساطعة كعين الشمس ، ما كنت أنا حبيبته ، كان فقط يهوى «شجن» بطلة إحدى رواياتي ، ومن فرط رومانسيته اختلط عليه الأمر ، فما عاد يستطيع التمييز بيننا .

***

وصلت إلى العيادة وأعلنت لموظفة الاستقبال عن حضورها ، فقابلتها الموظفة بابتسامة سريعة وطلبت إليها الانتظار قليلاً إلى أن يفرغ الطبيب من المريض الذي في عيادته . خمس دقائق وكانت الموظفة تطلب إليها الدخول إلى غرفة الطبيب الذي استقبلها بابتسامة مرحبة .

سألها بلطف : كيف تشعرين؟

أجابت هامسة : لا شيء جديداً .

تابع : هل لاحظت أي تغيير على الندبة؟

تحسّست مكان الندبة أسفل ثديها وقالت بتردد : لست

أدري ، ولكنها ما زالت مكانها .

بعد أن فحصها ثانية أوضح : لا أجد نمواً في حجم الورم وهذا مؤشر إيجابي .

تساءلت : هل يمكنك تحديد سبب بروز مثل هذا الورم يا دكتور؟

نظر إليها شارحا : في العادة ، هذه الندب يكون لها أسباب متعددة ، بعضها تسببه الإفرازات الدهنية الزائدة ، وبعضها يمكنه أن يكون أليافاً لمفاوية ، أو أوراماً إما حميدة أو خبيثة .

غرزت أظافرها في فخذها في محاولة لتشتيت توترها . حاولت أن تقول شيئاً لكن صوتها انحبس . واصلت الاستماع وهي تنود برأسها .

تابع الطبيب : لا نعرف بعد طبيعة هذه الندبة ، علينا أولاً إجراء فحوصات مخبرية وشعاعية وأخذ خزعة من خلايا الندبة حتى نتأكد من طبيعتها .

بحلقت في الطبيب بعينين متوسلتين ، بلعت ريقها ، ثم سألت : هل هناك احتمال لوجود مرض خبيث؟

قال الطبيب بصوت مهني محايد : لا أعرف بعد . . . الأمر محتمل ، ولكن دعينا لا نستبق الأحداث . هل سبق لك أن أجريت فحص «ماموغرام»؟

هزّت رأسها نافية . فقال : من الأفضل أن نجري هذا الفحص أولاً .

سحبت نفساً عميقاً قبل أن تستفسر : وهل سيستغرق

ذلك وقتاً طويلاً؟

- الأفضل أن ننتهي من الفحوصات بالسرعة الممكنه . سأحدد لك موعداً لفحص «الماموغرام» ، وأخذ خزعة في المستشفى المركزي ، وأعلمك به .

- شكرا لك . . . طاب يومك .

في طريق عودتها عرّجت على أحد مراكز التسوق الضخمة ، زارت بعضاً من محال بيع الثياب الأثيرة لديها Monsoon و Next ، استعرضت الملبوسات الجديدة ، وملابس السباحة ، اشترت بلوزة سوداء بفتحة صدر رحبة تظهر شقّ النهدين ، وتساءلت إن كانت ستتمكن من ارتداء ملابس السباحة في مستقبل أيامها .

اتجهت إلى حيث أكثر المحلات شهرة Debenhams ، جرّبت أحد العطور الحديثة ، وقاست حذاءً صيفياً مفتوحاً يكشف عن أصابع القدمين ثم أعادته إلى مكانه بحسرة . صعدت إلى المقهى في الطابق الثاني ، توجهت إلى حيث سيدة تبيع القهوة وطلبت فنجاناً من القهوة الخالصة من دون سكر أو حليب ، ناولتها المرأة الفنجان وابتسامة عريضة تعلو شفتيها . جلست إلى إحدى الطاولات وشردت تراقب المارة ، الأطفال ، والباعة إلى أن انتهت من قهوتها المرّة .

عادت إلى المنزل ماشية وظنونها تكاد تشلّ قدميها . ألقت بنفسها على أول مقعد وأجهشت بالبكاء . تلفّتت حولها وكأنها ترى المكان للمرة الأولى ، ما عادت الأشياء على حالها ، كل

الأشياء اكتسبت معاني جديدة ، أثاث المنزل ، أدوات المطبخ ، صورتها على الحائط ، صور رحلة العسل القصيرة في اسكتلندا في البراويز الفضية على الأرفف ، ملابسها المكدّسة في خزانة الحائط الواسعة والتي لم تجد المناسبة لارتدائها . أين ترتديها في مثل هذه العزلة الثقيلة ، لا أهل ، لا صديقات ، لا مناسبات اجتماعية ، لا أعراس؟ حتى جسدها سيصبح مختلفاً . جسدها الجميل ، النضر سيفقد أجمل معالمه .

دخلت إلى غرفة النوم وخلعت ملابسها ، همّت بارتداء ثوبها المنزلي ، فلمحت صورتها ترتسم على مرآة طاولة الزينة . أسقطت الثوب من يدها وانتصبت أمام المرآة . طالعتها ملامح امرأة شاحبة ، منهكة ، تكبرها بعشر سنين . خلعت حمالة الصدر ووقفت تتأمل صدرها العاري . لطالما أعجبت بتكويرة ثدييها ، ولدانة نسيجهما الورديّ الجميل . تحسست ثديها الأيسر فاصطدمت أصابعها بنتوء قاس يؤكد لها أن الندبة ما زالت في موقعها ، لم تختف كما تمنّت ، ما زالت تلتصق بجانب ثديها كوشم قبيح .

قريباً ، لن يكون هناك ما تتحسّسه على الجانب الأيسر من صدرها ، سيختفي جزء من أنوثتها . شعرت بالحقد على كل شيء ، الظروف ، والقدر ، وعلى ذاك المرض البشع ، اللئيم الذي يطعنها في صميم أنوثتها . احتوت كل ثدي بكف وضغطت عليهما بلطف حتى اقتربا من بعضهما ، وكأنها تريد أن تجمعهما في لقاء أخير قبل أن يفترقا إلى الأبد ، وبكت .

هوت على الأرض ، أمسكت برأسها بين يديها وكوّرت جسدها في وضع جنيني وهي تتخيل تضاريسها القادمة : امرأة بثدي على الجانب الأيمن ، وبقعة مطرّزة بالقطب القبيحة على الجانب الأيسر من صدرها ، وتساءلت : «ترى ، كيف سأرضع طفلي إن رزقت بطفل؟»

«كل مـا كـان منفى يعـتـذر عني
لـكـل مـــــا لـم يـكـن مـنـفـى!»

محمود درويش

(٢)

صبـاح الأربعـاء ، آخـر يوم من أيام هذا العـام الكئـيب ، والقصف لا يزال على قدم وساق!

الشـمس تغـمر النافـذة بحـزم خـجولة من الضـوء وتفـضح عري الشجرة في الخارج ، تغمر حشائش الحقل ، التي ابيضت رؤوسها بفعل الجليد ، ببعض الدفء . النشرة الجوية كانت قد أعلنت عن تشكّل الصقيع في ساعات الصباح الأولى ، الهواء تجمّد هو الآخر .

ألقيت نظرة إلى ساعة الحائط ، فرأيتها تشير إلى السابعة ، نظرة أخرى إلى حيث هي في السرير ، فرأيتها تغطّ في نوم عميق . أخذت حمامي الصباحي ، ارتديت ملابسي استعداداً للخروج إلى العمل ، ويبدو أن حركتي أيقظتها ، فتساءلت على الفور : هل توقفت الحرب؟

- ليس بعد!

- ألم يكتفوا من دمنا؟

- ليس بعد!

قبل مغادرتي المنزل ، سألتها : حبيبي ، أتريدين شيئاً؟

أجابت : شكراً . إلهام على وشك الحضور لمساعدتي .

إلهام ، جارتنا العراقية ، التي ما إن علمت بأن المنزل المجاور الذي كان شاغراً قد سكن ، حتى طرقت الباب بصحبة زوجها لطفي وطفلتهما الوحيدة إيمان ، حاملين معهم طبقاً من حلوى «الكليجة» التقليدية ، وباقة من الزهور ترحيباً بجيرانهم الجدد . وكم كانت دهشتهم كبيرة ، وفرحتهم أكبر حين عرفوا أننا عرب مثلهم . لطفي وإلهام وطفلتهما كانوا من ضمن مجموعة كبيرة من العراقيين الذين غادروا العراق إلى لندن في العام ٢٠٠٥ تحت مسمى «الحالات الصعبة» ، وما زالوا بانتظار أن تقرر الحكومة بشأن منحهم صفة طالبي اللجوء Asylum Seekers ، قبل أن يتمكنوا من الاستقرار النهائي هنا .

لم تتأخر إلهام عن موعدها . كعادتها منذ ما يقارب الشهر ، في الصباح ، توصل طفلتها ، التي أكملت الثانية عشرة من عمرها قبل أيام ، إلى باب مدرستها مشياً على الأقدام ، تقبّلها مودعة قبل أن تعود أدراجها لتعرّج على بيتنا لتطمئن على رهام . تمضيان بعض الوقت في الثرثرة ، واستعراض آخر الأخبار ، وما استجد من تطورات على الساحة اللندنية ، وتمضيان بعضاً آخر من الوقت في تنظيف المنزل ، وإعداد الطعام ثم تذهب لاصطحاب طفلتها من المدرسة وإعادتها إلى البيت .

عند عودتي في المساء ، كانت الألعاب النارية تملأ سماء الشاشة ، والقتلى بالمئات . هدايا العام الجديد تتساقط حمماً ودخاناً فوق رؤوس أهالي غزة ، والحصار أحكم أنيابه الحادّة

مانعاً الفرار إلى مصير آخر غير هذا المصير . أصوات كثيرة تطالب بعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن للحصول على قرار بوقف فوري لإطلاق النار ، والدول العظمى تتجاهل تلك الأصوات مانحة إسرائيل المزيد من الوقت لإنهاء مهمتها . . .

أطفأت التلفزيون ، أخفيت جهاز التحكم عن بعد عن متناول يدها . جلست إلى جوارها على طرف السرير واحتضنت كفّها الصغيرة بين يديّ هامساً : إنها ليلة رأس السنة ، ما رأيك أن أصطحبك إلى المطعم الصيني الذي تحبين؟

اعتدلت وأسندت ظهرها إلى الوسائد ثم قالت :يا ليت . . . ولكن . . .

– ولكن ماذا؟

– أخشى من نوبات الغثيان ، الأفضل أن يأتي الطعام إلينا .

قمت إلى الهاتف . اتصلت بالمطعم وطلبت بعض الأطباق من قائمة الطعام المكتوبة على أحد المنشورات الخاصة بالمطعم ، والتي نحتفظ بها لحين الحاجة ، مركّزاً على طبق البطّ الذي تحبه . تحاملت على نفسها ، غيرت ملابسها وارتدت فستاناً من الحرير الأبيض . نزعت القبّعة عن رأسها وارتدت باروكة الشعر المستعار ، لوّنت وجهها ببعض المساحيق التي أزالت شحوبه وأعادت إليه رونقه السابق . توّجهت إلى المطبخ بخطى متعبة ، وجهّزت المائدة بالأطباق والشوك والسكاكين . أخذتها بين ذراعي مبدياً إعجابي بثوبها : ينقصك جناحان وتصبحين ملاكاً!

لم تجب . اكتفت بابتسامة صغيرة .

أضأت عدداً من الشموع ونثرتها بعشوائية في أرجاء الصالون ، وأشعلت الشموع المزروعة في شمعدان فضي على طاولة الطعام . وضعت شريطاً من الموسيقى في جهاز التسجيل وأدرته ، فانبعث صوت موسيقى هادئة ضاعفت من سكون المنزل .

تناولنا عشاءنا على أنغام الموسيقى على مهل ، أسهبتُ أثناءه في الحديث عمّا مرّ بي طوال اليوم محاولاً استنزاف أكبر قدر من الوقت لكي أتخطى بصحبتها عتبات العام الجديد ، وحين لم يتبق ما أخبرها به ، عمدتُ إلى استحضار سلسلة من ومضاتنا الفاصلة : أتذكرين لقاءنا الأول؟ ماذا عن خلافنا الأول؟ طيب ، القبلة الأولى؟

سايرتني في اللعبة ساردة الوقائع والتفاصيل بزخم كأنها وقعت للتوّ . ثم سألتني بدورها : هل تذكر لون عيني؟

كان سؤالاً خبيثاً وقاسيا لم ينطل عليّ . ما كانت ترغب بإجابة ، بقدر ما أرادت أن تمرّر رسالة تنذرني بها من مغبة النسيان لاحقا . فهمت رسالتها على الفور . احتويتها بين ذراعيّ مؤكداً : لن أنسى لون عينيك ما حييت .

انسحبت فجأة من بين ذراعي قائلة : على فكرة ، وصلت صباح اليوم بطاقة في البريد الالكتروني من «لورا» . طبعتها على ورقة ، ووضعتها هناك على طاولة الزينة كي تراها .

تأملتُ البطاقة التي تحمل صورة «سانتا كلوز» وهو يحاول

العبور عبر حاجز في الجدار العازل ، والجندي الإسرائيلي يستوقفه ليسأله عن تصريح المرور .

ابتسمتُ للفكرة ، وقرأت بصوت مرتفع كلمات لورا المكتوبة في أسفل البطاقة بلوعة من اكتشف أن الحلم الذي عاش يترقبه زمناً كاملاً لم يكن سوى وهم زائف :

«أرسل لكما هذه البطاقة من «رام الله» ، من على حافة الجحيم .

كنت على حقّ يا رهام ، لا سلام مع مثل هذا الكيان الهمجي . . .

على أية حال ، أعرف أنه من الصعب علينا تبادل عبارات التهنئة لهذا العام ،

ورغم ذلك أتمنى لكما سنة سعيدة!»

زفرت بأسى ، وعدت لتأمل وجه «سانتا كلوز» الفلسطيني الأسير محدّثا نفسي : لورا ، يا لورا ، أما زلت على عهدك ، مصرّة على تعديل ميزان العدالة المائل ، أم أن رؤيتك للسلام العادل اصطدمت بحواجز التفتيش ، وإسمنت الجدار العازل؟!

على مشارف الساعة الحادية عشرة ، كانت قد استهلكت تماما . أصابتها نوبة من الغثيان والإعياء وضيق النفس ، وعاودتها التشنجات والآلام ، فهرعت إلى كومة المسكّنات ، جرعت ما تيسر منها ثم استلقت على السرير .

لملمتُ الأطباق عن المائدة وغسلتها ، نفختُ في وجه ما تبقى من شموع مشتعلة مخمدا آخر أنفاسها فغرق المكان في

عتمة حالكة ، ألقيت بجسدي على الصوفا ، وبحلقت في العتمة ، أغمضت عينيّ فرأيت العتمة تبحلق بي . رحت أسامرها ، أغمض عينيّ وأفتحهما ، أفتح عينا وأغلق الثانية ، أغلقهما لبرهة ثم أفتحهما فجأة ، لأجدها أمامي في جميع الحالات . تلتفّ حولي حين أفتحهما ، وتغزو أعماقي حين أغلقهما . للمرة الأخيرة فتحت عينيّ فرأيتها تخرج لسانها في وجهي شامتة : أنا اللون الحقيقي للأشياء ، وكل ما عداي هو وهم انعكاس الضوء على الأسطح والأجسام . ثم تمطّت بلؤم مرخية ذراعيها حولي .

مددت يدي خلسة وتحسست علبة السجائر والولاعة ، وما إن نجحت في إشعال سيجارة حتى جفلت ، فكّت ذراعيها من حولي ، وتقهقرت قليلاً عن محيط زهرة السيجارة المتوهجة ، مفسحة لي مشاهدة الدخان وهو يعلو فوق رأسي مشكلاً غيمة هشّة سرعان ما تفسخّت إلى خيوط نحيلة دارت حول نفسها ثم حلّقت عاليا . أشعلت سيجارة ثانية ونفثت المزيد من الدخان في الفراغ ، فتكاثفت خيوط الدخان تدريجيا واقتربت من رأسي مكوّنة حلقة كبيرة على هيئة مشنقة طوّقت عنقي حتى كادت تشنقني .

فززت من على الصوفا مبدداً مشنقة الدخان ، مشيت على أطراف أصابعي إلى حيث أوراقي في غرفة المكتب الصغيرة ، أشعلت مصباح النيون الذي فوق الطاولة ، نظرت إلى كمّ الأوراق المسوّدة أمامي ، فلم أصدّق ما رأيت . أعدت قراءة

بعض الصفحات ، فأرعبتني ذاكرتي . ذاكرتي ، تلك الحقيبة المهملة ، فزعت عندما شاهدت ما بها يندلق أمام ناظري دفعة واحدة ، موجعاً وحارقاً على غير العادة!

أخرجت المزيد من الأوراق البيض ، وضعتها أمامي وتأملتها ، فرأيتني أهيم في فراغاتها على غير هدى ، مثل فلاّح يغرس الأماني في حقول الريح ، يرويها فيضاً من العبرات ، يمضي أيامه في الانتظار ، ثم ينتهي من دون أن يدنو من موسم حصاد .

أمسكت بالقلم الأسود وأكملت ، مستثمراً كون اليوم التالي يوم عطلة . . . .

«عدت من عملي إلى المنزل مساء ، دلفت إلى الصالة فداهمتني رائحة عود البخور الذي تغرسه كل مساء في تراب أصيص نبات الزينة ليلفّ البيت بغلالة شرقية حميمة . وجدتها تعدّ المائدة لوجبة العشاء . رحّبت بي من بعيد وواصلت ما كانت تقوم به . أسرعت نحوها ، ضممتها بين ذراعي وقبّلتها . أحسست بها ترتعش . أمسكت بيدها وأجلستها على «الصوفا» ، وجلست بالقرب منها . أشاحت بوجهها متجنّبة النظر نحوي .

سألتها : ماذا قال الطبيب؟

زفرت بحرقة : لا شيء جديداً ، سيحدّد لي موعداً لإجراء الكشف الشعاعي وأخذ خزعة من . . . الو . . . الورم . . . وغصّت الكلمة في حلقها .

ضغطتُ على يدها وسألت : لماذا لم تتصلي بي بعد عودتك؟

خرج صوتها متحشرجا : لم أرد إزعاجك . . . ثم لم يكن هناك ما يستحق القول .

تذكرت أنه الثاني من آب ، هذا التاريخ المشؤوم لن يتركني بسلام ، للمرة الثانية يدمغ جبيني بعلامته الفارقة ، للمرة الثانية يطعنني من الخلف . احتضنتها بين ذراعي فصارت تنتحب . مسحتُ على شعرها الكستنائي الكثيف وطمأنتها ، وربما كنت أحاول طمأنة نفسي أيضا وأمنع الخوف من أن يتسرّب إليّ : لا تقدّري البلاء قبل وقوعه . . . أليس من الممكن أن يكون ورما عابرا وينتهي ببضع حبّات من المضاد الحيوي؟

سايرتني بهزّة من رأسها ثم قامت لتأخذ مقعدها على المائدة ، فتبعتها إلى مقعدي .

همست وهي تسكب لي الطعام : لا أصدّق كيف يمكن للحياة أن تبدو شرسة ومعادية في لحظة واحدة فقط .

هززت رأسي موافقا . أعرف هذا الشعور ، بل عشته بحذافيره ، مرّت بي لحظة مشابهة أوقفت عقارب الزمن وغيّرت مسار حياتي في الوقت الذي كنت أظن فيه أن الحظ قد ابتسم لي ، وأن القدر على وشك أن يمسح على رأسي بيد حانية . لحظة واحدة دمّرتني وقلبت عالمي رأساً على عقب .

سرحت أسترجع سمائي الأولى ، ألواني الأولى ،

وأحلامي الأولى . . .

ولدت أنا ، آخر العنقود ، في شقة واسعة في السلمية تضم أما وأبا ، وثلاثة إخوة سبقوني إلى الحياة . أخبرتني أمي أنني كنت منذ صغري دائم التوثب والحركة ، لا أطيق المكوث في مكان واحد . في شهري السادس ابتدعت طريقة فريدة في الحبو تختلف عن حبو سائر الأطفال ، أغرز أصابع قدميّ الطريتين في الأرض ، أرتكز على يدي الصغيرتين ، وأقفز دافعا بجسدي إلى الأمام كالضفدع زاعقا : ويئ ويئ .

وهناك أمام البيت ، امتدت ساحة رحبة ضاقت على طيش طفولتي ، شاركت أولاد الحارة ألعابهم كلها ، من لعبة الحرب إلى «القلول» مرورا بلعبة عسكر وحرامية ، و«الموكسي» . فيها تعلّمت ركوب الدراجة الهوائية ، وبين أسوارها تعلّمت قيادة السيارة وأنا في الرابعة عشرة من عمري ، عندما كنت ألطش مفتاح سيارة أمي وأدور بها دورات عدة فيما هي منشغلة في شؤون المنزل .

لبيتنا سطح أصعد إليه بحجة المذاكرة ، وفي الحقيقة ، أنني كنت أدخن ، وأبصبص على الجارات في العمارات المجاورة . على الجانب الآخر من الشارع تقبع مدرستي الثانوية بمبانيها الفسيحة ، و التي كثيرا ما كنت أثب من سريري ، لأقفز من فوق سورها إلى فصلي مباشرة ، حين كان يرهقني السهر ويستعصي عليّ الاستيقاظ المبكّر للّحاق بطابور الصباح .

وعلى بعد خطوات من البيت ، يسترخي شاطئ أملس

برمال برونزية ، لوحتها الشمس على مهل ، وبحر رائق مسالم في غالب الأحيان ، اتخذته صديقا حميما ، أخوض في مياهه المنعشة ، أتعارك مع أمواجه الواهنة ، أغوص لأقطف من قاعه صدفة أو محارة ، وإن لم أجد فحفنة من الرمال . أمتطي أمواجه بلوح التزلج الخشبي ، أتحدى هيجانه حين يثور فتتقاذفني أمواجه هازئة بي وبلوحي الخشبي ، ويخيل إلي أنني أسمع صوت هديره محذرا : لا تتحداني واتق شرّي ، تعرف أني قد أبتلعك في إحدى نوبات غضبي .

كان لي أمل ، تخيلته ، واعتنيت بتفاصيله الصغيرة ؛ أن أكمل تعليمي الجامعيّ بأي شكل بعد أن حالت وثيقة السفر المصرية دون قبولي في جامعة الكويت . راسلت الجامعات التركية حتى حصلت على قبول في جامعة أنقرة . أمضيت سنتين في دراسة اللغة التركية ، ثم وقع اختياري على جامعة شرق المتوسط في مدينة «فاماغوستا» في الشقّ التركي من قبرص لأن مناهجها تعتمد اللغة الانجليزية . سجّلت في قسم إدارة الأعمال في كلية التجارة ، وصرت أرى حلمي يتحقق أمام ناظري يوما بعد يوم ، وما إن اقترب موعد الفرح حتى فصلني عنه نصل لحظة غادرة ، لحظه واحدة كانت كافية لأن تقطعني من جذوري كشجرة يابسة ، وتزجّ بي في خانة المشردين .

تحت جنح ليل أسود ، فقدت كل شيء ، البيت ، والأهل ، والبحر والذكريات . اجتاح الرئيس العراقي الكويت وأطاح

بجميع أحلامي . فجأة ، وجدتني وحيدا ، مقطوعا في بلد غريب وأنا على أبواب السنة الأخيرة من دراستي الجامعية . لا اتصالات ممكنة مع الأهل ، لا أخبار تصلني أو تصل مني . تنازعتني الظنون خوفا وقلقا عليهم . أمضيت أياما على الحدود ، علّني ألتقي بمن يحمل لي خبراً عنهم . توجّهت للمطار وانتظرت في قاعة القادمين ، ربما تمكّن أحد معارفي من مغادرة الكويت والمرور بقبرص في طريقه إلى جهة ما من هذا العالم . لأيام ، لم ألمح وجهاً مألوفاً . حمّلتُ زميلا لي ، وهو في طريقه لزيارة أهله في الأردن ، رسالة ورجوته أن يعمل على إرسالها مع أي شخص ، أو سائق شاحنة ، أو حتى مهرّب إلى أهلي في الكويت ، وعرفت حين لم يردني أي جواب أن الرسالة لم تصل .

في هذه الأثناء ، كان ثمة حرب أخرى تدور في الخفاء ما بين الزمن وحلمي القديم . صار الوقت هاجسي . أحصي الأيام ، الساعات ، بل الدقائق التي تفصل ما بين الثاني من آب وبين تشرين الأول . كل يوم يمضي من دون أي جديد ، يضمحل حلمي ويذوي . ماذا أفعل؟ إن شققت نفسي في العمل ، لن أستطيع توفير المبلغ المطلوب للرسوم الجامعية في بداية السنة الدراسية القادمة .

قبعت في مسكني أتابع الأخبار على سائر المحطات التلفزيونية والإذاعية المتاحة ، فلم تكن الفضائيات قد انتشرت حينها . انتظرت انسحابا للقوات العراقية ، بل تمنيته من صميم

قلبي ، ولم أتوقع أن يصرّ الرئيس صدام حسين على البقاء في الكويت رغم كل التهديدات الدولية ، والحشود العسكرية التي بدأت في تطويقه .

حين تأكد لي إصرار الرئيس صدام على عدم الانسحاب ، قررت أن أذهب إلى مدير مكتب التسجيل وأشرح له الأمر ساخرا من نفسي : أي أمر؟ هل من المعقول أن أحدا في العالم لا يزال غافلا عما يدور على أرض الكويت؟ فكرت فيما سأقول . هل أدخل إليه من مدخل ديني؟ كأن أقول : نحن مسلمون و إغاثة الملهوف من المآثر الحميدة لديننا الإسلامي الحنيف . أم سياسي؟ فأقول : إن من مصلحة تركيا استقطاب جميع الطلبة القادمين من الكويت لأن صدام حسين رجل ذو أطماع توسعيه ؛ وقد يبادر إلى مهاجمة تركيا يوما ما كما فعل مع إيران .

بعد مداولات طويلة مع نفسي ، قررت أن أعتمد أسبابا إنسانية بحتة ، ذهبت إلى مدير مكتب التسجيل وقلت متلعثما : أرجوك ، إني مقطوع ومفلس ، سدّت في وجهي كل طرق الاتصال مع أهلي ، أمهلني إلى أن تنتهي الحرب وسأدفع كل ما يترتب عليّ من رسوم .

لم تنجح جميع توسلاتي ، وما إن أعلن عن تحرير الكويت في شباط من العام التالي حتى كانت السنة الدراسية قد ضاعت ، كما انتهت فترة إقامتي في البلد ، ولولا تدخل المفوضية العليا لشؤون اللاجئين لتجديد إقامتي ستة أشهر

إضافية ، لكنت مرميا على حدود دولة ما حتى هذا اليوم .

في غفلة من وهج المسمّيات والألقاب ، تعثّرت بخانة طالب ، وسقطت في خانة لاجئ . صرت مدرجا على قوائم اللاجئين الصادرة عن وكالات الأمم المتحدة . وبعد كل هذا العناء ، حصلت على شهادة أمّية في اللجوء عوضاً عن الشهادة الجامعية . ورغم علمي الأكيد بأنني لاجئ منذ الولادة ، إلا أن مظاهر اللجوء كانت مبهمة وخفيّة ، لم أشعر بها في الكويت منذ ولادتي وحتى أنهيت المرحلة الثانوية . فبخلاف أقراني من أبناء الجاليات العربية ، تمكّنت من الدراسة في المدارس الحكومية لأن أبي السائق الخاص للأمير جابر الصباح . يوصله في جولاته الكثيرة ، يستقبل كبار زوّاره وضيوفه من المطار ، يؤمن وصولهم إلى القصور أو أجنحة الفنادق . ولا يزال يحتفظ بصورة تجمعه مع الملكة اليزابيث ، ويعتز بها أيما اعتزاز . منذ ذاك التاريخ المنحوس ، أحسست للمرة الأولى بمرارة هذه الكلمة التي فصلتني نهائيا وللأبد عن تاريخي ، وجذوري ، وحتى أحلامي .

بعد وقت ، بات التفكير في توفير مصاريف الدارسة ، ترفا أمام توفير متطلبات الحياة الأساسية من مأوى ومأكل . لملم الزملاء القادمون من الكويت أنفسهم ، تباحثنا فيما يمكن عمله للخروج من هذا المأزق . وضعنا كل ما بحوزتنا من نقود واستأجرنا بيتا واسعا تشاركناه جميعا . صرنا نعمل في المطاعم والحانات ونجمع ما ندّخره لشراء حاجيات المنزل وسدّ مصاريفه .

ضاقت بي الحياة ، ففكرت في العودة إلى الكويت عن طريق الأردن فالعراق . ذهبت إلى السفارة الأردنية في أنقرة للحصول على تأشيرة دخول إلى الأردن ، وحالت وثيقة سفري المصرية دون حصولي على تأشيرة . عندها ، خطر لي أن أدخل العراق عن طريق الحدود التركية مباشرة . ذهبت إلى قاعدة «إنجيرليك» على الحدود ما بين العراق وتركيا ، وتأملت المدى . كل ما ينقصني هو قطع هذه الحدود لأصبح فوق الأراضي العراقية . وفيما كنت جالسا أحرق سيجارة تلو الأخرى بانتظار شاحنة تقلّني عبر الحدود التركية إلى العراق ، أحسست بيد تربّت على كتفي ، التفتُّ فإذا بضابط تركي يسألني : ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وضحك .

عرفته ، كان زميلا في الجامعة يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية على الحدود . شرحت له أسباب وجودي ، فدعاني إلى شرب كوب من الشاي في الثكنة العسكرية القريبة . أخبرني بأنني إن خرجت من تركيا ، فلن يكون باستطاعتي العودة إليها ثانية لأن الحدود مغلقة . ونبّهني من أن عودتي ثانية ستتطلب الحصول على تأشيرة دخول جديدة . وما إن حذّرني من نيّة السلطات العراقية تجنيد الفلسطينين في الجيش الشعبي العراقي ، حتى عدلت عن فكرة الهروب نهائيا ، ورجعت إلى فاماغوستا أجرّ اذيال خيبتي .

في فاماغوستا ، تذّكرت أن أمي تحمل الجنسية البريطانية ، ولا بد أن يكون لها قيد في سجل الأحوال المدنية . ذهبت إلى

دائرة الأحوال المدنية في نقوسيا ، فأخبروني أن السجلات القديمة قد تم ترحيلها إلى مخازن بعيدة أثناء الحرب ما بين تركيا واليونان في السبعينات . ذهبت إلى تلك المخازن ، تحايلت على الموظفين بالهدايا تارة ، وبالكلام المعسول تارة أخرى إلى أن سمحوا لي بأن أفتّش بنفسي في المخازن . نبشت في كل السجلات القديمة حتى وجدت ضالتي .تقدمت لوزارة الداخلية بطلب الحصول على الجنسية القبرصية . بعد جهد منحوني إقامة مؤقتة إلى أن يتم التثبت من أوراقي .

فجأة صار الوقت عدوّي اللّدود ، وبعد أن كانت حياتي حافلة ومليئة بالأصدقاء والكتب والمحاضرات ، وجدت نفسي وحيدا لا أمارس غير مهنة الانتظار ، والوقت يمرّ بطيئا وطويلا على المنتظرين . أذهب كل أسبوع لمتابعة ما استجد على معاملتي في وزارة الداخلية حتى ضاق بي الموظفون . نصحني أحدهم بأن أغيب لفترة طويلة ، فالإجراءات القانونية تحتاج إلى وقت طويل ، وأضاف : إشغل نفسك ، بالتأكيد لديك ما يشغلك .

ثم أنهى كلامه بموعظة بدت لي غاية في الغباء : الإنسان الذي يستثمر وقته بكفاءة هو إنسان عبقري!

لعنته في سرّي : أيها اللعين ، من قال لك بأنني مشغول أو عبقري؟ أنا صعلوك ، ولا أجد ما يدفعني إلى استغلال وقتي استغلالا عبقريا كما تريد .

كل يوم أصحو من النوم ، أرشق وجهي بحفنة من الماء ،

أرتدي ثيابي ثم أجلس في إحدى المقاهي لا أفعل شيئا حتى غروب الشمس . للوهلة الأولى ، بدوت حقا كمن لا يفعل شيئا ، إلا أنني في الواقع كنت أحرق مئات من السجائر ، آكل السندويشات ، أقرأ الجريدة ، أدور حول الأماكن ذاتها مرّات ومرّات قبل ان أختفي لأفعل اللاشيء .

ما الذي يمكنني فعله بمثل هذا الرأس الفارغ؟ لا خطة ، لا فكرة ترد إلى رأسي . أي أحمق بإمكانه أن يحمل رأسا فارغا ويجلس من دون أن يفعل شيئا ، ولكن العاقل مثلي ، عليه أن يملأ رأسه بفكرة ما قبل أن يجلس ليفعل اللاشيء! . الناس من حولي ، والذين مصيرهم لا يشبه مصيري ، مفعمون بالخطط والانشغالات ، بينما حالي يشبه حال إله إغريقي ، مشغول بفن الكسل كمهنة أزلية!

أدور في الطرقات ، أتسكّع على شاطئ البحر ، فيهدر صوته في أذني شامتا : أنت ملعون ، سيطول تيهك ، وستظل حياتك رحلة بلا ميناء ، وترحالا من غير وصول .

تجاهلته ومضيت في سبيلي ، إلا أنه لم يمض في سبيله ، بل ظل يلاحقني بهديره : أنت ملعون ، ملعوووون . سددت أذني بأصابعي حاجبا صوته عني فطنّ صوته هادرا داخل رأسي : أنت ملعون . . . رحلة بلا ميناء . . . من غير وصول . . .

ثرت في وجهه ناقما : «بوسيدون» . . .أيها الأحمق . . . لست «عوليس» لتصب عليّ لعنتك! لم أعاندك يوما حتى تمقتني إلى هذا الحد . . . سأقتلك!

هجمت عليه وخضت في مياهه بكامل ثيابي ، تصارعت مع مياهه ، تعاركت مع أمواجه ، لويت عنقها بيدي ، عضضت فيها بأسناني ، مزّقتها بأظافري صارخا به : كفى . . .كفاك انتقاما مني .

ما إن هدأت ثورتي وخرجت من الماء مرتجفا ، حتى وجدت رجلا يضع حراما صوفيا فوق كتفيّ . تركني جالسا على الرمال لبعض الوقت ، ثم أشار لي بيده أن أتبعه . كان رجلا في حوالي الخمسين من العمر ، ببشرة برونزية لامعة ، وشعر أشقر يخفيه تحت قبّعة صغيرة خاصة بالصيادين . تغطي لحية خفيفة نصف وجهه . خطا أمامي متعكزا على عصا تفوقه طولا ، يغرسها في رمال الشاطئ بيد قوية ، ويتبعها بقدم ثابتة . تبعته إلى حيث كوخ خشبي متواضع . جلست على أحد المقاعد الخشبية ، فجلس قبالتي على مقعد آخر . أخرج سيجارة من علبة السجائر الملقاة على طاولة صغيرة وسأل : هل لديك ولعة؟ أخرجت ولاعتي ، جفّفتها جيدا وأشعلت له سيجارته . نظر إليّ نظرة طويله وهو يشدّ نفسا من السيجارة وقال : إن كنت تملك ولعة ، فلم تعيش في الظلام؟

أطرقت قليلا أفكر فيما قال ثم همهمت : لأني الحصان «بيغاسوس» الفلسطيني . . . منذور لأن أظل محلّقا ما بين السماء والأرض!

ربّت على كتفي في ودّ وعرض عليّ سيجارة أخذتها شاكرا . أخرج زجاجة من العرق وصبّ قليلا منه في كأسين

ملأ نصفيهما بالماء ، حرّك المزيج بإصبعه ، ثم ناولني إحداها ووضع الأخرى على منضدة إلى جواره . مدّ لي يده مسلّماً ومعرّفاً بنفسه : أنا «ياني» يوناني الأصل ، و هذا الكوخ مأواي ومورد رزقي .

أشار إلى زاوية في طرف الكوخ وتابع : أتخذ من هذه الدكّة سريرا ، وأدير ما تبقى منه حانة و مطعما صغيرا . أصيد السمك في النهار بقاربي الصغير ذاك ، وأشويه للبحّارة الذين يتوافدون إلى هنا مساء لقضاء وقت لطيف في السهر ، وأكل السمك والرقص والغناء على أنغام الماندولين .

بتّ تلك الليلة في كوخ ياني . في الصباح الباكر ، همس لي قبل أن يبحر على متن مركبه الصغير لصيد السمك : التفت حولك تجد الحياة ، ربّما يحمل الغد لك جديدا .

عدت إلى جولات التسكع وفعل اللاشيء بانتظار ما قد يحمله لي الغد . والغد يأتي ويمضي من دون أي جديد . وقفت يوماً قبالة ياني وصرخت به : أين هي الحياة التي تعدني بها؟ دخت لكثرة ما تلفتّ حولي ، لم يتبق خرم في هذه الجزيرة إلا وبحثت فيه . متى يأتي هذا الغد؟

أشار بإصبعه إلى رصيف الميناء ، ومضى .

في إحدى جولات تسكّعي ، مررت برصيف الميناء فظن أحد التجار أنني عتّال ، ناداني وطلب مني نقل هرم ضخم من الصناديق إلى شاحنة تقف إلى جوار الرصيف . نقلتها ، فنقدني مبلغا من المال . واظبت على المكوث على الرصيف

طمعا في عمل مشابه إلى أن رأيت رجلا يشير لي من خلف نافذة مكتب لتخليص البضائع . توجّهت إليه ، فسألني عن حالي . شرحت له حالي بالتفصيل ، وحين علم أنني أنهيت ثلاث سنوات من الدراسة الجامعية ، عرض عليّ العمل لديه في المكتب . شرح لي ما عليّ القيام به وأضاف : راقبني وستتعلم المهنة بسرعة . رافقته في جولاته على السفن المحمّلة بشتى صنوف البضائع ، تبعته إلى مكتب الجمارك ، راقبته وهو ينهي معاملات التخليص مع مندوبي الجمارك وأصحاب البضائع ، تتبعت كل شاردة وواردة تخصّ التعليمات الخاصة بتجهيز بيانات الشحن ، وأوراق التخليص حتى حفظت الخطوات والإجراءات عن ظهر قلب ، وصرت ماهرا في أعمال تخليص البضائع . عندما قبضت راتبي الأول ، اشتريت قنينة من العرق وكيلو من اللحم وهرعت إلى كوخ ياني ، شوينا اللحم والتهمناه مع كؤوس العرق ، غنينا ورقصنا في احتفال مهيب إلى أن شقشق الفجر .

صار الكهل صديقي الحميم ، بل صديقي الوحيد . ساعدته في أعمال الطهو ، وشاركت البحّارة سهراتهم وأوقات سمرهم التي لا تنتهي . علّمني «ياني» كل ما هو يوناني من رقص ، وعزف على الماندولين ، وطريقة صنع الأطباق اليونانية الأصيلة .

كان إلى جوار كوخ «ياني» ، كوخ آخر انتقل صاحبه للإقامة في مكان آخر ورغب بتأجيره ، فاقترح «ياني» أن

يتوسط لي عند صاحب الكوخ ليؤجّرني كوخه بسعر مناسب . أستأجرت الكوخ ، وجاورت ياني . في أحد الأيام وصلتني رسالة عن طريق زميل من زملاء الجامعة الذين كانوا في الكويت تخبرني أن أهلي يعيشون بأمان في بريطانيا ، وأن بإمكاني الاطمئنان عليهم ومكالمتهم على رقم هاتف دوّنه في رسالته . اتصلت بالرقم فسمعت صوت أمي مزغردا ، دافئا وحنونا ، ولم يكن صوت أبي أقلّ لهفة وبهجة .

في إحدى ليالي السمر في كوخ «ياني» ، وقد كان يعبث بأزرار المذياع قبل أن يستقر على محطة تروقه ، سمعت جملة عابرة باللغة العربية فسارعت إلى تثبيت مؤشر المذياع على تلك المحطة . كانت إذاعة محليّة تبث باللغة العربية ، غير أن المذيع يصرّ على قتل اللغة بأخطائه اللغوية والنحوية .

علّقت ناقما : هذا الرجل لا يعرف العربية ، كيف عيّنوه مذيعا في المحطة؟

اقترح ياني : ما رأيك أن تأخذ مكانه؟

بدت الفكرة دنيئة في بادئ الأمر ولكنها جديرة بالمحاولة . ذهبت إلى مقر الإذاعة ، استفسرت عن وجود شاغر فطلب إليّ الموظف المسؤول أن أملأ استمارة طلب وظيفة وأتركها لدى السكرتيرة ، ففعلت . عدت إلى عملي في مكتب التخليص ونسيت الأمر .

بعد ما يقارب الشهرين ، حضرت ثلّة من رجال الأمن إلى مكتب التخليص للسؤال عني . ارتاب مدير المكتب وخشي أن

يكون وراء هذه الزيارة مصيبة ما ، أرسل لاستدعائي والشّك ينهشه .

حين قابلتهم ، بادرني الضابط بالسؤال : أنت وليد فارس؟

أجبت : نعم أنا .

- هل تقدمت بطلب التحاق بوظيفة معدّ برامج في الإذاعة العربية؟

- نعم .

ابتسم الضابط مبددا مخاوفي شارحا : إنه إجراء روتيني نجريه للتحقّق من سجلّك الأمني ، نريد استيضاح بعض المعلومات فقط .

أجبت بارتياح : ليس لديّ أية سوابق ، أنا رجل في حالي .

شكرني الضابط وغادر .

بعد أسبوع وصلتني رسالة تخبرني عن قبول المحطة تعييني معدّا للبرامج في القسم العربي للإذاعة . غمرتني الفرحة واستبدت بي الحماسة . تعرفت على زملائي في العمل ووضعنا خطة تفانينا في تنفيذها . أعددنا سلسة من الحلقات تغطي أخبار الجالية العربية في قبرص ، ورصد الزيارات التي يقوم بها مسؤولون عرب ، ومتابعة المظاهرات التضامنية مع أطفال الحجارة في فلسطين ، إلا أنني كنت أتميّز من الغيظ كلما سمعت صوت المذيع الكردي صاحب الأخطاء النحوية يقرأ نشرة الاخبار بلغتة العربية المشوّهة ، إلى أن كان اليوم الذي تغيّب فيه المذيع عن

الحضور فما كان من مدير المحطة إلى أن طلب مني أن أسد مكانه ، جلست في غرفة البث منتشيا باستفرادي بجهاز الميكرفون ، قبلته قبلة خاطفة أمام نظرات التعجب المطلة من عينيّ مراقب الصوت ، قرأت نشرة الأخبار جاهدا في منح صوتي بصمة مميزة ، أثنى على تميّزها مدير المحطة ثناء أهّلني فيما بعد لأن أتناوب والمذيع الكردي قراءة نشرات الأخبار .

بعد ثلاث سنوات من الانتظار حصلت على الجنسية القبرصية . لم أعد لاجئاً ، صار لي رقعة من الأرض تؤويني ، وصار النوم يتسرّب إلى جفوني طواعية ومن دون أدنى عناء ، ابيضّت أيامي ، وعبقت لياليّ برائحة البحر والسمك وأنغام الماندولين ، أحببت عمري من جديد ورحت أستكشف أرجاء الجزيرة الصغيرة ، وطني الجديد ، بشغف بالغ ، لكن الأيام الجميلة لم تطل كثيرا . بعد أقل من سنة تم استدعائي لأداء الخدمة العسكرية ، ودارت بي الدنيا من جديد .

ذهبت إلى العنوان المدوّن في الاستدعاء وأعلنت عن نفسي ، فأحالوني إلى الطبيب لإجراء فحص اللياقة البدنية . ولما كانت لياقتي البدنية غير مشكوك في صحّتها ، أمروني أن أسلّم نفسي إلى معسكر «فاماغوستا» بعد أسبوعين . علمت من الضابط أن فترة خدمتي ستنخفض من ثمانية عشر شهراً إلى ثمانية أشهر فقط ، بسبب دارستي الجامعية وبسبب تمكّني من اللغة التركية ، غير أن خدمتي غالبا ما ستكون في المناطق الحدودية النائية .

عدت إلى كوخي وأنا أفكر في الأيام القليلة الباقية لي من الحرية مستسلما لقدر لا يمكنني تغييره . على باب الكوخ ، وجدت إشعارا من البنك بوصول حوالة مالية . ذهبت إلى البنك وصرفت الحوالة التي أرسلها أبي وكانت بقيمة ثلاثمائة دولار . فكرت فيما يمكن فعله بهذا المبلغ . هل أدّخره لأيامي القادمة في المعسكر ، أم أستنفده في ما يروقني من سبل اللهو والعبث قبل ان أكف عن الحياة وأدفن في ثكنة عسكرية نائية؟

قرّرت أن ألهو قليلا . ذهبت إلى الكازينو وفي نيّتي ان أخسر المبلغ بكامله . جلست أراقب اللاعبين ، متتبعا نظرات الفرح في عيون الرابحين وعلامات الخيبة على وجوه الخاسرين . دفعتني قلّة الحيلة وعدم الاكتراث إلى المشاركة . قرّرت ان أبدأ بمبلغ صغير في لعبة الروليت . استبدلت خمسين دولاراً «بفيشات» اللعب الملونة ، وضعتها كلها على دستة الأرقام الأولى التي تربح ضعف المبلغ ، فربحت وتضاعف المبلغ إلى مائة دولار .

التفت حولي فرأيت امرأة تتلألأ بثوب برّاق يكشف عن نصف نهديها العامرين ومساحة وفيرة من ساقيها الطويلتين . امرأة فاتنة ، كاملة الأنوثة . بحلقت فيها ناسيا المبلغ الذي ربحته في مكانه على الأرقام ذاتها محدّثا نفسي : لا بد أن تكون هذه المرأة خاتمتي لهذه الليلة ، ذكرى أقتات عليها حتى نهاية خدمتي العسكرية . رمقتني بنظرة ازدراء ، وأزاحت خصلة من شعرها الأشقر الطويل عن عينها .

ربح المبلغ الذي نسيته في مكانه مرة ثانية وثالثة وذهني مشغول في طريقة تقرّبني من تلك المرأة ، ولم أكتشف أن المائة دولار قد أصبحت ثمانمائة حتى نبّهني إلى ذلك صوت الرجل الذي يدير آلة الروليت مبتهجا : هيه . .حسنا فعلت!

لم أبتهج بالنتيجة ، خاصة وأن هدفي من اللعب كان خسارة المبلغ لا مضاعفته . لملمت «فيش» اللعب الملونة في صفين أمامي ، بحلقت فيها برهة ، ثم قسمتها إلى نصفين . وضعت النصف الأول على الدستة الأولى ، والنصف الثاني على الدسته الثالثة مصرّا على خسارة ماحقة ، وأمام دهشتي ربحت الدستة الثالثة وصار المبلغ ألفاً وستمائة دولار .

غيّرت طريقة اللعب . وضعت ما قيمته ألف وخمسمائة دولار من «الفيش» على اللون الأحمر عوضا عن دستة الأرقام ، فربح ثلاثة آلاف أخرى مضاعفا دهشتي واستيائي . تلك اللحظة ، توجّهت نظرات جميع اللاعبين نحوي ، بما فيها تلك المرأة ، ثم اقتربوا مني وطوّقوني . فرحت ، ها قد نجحت أخيرا في لفت انتباهها .

جمعت «الفيش» كلّها ووضعتها على الدستة الثانية أمام اعتراضات الذين أحاطوا بي لمتابعة مسار اللعبة . كنت قد حسمت أمري على التخلص من المبلغ نهائيا ، غير أن الحظ كان قد حسم أمراً آخر . ضجّت القاعة بتهليلات المتابعين حين ربحت ثلاثة أضعاف المبلغ وصرت أملك ما يفوق العشرة آلاف دولار .

حـملت مـا ربحت من فـيش وذهبت لاسـتـبـدالهـا من الصندوق ، دسـست النقـود في جـيب سـترتي وتوجـهت إلى البار . طلبت فنجانا من القهوة المرّة كي أستعيد وعيي بعد كل الذي كنت قد دلقته في جوفي من كحول ، فإذا بالمرأة بثوبها البرّاق تتبعني . جلست إلى جواري هامسة : حظك قوي هذه الليلة!

نظرت إليها في غير تصديق وقلت : أنا محظوظ فقط لأنك إلى جواري .

وما إن هممت بدعوتها لتناول شيء ما ، حتى تناهت إلى مسامعنا أصوات صاخبة صادرة من الجهة التي تجتمع بها الشلّة التي كانت المرأة برفقتها ، ويبدو أن وجودنا معا لم يعجبهم ، أو أن وجودي بحد ذاته بدا تهديدا لأحدهم . أرسلوا إليـها امـرأة سحبتها بعيدا عني وأعادتها إليهم ، غير أنني كنت قد وقعت قـتـيل عطرها ، ونظراتها ، ونهـديهـا المتـوثبين من فـتحـة ثوبهـا البـراق . فكرت أن أدخل في عـراك مع شلّتـهـا ، وأذهب إلى المعسكر بكسر في أحد أضلعي ، فـيؤجّلون خـدمتي لشهـر أو شهرين ، ثم عدلت عن الفكرة مقنعا نفسي بأن العشرة آلاف دولارا التي بحوزتي ستمكنني من الحصول على امرأة أجمل منها .

في الرابعـة صبـاحـا ، توجّـهت إلى مـوظف الاسـتـقـبـال وطلبت غـرفـة ، فـأوضح لي أن الكـازينو يوفـر غـرفـة مـجـانيـة للاعـبين . دخلت غـرفـتي وألقـيت بحـزمـة المال على السـرير

وجلست إلى جوارها مفكّرا . أكل هذه النقود لي؟ ماذا أفعل بها وأنا في طريقي إلى المعسكر؟

فجأة ، وجدت يدي ترفع سماعة الهاتف وتطلب رقم الاستعلامات المدون على ورقة صغيرة إلى جوار الهاتف . ما إن سمعت صوت الموظف حتى طلبت إليه أن يوصلني بحجوزات المطار . جاء صوت مسؤول الحجوزات بعد ثوان قليلة ، فاستفسرت منه عن أول طائرة إلى اسطنبول ، وعما إذا كان هناك مكان شاغر . بعد برهة ، أخبرني أن الطائرة المتوجهة إلى اسطنبول ستقلع في حوالي الساعة السابعة والربع صباحا ، وأنه لا يوجد أماكن شاغرة على متنها .

زفرت بتوتر وسألته : ما اسمك؟

أجاب :بسيم .

قلت بتأنّ : اسمعني جيدا يا بسيم ، في يدي مائة دولار مكتوب عليها اسمك ، هي لك إن دبرت لي مكانا على تلك الطائرة .

أجاب لاهثا : اتفقنا .

بعد نصف ساعة بالضبط كنت أستقل سيارة أجرة في طريقي إلى كوخي . لملمت أوراقي الثبوتية والشخصية وما استطعت وضعه في حقيبة يد صغيرة ، وعرجت على ياني . طرقت باب كوخه حتى استفاق من النوم فاتحا لي الباب بعينين نصف مغمضتين .

قلت مودعا : آن الأوان يا صديقي . . . إني راحل .

استدار عائدا إلى سريره وهو يقول : بإمكانك الرحيل أينما تريد ، ولكنك حتما عائد .

في الطريق إلى المطار كان قلبي ينزف . احتضنت البحر والرمال ، والطرقات بعينيّ مودعا ، وحفرت وجه ياني في مخيّلتي إلى أن تصدق نبوءته .

في المطار ، توجهت على الفور إلى مكتب الحجوزات ، وسألت عن بسيم . نقدته ثمن التذكرة والمائة دولار ، قبضت على التذكرة ، واتجهت إلى قسم الجوازات . ختم مسؤول الجوازات وثيقة سفري المصرية بختم الخروج من دون ان ينتبه أنني مطلوب للخدمة العسكرية ، وللمرّة الأولى في حياتي أحسست بأن لتلك الوثيقة قيمة ما . في مطار اسطنبول ختم مسؤول الجوازات جواز سفري القبرصي بختم الدخول . وصلت اسطنبول ، وأسرعت إلى منطقة «اكسراي» إلى حيث مطعم قديم اعتدت ارتياده مع أصدقائي في الجامعة ، كلما سنحت لنا الفرصة للتسكّع في أرجاء اسطنبول . تناولت وجبة إفطار شهية ، بل الأشهى منذ ما يقارب الأربع سنوات ، متلذذا بطعم حريتي .

لأسابيع ، ظل هاجس مخيف بأن السلطات القبرصية تطاردني ، ينغص عليّ حريتي . فكرت في طريقة أرحل فيها إلى حيث عائلتي في بريطانيا . ذهبت إلى السفارة للحصول على تأشيرة سفر فأخبروني أن عليّ أن أتقدم بطلب الحصول على التأشيرة من قبرص . خرجت من السفارة لا ألوي على

شيء . فكّرت في العودة إلى قبرص ومواجهة مصيري مهما كان ، فلن يكون أسوأ مما أنا فيه من حيرة وضياع .

على ناصية الشارع اقترب مني رجل ، عرف ما بي من حيرتي وشرودي .

همس في أذني : هل رفضوا منحك التأشيرة؟

لم أجب ، فتابع : لا تحزن . . .

تحاشيته وهممت بمتابعة المسير ، الا أنه سارع إلى القول : سأوصلك إلى حيث تريد من دون الحاجة إلى تأشيرة .

توفقت وواجهته : أنت نصّاب . . .

قاطعني : يمكنك أن تتأكد بنفسك .

سألته وقد استبد بي اليأس : كيف؟

قال : اتبعني .

تبعته إلى مكان قرب ميناء اسطنبول حيث كان هناك شباب آخرون ينتظرون . بعد دقائق وصلت شاحنة كبيرة اختفى أسفلها ثلاثة شبان قبل أن تنطلق ، فعرفت أنها إحدى الشبكات التي ذاع صيتها في تهريب البشر عبر الحدود بواسطة الشاحنات .

سألني الرجل : هل صدّقت؟

أومأت بالإيجاب ، ثم سألت : هل بإمكانك إيصالي إلى بريطانيا؟

أكّد بهزة من رأسه وأضاف : نوصلك إلى مدينة «دوفر» مقابل ثمانية آلاف دولار .

طلب مني الحضور إلى ميناء اسطنبول في صبيحة اليوم التالي . وهناك حشرت مع آخرين في شاحنة بين أقفاص البضائع لإخفائنا عن عيون ضباط التفتيش . بعد ذلك أحسست بالشاحنة تصعد فوق عبّارة ، وبعد أن أبحرت العبارة في البحر ، كان بمقدورنا التحرك على مساحة محدودة من الطابق السفلي فقط خوفا من افتضاح أمرنا . بعد مرور ستة أيام من الإبحار ، رست العبارة في ميناء لم أستطع تمييزه ، إلا أنني خمّنت أنه ميناء إيطالي . حين رست السفينة ، وسمعنا أصوات مفتشي الميناء على متنها ، تقوقعنا حول أنفسنا بين الصناديق حابسين أنفاسنا إلى أن اجتازت الشاحنة إجراءات التفتيش .

بعد أن غادرنا الشاحنة بأمان ، عرفت أن الميناء الذي رست فيه السفينة كان ميناء فرنسيا . وهناك تم تسليمنا إلى سائق «مني باص» أوصلنا إلى باريس ، ومنها استقللت القطار إلى مدينة «كالاس» في أقصى شمال فرنسا على بحر «المانش» . بعد أيام من الانتظار في مخيم خاص بالمهاجرين ، تمكّنت من العبور على متن قارب صغير إلى «دوفر» ، وكنت قد أنفقت كل ما بحوزتي من نقود أثناء الرحلة .

أكملت وجهتي إلى لندن سيرا على الأقدام ، حاملا فراشي داخل حقيبة فوق ظهري ، وحين كان ينهكني التعب كنت أشير للشاحنات المارة ، فيقلّني بعض سائقيها من مكان إلى آخر حتى وصلت إلى منزل والدي في لندن . فتح أبي

الباب دون أن يتبين ملامحي . أدار ظهره حانقا ظانا أنني وائل : أليس معك مفتاح؟ لم لا تفتح الباب؟

دخلت . ألقيت بحقيبتي الصغيرة على الأرض قبل أن ينتبه لوجودي أحد . دلفت إلى حيث أمي في المطبخ ، وطبعت على خدّها قبلة اشتمّت عبرها رائحتي . أدارت ظهرها وواجهتني ، وما إن وقع بصرها عليّ حتى كاد يغمى عليها من شدة الفرح ، بينما تسمّر أبي عند الباب من دون حراك حين استوعب أنني وليد ولست وائلا .

***

التفتُ نحوها . هززتُ رأسي وقلت : هناك مقولة إنجليزية أستحضرها دائما في مثل هذه المواقف .

أشارت بيدها مستفسرة ، فتابعتُ : «بعض الناس ينتظرون حلا سحريا ، وبعضهم يتقبل الواقع كما هو ، ولكن إياك أن تستلقي وتترقب الموت وإلا فقدت براءتك» .

تفكّرت برهة ، ثم عقّبت : يعني ، مغزى تلك المقولة هو أن نتحدى الألم والمرض ولا نستسلم له لأننا أهل للحياة .

أكدتُ لها : تماما .

بينما داخلي يؤكد أمرا مغايرا : أتواسيها أم تواسي نفسك بتلك المقولة؟ تعرف ما تحسّ به ، تتذوق مرارته على لسانك ، ويغصّ به حلقك ، فلا تلق بأوجاعك يائسا إلى السنام الذي فوق ظهرك . ثم منذ متى تصدق تلك المقولات البلهاء؟ إنها «كليشيهات» جاهزة واظبت على البحث عنها وحفظها إلى أن

تحين اللحظة المناسبة لإطلاقها . لا يمكنك أن تفقدها بعدما أمضيت عمرا في البحث عنها . تمسّك بها جيدا ، فهي النجمة القطبية في ليل منفاك الطويل ، تغمز لك بألا ارضاً لك إلا صدرها ، ولا وطناً لك إلا عيناها ، ولا قبراً لك إلا ظلّها .

قفزت من مقعدي وفي نيّتي أن أرسم ابتسامة فوق وجنتيها مقترحا : سنذهب إلى السينما . ما رأيك لو نشاهد فيلم «ماما ميا»؟

قالت بتثاؤب : أليس هذا اسم أغنية لفرقة «آبا»؟

أجبت بحماسة : بالضبط . هو فيلم غنائي يحاول أن يصور ما وراء أغنيات فرقة «آبا» من حكايات . . . وتصوري انه من بطولة الممثلة «ميريل ستريب» .

نفت ذلك قائلة : ميريل ستريب لا تغني . . .

قاطعتها مشجعا : سترين بنفسك .

باستسلام مريب ، خلعت ثيابها واستبدلتها ببلوزة سوداء ذات فتحة واسعة تكشف عن شق نهديها ، لم أرها من قبل وبنطلون «جينز» . صفّفت شعرها ، وضعت قليلا من مساحيق التجميل فوق وجهها ، ورشتين من العطر عند عنقها ورسغها ، ثم حملت حقيبتها ووقفت عند الباب .

اشترينا بطاقتين في عشر دقائق ، واستغرقنا الحصول على كيس كبير من البوشار وزجاجة من الماء عشرين دقيقة من الوقوف في طابور طويل أمام «الكانتين» . أخذنا مقعدينا في صالة العرض وتسلينا بحبات البوشار إلى أن بدأ الفيلم .

أحسّ بها إلى جانبي غارقة في عتمة القاعة ، تضحك وتبكي وفقا لأحداث القصة . مع نهاية الفيلم ، أضيئت القاعة وبدأ الحضور بالمغادرة بينما هي تتمسك بمقعدها تتوسّل كطفل صغير : please, please ، أريد البقاء ومشاهدة الفيلم مرة أخرى؟

سحبتها من مقعدها ودفعتها أمامي باتجاه باب الخروج شامتا : هل صدقت الآن؟

وهي لا تكف عن الثرثرة : رائع . . . رائع فعلا . أتدري؟ تفوّقت «ميريل ستريب» على نفسها في هذا الفيلم . . . لا أصدق أنها ترقص وتغني بهذه الخفة وقد تجاوزت الستين . . .

عدنا إلى البيت ، خلعت ثيابها وتوجهت إلى الحمام . استحمت ، وخرجت وهي ترتدي قميص نوم شفيف لا يكاد يستر ما تحته . اندّست بالقرب مني في السرير . تحرّشت بي . داعبت عنقي وصدري بأناملها ، ثم اعتلتني وغمرت وجهي وعنقي بقبلات سريعة ، احتويتها ملتهما شفتيها . ضاجعتني بشبق لم أعهده فيها من قبل ، وبعد أن انتهت انقلبت على ظهرها باكية .

استويت في السرير ، أشعلتُ سيجارة وأسندت ظهري إلى الوسائد مفكرا . بغتة ، داهمني الخوف وبدت فكرة أن تفقد أحد ثدييها مفزعة للغاية . يا إلهي! ماذا سأفعل حينها؟ وقبل أن تأخذني الأسئلة في اتجاهات شتى قررت تجاهلها مقنعا نفسي بأن كل ما يجري ، ليس أكثر من أمر عارض سيزول بمسحة مرهم ، لن أسمح بانتقال ريبتها إليّ ، فالريبة داء معد .

أردت أن أهمس لها بكلمات مشجعة : أحبك كما أنت ، وكيفما صرت ، ولن يغيّر أي مرض من حبي لك . ولكني خشيت ألا أتمكن من الوفاء بوعدي هذا لاحقا ، فذهبت إلى النوم مؤكدا لنفسي بأن احتمال أن تفقد ثديها فكرة مرفوضة أساسا» .

«أعدي لي الأرض كي أستريح
فإني أحبك حتى التعب
صباحك فاكهة للأغاني
وهذا المساء ذهب . . .»

محمود درويش

(٣)

لليوم الرابع عشر على التوالي ، لا يزال القصف مستمرا .

لم يبق حجر على حجر ، لا مئذنه تكبّر بذكر الله ، لا مدرسة أو مشفى . لم يأمن الطير و لا الشجر ، حتى المقابر قصفت ، وبعث الأموات من قبورهم أشلاء ، كما لم تسلم جثة شهيد ملقاة على قارعة الطريق من رصاصة في الرأس . . .

كنت أظنها نامت ، اكتفت من تفقد الشهداء وحفظ أسماء المنكوبين ، انحنيت لأصلح من شأن الوسادة تحت رأسها فأمسكت بيدي . ضغطت عليها بما تبقى لها من قوة وقالت بصوت لا يخلو من تصميم : عندما أموت ، تبرّع بساقيّ لجميلة ، وبعينيّ للؤي ، وبذراعيّ لشهد ، تبرّع بكل ما يمكنك التبرع به لهؤلاء الأطفال ، لا تبق لهذا السرطان عضوا واحدا من جسدي يقتات عليه . . .

وكأن وصيتها الأولى لم تكن كافية ، حتى تحمّلني وزر توزيع أطرافها على المحتاجين .

داعبتها قائلا : أتظنين بأني سأفتح من جسدك جمعية خيرية؟! ألا يكفي أن الدول العربية قد تحولت إلى جمعيات

إغاثة من أجل غزة؟

أمسكت بيدها وربتّ عليها مطمئنا ، مسحت على رأسها بكفي ، وهدهدتها حتى استكانت .

حين انتظم تنفسها ، سارعت إلى الانفراد بأوراقي ، قرأت الصفحة الأخيرة ، فأحسست بالدم يتدفق إلى رأسي . استعضت عن دلّة القهوة بزجاجة من النبيذ الأحمر ، وقطع من البسكويت الجاف . واصلت الكتابة متقوّتا على لحم المسيح ودمه . . .

«واظبت على الاتصال بها بين فترة وأخرى مستفسرا عن أحوالها ، ظانّا أن الوحدة والغربة ستفتكان بها بعيدا عن مدينتها وأسرتها ، غير أنها كانت تبدد شكوكي وتضاعف من حيرتي عند كل اتصال . تمطرني بسيل من الأخبار عن صداقات جديدة ، أو اكتشافات مثيرة ، أو زيارات لأماكن لم أصلها يوما رغم إقامتي هنا لأربع عشرة سنة .

أغيب عنها لأيام ، أقمع رغبة ملحّة بالاتصال بها عساها تبادر إلى الاتصال بي يوما . يطول انتظاري فأقوم بالاتصال لمرة ثانية وثالثة . . . كيف أجعلها تفتقدني؟

ذات مساء ، أرسلت لها رسالة قصيرة عبر الهاتف المحمول متسائلا : hello delivery girl ,

are you still alive ?

اتصلت وكرّت على مسامعي أعذارها في نفس واحد : آسفة ، أعرف أني مقصّرة ، ولكن كما تعرف الشهر الأول محشو بكثير من المشاغل . هؤلاء الإنجليز لا يتيحون لنا فرصة

لأخذ أنفاسنا ، ينهكوننا بزيارات للتعرّف على مرافق الجامعة ، و في لقاءات لشرح البرنامج الدراسي ، ودورات للتعامل مع أقسام المكتبة ، واستعمال المكتبة الإلكترونية . . .

قاطعتها : كيف أنت؟

ضحكت وقالت بتمهل : بخير . وأنت؟

- ضجر .

- كيف تشعر بالضجر في بلد لا تهدأ مثل هذه؟ لا أكاد أجد وقتا لكل ما أريد فعله!

- لأني موظف ، حياة العمل تختلف عن حياة الجامعة . كدّ وتعب طيلة النهار ، وكل ما أتمناه في الليل هو سرير يضمّني حتى اليوم التالي .

- ومتى تعيش؟

- في عطلة نهاية الأسبوع . ماذا عنك؟

- تعرفت على شباب وشابات في مقتبل العمر ، رعد من الأردن ، وعصام من غزة ، وبنت لطيفة جدا اسمها سمر ، نصفها من غزة والنصف الآخر من بولندا ، وفتاة أمريكية في الغرفة المقابلة لغرفتي تدعى «لورا» . . . كما أنني سجلت في النادي الرياضي في الجامعة .

- وأي الرياضات تمارسين؟

- السباحة ، السكواش ، وأتابع دروسا في «الأيروبيك» .

- كل هذا؟

- ماذا عنك؟

ضحكت مجيبا : أنا أمارس رياضة واحدة فقط في نهاية الأسبوع .

ترددت قليلا قبل أن تسأل : أية رياضة؟

عاكستها مستفزا : رياضة ليلية لا تعرفينها ، ممتعة ومرهقة في الوقت نفسه .

تمتمت بسرعة : آه . . . يكفي ، عرفتها .

سارعتُ إلى تغيير الموضوع حتى لا أشعرها بالحرج : وماذا فعلت أيضا؟

عاودتها حماستها وهي تشرح : في نهاية الأسبوع الماضي ذهبنا في رحلة من تلك التي تنظّمها الجامعة للطلبة الأجانب لتعريفهم على البلد ، إلى مدينة Stratford Upon Avon ، مسقط رأس شكسبير ، مدينة رائعة ، هل زرتها؟

- لا .

- معقول؟! وماذا كنت تفعل طوال هذه السنين؟

- أحاول ان أجد لي مكانا فوق هذه الأرض .

- المهم ، أكثر ما لفتني بها هو بيت «شكسبير» وقد تمّ تحويله إلى متحف صغير . تجولّت في أرجائه وشاهدت الغرفة التي ولد بها ، والمكتب الذي كان يكتب فوقه ، وريشته ودواته ، والسرير الذي كان ينام عليه . هناك أيضا مسرح مخصص لعرض مسرحياته ، ولكن للأسف لم يبدأ الموسم بعد .

ضحكت وأضافت : لو عشت في مثل تلك المدينة ببحيراتها وحدائقها ، وقنواتها الضيقة التي تطفو فوق مائها

المراكب الصغيرة الحمر ، لكتبت أفضل منه .

سايرتها مجاملا : بالتأكيد .

أنهت المكالمة متذرّعة بواجب عليها الانتهاء منه قبل الصباح ، وتركتني لهواجسي : هذه المرأة بدأت تغزو كياني . شغفها المدهش بالحياة يثير الغيرة ، وقدرتها الفائقة على التأقلم والمنافسة تدعو إلى الحسد .

صارت محادثاتنا الهاتفية طقسا من طقوسي المسائية . أعود من عملي متلهفّا ، آخذ حماما سريعا ، ألقي بفخذي دجاجة إلى المقلاة ، بعض البطاطا ، قطع من الخضار وتكون الوجبة قد اكتملت . أحيانا أخرى أشوي قطعة من اللحم ، أو أسلق بعض المكرونة مع صلصة جاهزة . ألتهم طعامي على عجل ، أرفع الأطباق ، أغسلها ثم أستلقي في سريري لأستمع إلى نشرة الأخبار .

أهاتفها وأنتظر صوتها على الطرف الآخر . أستفسر عن أحوالها فتجيبني : مشغولة ، مشغولة جدا . أكاد أقيم في المكتبة ، وإن غادرتها فأحمل نصف كتبها إلى غرفتي ، حتى ما عاد في الغرفة متّسع لي .

سألت : بالمناسبة ، ماذا تدرسين؟

قهقهت مستفسرة : غريب أنني لم أخبرك عن موضوع دراستي حتى الآن!

ضحكت بدوري واجدا لها العذر : لديك أشياء أهم على ما أعتقد .

– أدرس عن العولمة ، وبالتخصيص ، الاستشراق الجديد في عصر العولمة . . .

– ماذا يعني؟

– الموضوع طويل وشائك لا يمكن شرحه على الهاتف . لكنه ببساطة يعني ، صورتنا التي روّج لها المستشرقون الغربيون قديما ويحاول بعض المستشرقين الجدد من العرب تكريسها حاليا ، وهي صورة ليست جميلة على الإطلاق . . . . هل تعرف بم يصفوننا؟

سرحت . لم يكن الموضوع يعنيني من قريب أو بعيد ، فقد انقطعت صلتي بالعالم الذي تتحدث عنه منذ زمن طويل حتى كدت أنسى أنني أحمل بذورا شرقية . ما الذي يهمني من الصورة التي قدمها رحّالة غربيون عن صحرائنا ، وطبائعنا ، وتراثنا؟ إنها أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة يعاد تدوينها من جديد عبر العصور . ما يهمني هو صورتي عن نفسي ، أقدم نموذجا إنسانيا متوافقا مع متطلبات العصر ، ولا أعبأ بما قد ينعتني به المستشرقون قدماء كانوا أم جدداً ، عربا أم غربا . . .

أتاني صوتها مستفسرا : ألو . . . أما زلت معي؟

أجبت بسرعة : لا ، سرحت . . .

ضحكت قائلة : أعرف أن الموضوع ممل ، ولكن ليس إلى هذا الحد . . .

قاطعتها : ما أخبار عمّان؟

تنهدت بحرقة وقالت : أخبار عمان لا تسر أبدا ، كلما

تصفحت الصحف الأردنية على الانترنت ، طالعتني شكاوى الغلاء وارتفاع الأسعار . كل السلع تضاعف سعرها ، المواد الغذائية والمحروقات . الناس في حالة تذمر دائم خاصة ونحن على أبواب فصل الشتاء .

قاطعتها ثانية : أقصد أخبار الأهل والأصدقاء .

تداركت : أه . . لا جديد في ميدان المعركة!

تساءلتُ : أية معركة؟

زفرت قائلة : لن أخفي عليك ، هناك معركة دائرة ما بين أمي وأبي منذ تزوج أبي من امرأة أخرى ، وازداد أوارها بعدما أنجبت زوجته طفلا في السنة التالية من زواجهما .

تساءلتُ : وما يضيرك أنت من ذلك؟

أجابت مبررة : ما يضيرني هو أنني لم أستطع منع نفسي من حبّ الطفل والعطف عليه كما ترغب أمي . وكنت أقتنص الفرص لزيارته خفية عنها ، إلى أن افتضح أمري فواجهتني بجريمتي . شاكستها مبرّرة : لو رأيت وجهه البشوش وخفة ظله لأحببته أنت أيضا . . . إنه طفل ، لاذنب له في كل ما يجري ، فجن جنونها واتهمتني بالعقوق ، وخيانة جنسي ، وكل تلك المسمّيات القبيحة ، ثم قاطعتني لشهر كامل . أما أبي فقد شعر أنه حسم المعركة لصالحة ، فقرر أن يجعلني وصيّة على الطفل بعد مماته . وهكذا نجح أبي في ربط الطفل بي ما تبقى لي من حياة . وجعل إقامتي مع أمي أمرا في عداد المستحيل .

- وماذا أنت فاعلة؟

أجابت بسرعة منهية المكالمة : لو كنت أعرف لما أتيت إلى هنا ، عليّ الذهاب الآن . . . سأكلمك لاحقا . ولم تعاود الاتصال .

فجأة ، أحسست بأنني علقت في شباك محكمة ، شباك لم أعرفها من قبل ولا أحسن الإفلات منها . لطالما كنت روحا حرة ، سائبة ، لا تتوقف عند امرأة واحدة ، وهأنذا أصبح أسير الهاتف ، متلهفا على الدوام لسماع صوتها ومعرفة أخبارها . صرت مريضا بها ، تصيبني أعراض من التوتر ، والقلق ، وضيق الخلق إن هي غابت عني طويلا ، وما إن أتجرّع صوتها في أذني ، أو أسمع ضحكتها حتى أشفى وتختفي أعراض مرضي . يا إلهي ، هل هي ما أريد حقا أم أنني ما عدت أعرفني؟ لا بد أن أوقف هذه اللّعنة الآن ، وإلا انجررت وراء أمر خطير ، أمر قد لا أستطيع التراجع عنه لاحقا .

بعد أيام ، أرسلت لها رسالة قصيرة عبر الهاتف : لست أدري ما الذي أفعله بنفسي . كنت طليقا كطائر وها أنذا أنتف ريشي بيدي . انسني واشطبي رقم هاتفي . أتمنى لك السعادة .

عدت إلى حياتي المعتادة ، أعمل طيلة النهار وأعود منهكا إلى البيت لآخذ حمامي ، وأعد طعامي ، أستلقي أمام التلفزيون أستمع إلى آخر الأخبار ، وأشاهد فيلما قبل أن أذهب في سبات عميق . في نهاية الأسبوع ذهبت كعادتي إلى ناد ليلي ، تناولت وجبة سريعة ثم انتقلت إلى الحانة باحثا عن صيد ثمين . الحانة مليئة بنساء على قيد الاقتناص . يرتدين

ملامح الفريسة ، غير أنهن فرائس تتواطأ مع صيادها وتسعى إلى شباكه برضا تام . كل ما يلزمني هو أن أرمي بشباكي أمام التي تدعوني لاصطيادها ، لتخطو إلى داخل شباكي بقدميها . نتبادل حديثا عابرا ، نحتسي كأسين أو ثلاثاً ، نتمايل بأجسادنا راقصين مع الموسيقى لبعض الوقت ، ثم أنتهي بها في فراشي لقضاء ليلة ماجنة . في الصباح أكون قد نسيت اسمها ، فأسالها : ماذا كان اسمك؟ متأكدا من أنها الطريقة المثلى التي تجعلها تشتعل غضبا وتختفي من أمامي بلمح البصر .

عيناي تتربصان بالفتيات بانتظار إشارة تدعوني إلى الاقتراب ، بينما ذهني مشغول بسؤال لا يفارقني : لماذا لم تجبني؟ حتى إنها لم ترسل رسالة عتاب أو حتى شتيمة . كيف تهملني بهذه الطريقة؟ خرجت من الحانة وحيدا على غير عادتي عائدا إلى البيت .

في اليوم التالي لم أستطع الاحتمال . اشتريت في طريق عودتي إلى البيت وجبة جاهزة من بائع عربة الشاورما التركي التي على الناصية . أخذت حمامي على عجل ، التهمت الشاورما ، حملت الهاتف الصغير في كفّي وتأملته . وضعته جانبا وانتظرت أن يرن . خذلني . لابد أنها تتابع عرضا ما ، أو تحضر مناقشة ما ، أو تقرأ في كتاب ما . . . . سأرى .

حملت الهاتف وطلبت الرقم . توقعت ألاّ تجيب على مكالمتي ، أن تتركني أرن كنوع من العقاب . ولدهشتي ، ردت

بعد الرّنة الثانية .

همست بصوت رقيق : أنا مذنب ، وأستاهل الضرب!

وكأن ما قلت فاجأها . ضحكت وأجابت : صح .

- اشتقت إليك .

- وأنا أيضا .

- ولم لم تتصلي بي؟

- أنت طلبت مني أن أشطب رقم هاتفك .

- وهل شطبته؟ .

- بالطبع . قل لي الآن ، ما حكايتك معي؟

- لست أدري بالضبط . . . أتصور أنني أرتكب خطأ صميميا دون إرادة مني .

سألت بدهشة : وكيف يكون الخطأ الصميمي؟!

أجبت : الخطأ المدروس ، الذي يقترف بكامل الوعي والإرادة .

استزادت : وما الفرق بينه وبين الخطأ غير الصميمي؟

أوضحتُ : الخطأ غير الصميمي هو الخطأ الذي يقع سهوا . هو الخطأ التافه ، الضئيل . . .

قالت مقاطعة : لكن الخطأ المقصود ليس بخطأ ، لأن الإنسان يعتقد وهو يرتكبه أنه يفعل الصواب .

أجبت : بالعكس . الخطأ الصميمي هو الخطأ البهيّ ، العظيم ، الذي يشعر من يرتكبه بالنشوة رغم علمه الصريح بأن ما يقوم به هو الخطأ بأمّ عينه!

- لم أفهم!
- ليس مهما .
صمتّ قليلا مترددا قبل أن أطلب : أريد ان أراك في عطلة نهاية الأسبوع .
- حسنا ، نلتقي في مكان ما ، ثم نقرّر ما نفعل .
- اتفقنا . باي .
- باي .
التقينا في محطة South Kensington ، ثم قطعنا الطريق إلى مطعم يوناني ، اعتدت ارتياده كلما طغى بي الحنين إلى «ياني» ، مشيا على الأقدام . قطعنا شارعين قبل أن نصل إلى مطعم أنيق في زاوية أحد المباني ، تزدان جدارنه بلوحات من اللونين الأبيض والأسود . يتّخذ من مادتي الخيش والزجاج الملون خلفية لديكوراته الأنيقة . انتصبت فوق الطاولات شمعدانات غريبة ، ما هي إلا زجاجات النبيذ الفارغة ، ملفوفة بالكامل بخيوط من الخيش الملونة بألوان تتناسب مع روح المكان ومفروشاته ، ومغروس في فم كل زجاجة شمعة طويلة تسيل دموعها على جسد الزجاجة ، فيكتسي الخيش بخيوط إضافية من الشمع الملون . صعدنا إلى الطابق الثاني وجلسنا إلى طاولة بالقرب من النافذة العريضة ، قطرات من المطر تلتصق بزجاج النافذة وتسيل في خطوط ملتوية حاجبة الرؤية .
أثنت على أناقة المكان وفكرة ديكوراته المبتكرة ، تفحّصت قائمة الطعام إلى أن حضرت النادلة وابتسامة عريضة تعلو

شفتيها لتسألنا عما نريد . اختارت أن تجرب «الموساكا» على الطريقة اليونانية ، مع كوب من العصير . أما أنا فطلبت دجاجا مشويا مع الخضار .

سجّلت النادلة الطلبات وانسحبت . تبعتها بنظراتها معلّقة : ما بال تلك الابتسامات الفورية التي يرسمها الجميع بتلقائية ما إن تلتقي نظراتهم بنظرات أيّ كان ، حتى في الشارع؟! كيف يستطيعون افتعال الابتسامة بهذه السرعة؟

قلت : ليس افتعالا ، إنها ثقافة الابتسامة التي يمتاز بها الناس هنا .

هزّت رأسها بأسى في مقارنة عقدتها في الخفاء بين ثقافة الابتسامة وثقافة التجهّم التي تنتمي إليها ، ثم أطلقت ضحكة مكتومة ، وعلّقت : تخيّل لو أنني ابتسمت هناك كلما التقت نظراتي بنظرات المارّة! ماذا سيقولون عني؟ بالتأكيد سيطاردونني ظانين أن وراء ابتسامتي دعوة غير بريئة .

تأملت ابتسامتها الجميلة بنظرات طويلة وصامتة . فأخفضت بصرها خجلا ، ثم قالت معترضة : تخيفني عيناك ، مليئة بالأسرار ، غامضة ولا يمكنني تفسير نظراتها .

لم تكن هي المرأة الوحيدة التي حيّرتها نظرات عيني ، والغموض الذي يشوبهما . أعرف أن لعيني سحراً يستعصي على الفهم ، وقوة جاذبة تشبه الرنين المغناطيسي الذي تعلق بنغماته الفتيات من دون وعي أو إرادة .

نفخت الهواء أمام صمتي وتابعت : الرجال عادة ما

تفضحهم نظرات عيونهم ، في كل نظرة إشارة تعبّر عمّا يدور في دواخلهم .

استفسرت باندهاش : وكيف تقرأين نظراتي؟

نفخت الهواء ثانية ، هزّت كتفيها ، وأجابت : في العادة هناك نوعان من الرجال : الصياد ، والعاشق ، أما أنت فعيناك بيضاوان ، لا تبوحان بشيء . . . سأفتح لك خانة ثالثة إلى أن أستقر على تصنيف ما .

جاءت النادلة بالطعام . انتزعت لقمة من طبق «الموساكا» الحارة برأس الشوكه ، نفخت فيها لتخفف من حرارتها قبل أن تتذوّقها . مضغتها وعلّقت : همم ، لذيذة ، أفضل من المسقعة المصرية بكثير!

قلت وشعور بالانتصار يغمرني : سأطهوها لك يوما ما .

نظرت إليّ وابتسمت ، وأظنها لم تأخذ عرضي على محمل الجد . ارتشفت رشفة من كأس العصير وقالت : غريب أمرك! ألم تحب امرأة يوما؟ لم لا زلت أعزب وأنت في الثالثة والأربعين؟

توقعت سؤالها ، فقلت على الفور : بلا ، أحببت «تولين» .

تساءلت : ومن تكون تولين؟

شرحتُ : فتاة تركية كانت زميلتي في الجامعة ، حتى إنني كدت أتزوجها بعد التخرج . فتاة رقيقة ، بشرتها بيضاء منمّشة ، وشعرها حقل من السنابل الشقراء الملتوية ، كم اشتهيت لو أغفو بين طياته إلى الأبد ، ورضابها كأنه أول رشفة

ماء بعد عبور صحراء قاحلة . . .

قاطعتني هاتفة : واو . . . هذا شعر!

ضحكت متابعا : لن تصدقي إذا أخبرتك بأن أم عماد ولميس كانتا قد اشترتا «الشبكة» وحضرتا إلى تركيا لطلب يدها من أهلها قبل أن تقع الحرب ، ولكني غيّرت رأيي في اللحظة الأخيرة ونفذت بجلدي .

– كيف نفذت بجلدك وأنت تقول بأنك كنت تحبها؟

– أحببتها نعم ، ولكني اكتشفت أنني لم أكن مستعدا للتضحية بحريتي والارتباط النهائي وأنا ما زلت في بداية العشرينات . أعرف ، ستقولين إنني نذل وجبان ، ولكن هكذا أنا ، روح حرة لا تطيق القيود .

بعد أن أتت على طبق «الموساكا» أو المسقعة كما نسمّيها ، اقترحت عليها أن تتذوق «البقلافا» اليونانية مع القهوة . أشرت إلى النادلة فحضرت مسرعة تحمل دفتر الطلبات الصغير والقلم . طلبنا قطعتين من البقلاوة وفنجانين من القهوة اليونانية .

تساءلت باستغراب صريح : غير معقول! من أين لك كل هذه الخبرة بالمطبخ اليوناني؟

– من ياني!

– من هو ياني؟

– أعظم وأطيب عجوز في هذا العالم! وسردت لها قصتي مع ياني .

أحضرت النادلة الطلبات ، ووضعت فنجاني القهوة أمامنا والابتسامة لا تفارق شفتيها الكرزيتين . نظرت إلى فنجاني القهوة الصغيرين وعلّقت : هذه قهوة تركية!

جفلت النادلة ، بحلقت بها بعداء وصحّحت : لا . هذه قهوة يونانية وليست تركية .

أجابتها : آسفة ، اختلط عليّ الأمر .

وما إن أدارت النادلة ظهرها ، حتى غرقنا في موجة من الضحك . قلت : كدت تدخليننا في نزاع سياسي بسبب القهوة .

قالت : لم أكن أعلم بأنها على هذا القدر من الحساسية . ولكنها بالتأكيد قهوة تركية وأنت سيد العارفين .

أجبت : طبعا أعرف ، وأعرف أيضا العداء التاريخي ما بين تركيا واليونان ، ولكني أفضّل عدم إثارة نوازع البغضاء مع النادلة ، خاصة وأنها جميلة للغاية .

لم تظهر عليها أي علامة من علامات الغيرة ، ظلّ وجهها محتفظا بجديّته التقليدية ، وجسدها مسترخيا في المقعد المقابل ، حتى إنها أيدتني معلنة : معك حق . المهم أن نستمتع بقهوتنا حتى وإن كانت صينية .

تسكعنا قليلا في ميدان «Kingsington» تحت الأمطار الغزيرة التي ، وبالرغم من مظلّتها الكبيرة ، بلّلت ثيابنا ودفعتنا إلى الاحتماء بأقرب محطة أنفاق اعترضت سبيلنا . عرضت عليها الجلوس في مقهى المحطة لبعض الوقت في محاولة لإطالة

فترة مكوثها معي قبل أن يقلنا قطاران متعاكسان .

جلسنا متقابلين حول طاولة دائرية صغيرة ، فبادرتني بالسؤال : قل لي ، كيف عثرت على مهنتك؟

قلت مازحا : بل هي التي عثرت عليّ .

- كيف؟

- بالصدفة المحضة .

- أي نوع من الصدفة؟

- بائع عربة الشاورما التركي التي على ناصية الشارع .

نفخت الهواء من غير صبر وقالت بحنق : أخبرني بالتفصيل وليس بالقطّارة .

أخيرا نجحت فيما كنت أسعى إليه ، مشاغلتها بالتفاصيل عن النظر إلى ساعتها التي تتفقد بها الوقت كل خمس دقائق . أسندت ظهري إلى كتف المقعد مسترخيا وسردت : بعد أن التأم شملي مع عائلتي هنا من جديد ، ظننت أن أوجاعي قد انتهت إلى غير رجعة ، إلا أن حظي العاثر أبى ان يفارقني .

استفسرت بإشارة من يدها ، فتابعت : حتى الجنسية التي حصل عليها سائر أفراد أسرتي بكل بساطة استغرقتني خمس سنوات .

ضحكت متسائلة : لماذا؟ هل اقترفت جرما؟

قلت : يا ليت . في العادة بعد سنتين من الانتظار تكون الموافقة قاب قوسين أو أدنى . أما أنا فلم أتسلّم ردا حتى بعد انقضاء السنتين ، وحين ذهبت للاستفسار عما استجد على

طلبي أخبروني بأنه مفقود والبحث جار عنه . استغرق العثور عليه حوالي السنتين ، دخلت أثناءها في دوامة الانتظار السمج من جديد . عدت أحمل ذاك الرأس الفارغ وأجلس لأفعل اللاشيء

لفّت ساعديها حول بعضهما واتكأت بهما فوق الطاولة ، ثم أمالت بجسدها إلى الأمام مصغية بانتباه شديد .

تابعت حديثي : لم أحتمل فكرة أخذ مصروفي من والدي ، كما لم أحتمل فكرة إقامتي مع أسرتي أيضا بعد تلك السنوات الطويلة من الحرية والاستقلال ، فذهبت أبحث عن عمل . وكلما وجدت عملا لائقا طالبوني بالرقم الوطني الذي ما كنت قد حصلت عليه بعد .

تنقلت في أعمال سوداء حقيرة دون مستوى الأرض ، عملت في مسلخ للحوم ، فكان يقتلني البرد في الخارج ويجمدني برد الثلاجات العملاقة في الداخل ، ففررت . عملت مفتشا للأمن في أحد المجمّعات التجارية الكبيرة ، فانقلب ليلي نهارا ونهاري ليلا ، فاستقلت . أنهيت دورة لمدة ثلاثة أشهر في تصميم المطابخ ، والتحقت بالعمل لدى شركة لصناعة المطابخ ، فأصرّ المدير على أن يجعلني موزّعا بالعمولة لا مصمّما براتب ، فهربت .

وما إن تم العثور على الملف الخاص بي حتى كانت الحكومة قد أصدرت قانونا جديدا يلزم طالبي الجنسية بتجاوز امتحان كتابي قبل أداء يمين الولاء للملكة . بعد حوالي سبعة

شهور اجتزت الامتحان ، وتم استدعائي لحضور مراسم أداء يمين الولاء للملكة . أقسمت اليمين ، وحصلت على الجنسية البريطانية . أصبح لي وطن جديد ، وصار بمقدوري الحصول على وظيفة محترمة فوق سطح الأرض .

ابتسمت بدهشة وقالت : وما دور بائع الشاورما التركي في كل ما قلت؟!

أشرت لها بأن تنتظر ، أخذت نفسا وتابعت : قبل عشر سنوات ، عبر مصطفى الحدود التركية إلى ألمانيا ، مختبئا في أحشاء صندوق ضيق أسفل شاحنة بضائع ، بمساعدة شبكة من تلك التي تعمل على تهريب مئات من البشر الفارّين من ويلات الحروب والفقر هناك بحثا عن الأمن والاستقرار هنا . ومن ألمانيا ، قطع الحدود إلى فرنسا حتى وصل إلى هنا ، لأن غالبية المهاجرين يحبّذون هذا البلد بسبب ما يوفّره من تسهيلات لهؤلاء المهاجرين بعكس سائر الدول الأوروبية .

عندما علم بأنني أتقن اللغة التركية ، طلب مني مرافقته إلى مكتب الهجرة كونهم استدعوه للتثبت من شرعيّة إقامته . رافقته إلى مكتب الهجرة ، وترجمت له بأنه ينبغي عليه التقدم بطلب لجوء بوساطة محام في حال أن رغب في البقاء هنا . تابعت جميع لقاءاته مع المحامي إلى أن تمّت الموافقة على طلبه ومنح حق اللجوء والإقامة . كانت الإجراءات الخاصة بطالبي اللجوء قبل الحرب الأخيرة على العراق سهلة ويسيرة ، ولكن بعد تدفّق الآلاف من المهاجرين العراقيين إلى البلد بعد حرب

٢٠٠٣ ، وانهيـال طلبـات اللجـوء كـالمطر ، لـم يعـد باسـتطاعـة الحكومـة استيعـاب هذا الكم الهائل من الطلبات ، خـاصة أن القانون ينص على توفير مسكن ، ورعاية صحيّة ، وتخصيص إعـانة أسبـوعيـة لطالبي اللجوء إلى أن يبت في طلباتهم سـواء بالرفض أو القبول . . . .

تساءلت بنفاد صبر : المهم؟

تابعت : المهم ، عندما لاحظت الموظفة التي كانت تجري المقابلات مع مصطفى تمكّني من مهارات الترجمة ، سألتني إن كنت أرغب بالقيام بمهام الترجمة للمكتب على نحو مستمر ، بشرط أن أتعهد بإكمال دورة متخصصة في الترجمة لمدة سنة على نفقة الحكومة . رحبت بالفكرة وأبديت استعدادا لأخذ الدورة على أن أتفـرغ للعـمل بعـد إنهـائي الدورة لدى مكتب الهجرة .

علّقت مستنكرة : ولماذا برأيك تقدم الحكومة هذا الكم من التسهيلات للمهاجرين؟

أوضحتُ : لأن الحكومة هنا تتبنى سياسات منفتحة تجاه المهاجرين وتؤمن بالتعددية العرقية ، حتى إن المشاكل العرقية هنا تقل كثيرا عن غيرها من الدول الأوروبية . . .

قـاطعـتني وقـد بدت عليـها عـلامات الاستيـاء : هذا هو الظاهر فقط . . . أنا أعتقد أن هذه الدولة تكفّر عن ذنوبها تجاه الأمم التي استعمرتها ونهبت خيراتها يوم أن كانت أراضيها لا تغيب عنها الشمس . . .

قاطعتها : ولكن الموضوع هنا إنساني أكثر منه سياسي!

قالت : كل ما يدور حولنا سياسي ، حتى الإنساني منه . إن تتبعت تاريخ هذا البلد ستجد أن كل النزاعات الإقليمية ، العرقية والطائفية منها ، هي من مخلّفات الاستعمار البريطاني ، لم يترك هذا الاستعمار أياً من «الكولونيات» التابعة له من دون أن يخلّف وراءه نزاعا ما ، وأكبر مثال على ذلك فلسطين . . .

قلت بحدة : ولكن كثيراً من الدول التي لها تاريخ استعماري لا تتبنى مثل هذه التسهيلات تجاه المهاجرين ، وخذي مثالا على ذلك فرنسا وإيطاليا .

نظرتُ إليها بتحد وأضفت : لولا هذا البلد لظللنا معلقين على حدود دولة ما ، كما يحدث الآن لفلسطينيي العراق على مثلث الحدود العراقي الأردني السوري .

هزّت رأسها أسفا وقالت : ولولا هذا البلد لما هاجر الفلسطينيون من أرضهم ابتداء . هذه هي المشكلة ، يريدوننا أن نغفر لهم . . . ويبدو أنهم ينجحون!

نظرت إلى ساعتها منهية الحوار ، ودّعتني وتوجّهت إلى حيث استقلّت القطار ومضت .

قطعت الطريق الفاصل ما بين المحطة والبيت ، غارقا تحت وابل من الأمطار الغزيرة التي صبّتها سماء سوداء فوق رأسي ، وتحت وابل آخر من الأفكار السوداء التي دلقتها هي داخل رأسي . ساءلت على إثرها نفسي : ما الذي تريده بالضبط؟ أن

نرفض الإقامة هنا إلى أن تقوم بريطانيا بتصحيح خطئها التاريخي وتعيدنا إلى فلسطين؟! أي منطق هذا؟

لو كتب عليها أن تصطفّ يوما واحدا فقط في طابور حاملي الوثائق ، لما كانت هنا أصلا . لو واجهت الذل والمهانة التي واجهناها كلما أردنا عبور حدود دولة ما ، عربية كانت أو أجنبية ، لفكّرت مرتين قبل أن تقصفني بحماقاتها تلك . لو أنها جّربت أن تقف مثل جرذ حقير ، أو كلب أجرب على باب السفارات ، بما فيها سفارات تلك الدول التي أصدرت لنا مثل تلك الوثائق ، لما تعالت عليّ بمثالياتها الزائفة . لو أنها شاهدت كيف يصفعون وجوهنا بذلك الختم الأحمر القبيح (مرفوض) وكأننا وباء أو طاعون ، كلما رغبنا بالحصول على تأشيرة ، لكانت وجدت لي عذرا ولو من قبيل المجاملة . لو أنها . . .

فجأة ، رن الهاتف النقال معلنا عن وصول رسالة : آسفة ، لم أقصد الإساءة ، يبدو أنني حمّلت الموضوع أكثر مما يحتمل .

لم أجبها انتقاما لنفسي ، ولم أكلّمها حتى اتصلت بي واعتذرت .

عشية عيد الميلاد ، كلّمتها مستفسرا : ماذا تفعلين؟

أجابت بتلكؤ : المعتاد ، أقرأ .

- ولكننا في عطلة أعياد الميلاد!

- عطلة لكم ، أما نحن الطلبة فعلينا واجبات . ينبغي عليّ تسليم ثلاثة أبحاث في ثلاثة مساقات بعد انتهاء العطلة .

- ومنذ متى تستعصي عليك الكتابة؟

- ليست الكتابة ، عليّ قراءة أطنان من الكتب قبل التمكن من كتابة صفحة واحدة . . .

- يعني ، لن تخرجي إلى أي مكان؟

- لا أظن .

أنهيت المكالمة سريعا : حسنا . باي .

بعد ساعة واحدة كنت أطرق بابها . فتحت الباب وهي تتوقع أن يكون الطارق إحدى زميلاتها في السكن ، وما إن وقع نظرها عليّ حتى عانقتني كطفلة وجدت أباها بعد طول غياب ، ودفنت رأسها في صدري مخفية وجهها عني .

وحين طال مكوثها هناك ، تساءلت : ما الأمر؟ لم تخفين وجهك عني؟

أجابت بوجل : فاجأتني ، شعري غير مسرّح ، ووجهي أصفر ، وعيناي جاحظتان . . . ما كنت أحب أن تلتقيني على مثل هذه الهيئة .

أسرعت إلى الحمّام لتصلح من شأنها ، فوقفتُ أستعرض محتويات الغرفة القليلة ؛ سرير ، مكتب يعلوه أرفف خشبية ، خزانة ملابس صغيرة . على الحائط فوق السرير ملصق كبير لذئب يعوي تحت ضوء القمر ، إلى جانبه ملصق آخر لثلاث قطط صغيرات يتثاءبن داخل سلّة صغيرة من القش . إلى جوار الكتب المبعثرة فوق المكتب لوحة صغيرة لامرأة عارية تمتطي حصانا ، تستر نهديها بخصل من شعرها الطويل ، وتحني رأسها إلى الأمام بانكسار ذليل . تفحّصت اسم اللوحة فكانت

«الراكبة العارية» .

جلست على مقعد صغير أمام جهاز الكمبيوتر . عبثت بأزرار الكمبيوتر قليلا ثم سألت : هل لديك موسيقى؟ أتاني صوتها مجيبا : هناك محفظة مليئة بالأقراص على الرفّ ، انتق ما شئت منها . وضعتُ قرصا لجورج وسّوف فأتاني صوته : «حبيت أرمي الشبك . . . على قلب ما بينشبك . . .»

ضحكت في سرّي معترفا : يا إلهي ، كم تشبه كلمات هذه الأغنية قصتي معها!

ما إن أطلّت بإشراقتها التي أعرفها ، حتى واجهتها بالسؤال : من تكون المرأة التي في هذه اللوحة؟

حملت اللوحة بين يديها ، وسألتني : أليست رائعة؟!

أيدتها : هي كذلك!

تابعت : إنها Lady Godiva

-ولم تركب الحصان عارية؟

– بسبب زوجها ، كان «ليوفريك» زوج الليدي «غوديفا» ، لوردا مستبدّا يحكم مدينة «كوفنتري» ، وكان قد فرض ضريبة قاسية على المواطنين الذين اشتكوه إلى سيدتهم . وعندما طلبت «جوديفا» من زوجها إلغاء تلك الضريبة ، أجابها بأنه سيلبي طلبها إن هي ركبت الحصان عارية وجابت به أنحاء المدينة في يوم انعقاد السوق الشعبي موقنا أنها سترفض . إلا أن الزوجة المحبة لشعبها ، ركبت الحصان عارية الا من شعرها الطويل ، الذي كان من فرط طوله يغطي نصف جسدها بحيث

لم يظهر منها الا ساعداها وساقاها ، وطافت في المدينة من دون أن يراها أحد . . .

قاطعتها مندهشا : كيف ، وقد كان يوما من أيام انعقاد السوق الشعبي؟

تابعت : كان خبر الشّرط قد شاع في المدينة ، فما كان من الناس إلا أن لزموا بيوتهم وأحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ حفاظا على كرامة سيدتهم . وبذلك ، لم يرها أحد عارية . . . وهذا على ذمة الحكاية .

– وهل امتثل اللورد؟

– طبعا . ألغى اللورد الضريبة الكريهة ، وخلّد الناس تضحية سيدتهم بلوحة رائعة .

قلت مستفزا : ومن أين لك هذه الحكاية؟

نظرت إليّ نظرة استنكار قبل أن تقلب اللوحة وتقدمها إليّ قائلة : إقرأ ما هو مكتوب على ظهر اللوحة وتأكد بنفسك .

تفاديت طلبها بطرح سؤال آخر : وما حكاية هذين الملصقين على الحائط؟ هل أنت متناقضة إلى هذا الحد؟

هزت رأسها نافية وأوضحت : ليس تناقضا ، إنها فقط إشارة إلى أن باستطاعتي ان أكون ذئبا مفترسا ، كما باستطاعتي أن أكون قطة مسالمة .

– وعلى ماذا يعتمد ذلك؟

ضحكت مجيبة : على سلامة نوايا الآخرين .

جلست على السرير ، وسألتني : ما الذي أتى بك؟

بالتأكيد ليس التحقيق في محتويات غرفتي!

استدرت بالكرسي نحوها وقلت : الضجر . روح الأعياد ترفرف على المدينة ، الأشجار المضاءة ، ومظاهر الزينة على نوافذ البيوت و في الشوارع وأماكن التسوّق ، كل المدينة مضاءة ، وأنا وحدي المعتم . الناس مجتمعون لتناول وجبات الطعام وقضاء أوقات لطيفة ، وأنا أكاد أجن من وحدتي .

– لم لا تذهب إلى بيت والديك؟

– والديّ لا يحتفلان بعيد الميلاد .

– اليس لديك أصدقاء؟

– يحتفلون مع عائلاتهم . صراحة ، لم أفكر بسواك لمثل هذه الليلة ، فكلانا غريب .

انتقلتُ إلى جوارها على السرير وسألت : أخبريني . هل لديك صور لعمّان؟

تلفتت حولها باحثة وهي تجيب : لديّ ألبوم من الصور لعمان!

توجهت إلى المكتبة وانتشلت ألبوما للصور من بين الكتب الكثيرة . شرحت لي وهي تقلّب الصفحات : هذه صورة لسماء عمان المرصّعة بالنجوم ، وهذه الصورة لشمس عمان وهي تغرب خلف أحد التلال ، وهذه الصورة لشجرة التين العملاقة في حديقة بيتنا ، أما هذه ، فصورة شجرة الياسمين ، ولو استطعت تصوير الرائحة التي كانت تنشرها على شرفة بيتنا لما ترددت . وهذه الصورة لتساقط الثلوج فوق جبال عمّان . . .

سألتها مقاطعا : وهل هذا كل ما في عمّان؟

- هذا هو ما يستحق التصوير . . . ماذا أصور؟ العمارات والجسور والشوارع؟ أكثر ما أحب في عمّان هو سماؤها . سماء ساحرة تزينها تشكيلات من الغيوم الجميلة نهارا ، ومئات النجوم المتلألئة ليلا . لم أر مثلها في أي مكان .

شردت أفكر : كيف لها أن تهجر مدينة تكنّ لها كل هذا الحب؟ ورغم اعترافها السابق بأن علاقتها بتلك المدينة علاقة ملتبسة ويصعب تفسيرها ، إلا أن كلامها يؤكد أن كل طلعة شمس ، كل حبة مطر ، كل زقزقة عصفور ، وكل شجرة ياسمين محفورة بعمق في ذاكرتها! كم أودّ لو أضمّها الآن إلى صدري ، أن أمسح بقلبي غبار غربتها ، أن أعترف لها بأنها مينائي الذي عثرت عليه بعد سنوات طويلة من الإبحار ، تبعت فيها شراعي حتى ضاعت مني يابستي . . .

كم أود أن أخبرها بأن مدينتها دون غيرها من المدن ظلّت عصيّة على بوصلتي ، لأنها لا بحر لها ولا شاطئ ، مدينة سكنتها ، وهي سكنتني حتى كدت أحترق بالنيران التي تلهتب في صدرها . . . .

وددت لو أعترف لها بأشياء كثيرة ، لكن الكلمات تحجّرت في حلقي وعجزت عن نطقها .

راحت أصابعي تقلّب في صفحات الألبوم على غير هدى ، وبعد أن عجزت عن العثور على ضالتي ، سألتها : هل لديك صور لأفراد أسرتك؟

قلبت الألبوم على وجهه وفتحته من نهايته ، استعرضت صوره الأخيرة شارحة : هذه صورة لأمي ، وهذه صورة لأبي ، لم أستطع العثور على صورة تجمعهما معا . منذ زمن طويل لم يعد هناك ما يجمعهما ، انفصلا في كل شيء ، صار لكل منهما غرفة نوم مستقلة ، وسيارة مستقلة ، ومواعيد وجبات مستقلة . ثم أضافت ضاحكة : وهذه صورة أخي ابن الضرّة!

قلبت الصفحة وتابعت : هذه صورة لأخي البكر مع زوجته وأطفاله الثلاثة ، وهذه صورة أختي الصغرى . . .

تمتمت مستفزّا : لديك أخت بهذا الجمال وتخفينها عني؟

قالت باصرار : ما زالت عزباء . . .هل أخطبها لك؟

ضحكتُ وهززت رأسي بالنفي .

أضافت : أما هذه ، فأختي الوسطى التي تطلق على نفسها لقب أم البنات . تقيم في دبي مع زوجها وطفلتيها ، لديها بنتان آيتان في الجمال والذكاء . هي أم بالفطرة ، تؤدّي دور الأم حتى معنا ، ما إن تأتي في زيارة إلى عمان ، حتى تدور الأسرة كلها في فلكها ، كم وددّت لو كانت هي أمي .

سألتها : ألا تشعرين بالغربة؟

هزأت بي ضاحكة : أيّة غربة؟! في هذا الزمن الذي جعل العالم قرية صغيرة لا يمكن أن أحس بالغربة لأني دائمة التواصل مع من أريد ، إما بالهاتف أو عبر الانترنت . أتابع الأخبار وأقرأ الصحف كل صباح عبر هذا الجهاز الصغير ، كما لا أفتقد أي صنف من الطعام ، فالمطاعم العربية تملأ لندن ،

حتى إنني أجد الحمص فوق أرفف ثلاجات العرض في المتاجر الكبرى ، وأكياس الملوخية لدى المحال الباكستانية . . . أين هي الغربة؟

هززت رأسي موافقا وقلت : صحيح الغربة بمعناها المعهود اختفت ، يوم كانت الرسائل تستغرق أسابيع في البريد ، والجرائد العربية نادرة ، وإن وجدت فتكون نسخا قديمة ، والمحطات الفضائية لم تكتشف بعد . . . ولكني أعني ، ألا تفتقدين أجواءك وأوقاتك الخاصة؟

لوت شفتها في حيرة ثم همست بأسى : أكيد ، أفتقد صيف عمان ونسائمه العبقة برائحة الياسمين ، وتلك الأجواء الصاخبة ، المكتظة بالرحلات والسهرات والأعراس ، أفتقد صديقاتي ، ولكني أكثر ما أفتقد هي هذه العصفورة الصغيرة .

نبشت في ألبوم الصور إلى أن استقرت على صورة طفلة في حوالي الرابعة . رهيفة ، نحيلة ، بشرتها بيضاء حدّ الشفافية . فمها صغير يكاد لا يرى ، وعيناها لوزيتان برموش طويلة معقوفة ، شعرها كستنائي فاتح ، خفيف وقصير كالصبيان . تكاد تكون نسمة أو همسة .

– من هي؟

– ابنة أخي ، اسمها حلا ، وهي الحلا كلّه! لست أدري لماذا أشتاق إليها كثيرا ، ربما لأن حضورها إلى هذه الدنيا حمل رهانا من نوع ما . وضحكت .

– أي رهان؟

- لم يرغب أخي في الإنجاب بعد أن رزق بولدين وصار عمر أصغرهما سبع سنوات ، ولكن زوجته أصرت على إنجاب بنت ، فقال لها مؤكدا : أنا لا أنجب البنات . غير أنها ، وبخبث الأنثى ، نفّذت ما برأسها وحملت ، وأتصور أنها كانت تحلم ببنت طوال الأشهر التسعة .

يوم أن جاء زوجته المخاض ، وأشرفت على الولادة ، قال لي متحدّيا : ان وضعت بنتا ، فهي لك . أجبته : قبلت . لكنه ما إن وقعت عيناه عليها حتى وقع في غرامها ، وصارت طفلته المدللة التي تأمره فيأتمر ، وتنهاه فينتهي .

ضحكت معلّقا : إنه مغرور بالفعل! من يتخلى عن ضناه؟

هزّت رأسها مؤيدة : ما كنت أصدق لحظة واحده أنه جادّ في عرضه ، ولكنه منحني الفرصة لأن أمارس نحوها بعضا من طقوس الأمومة المستترة ، وكثيرا ما كنت أناكفه مدّعية أنها لي ، فأسرقها من أمها لتمضي أياما معي بحجّة أنه تنازل لي عنها . نلعب ونأكل ونستحم معا ، تنام إلى جواري في سريري ، وأحكي لها حكايات ما قبل النوم .

نظرت إلى الصورة طويلا ثم أضافت مستذكرة : نسيت أن أخبرك أن لديها لدغة لذيذه بحرف الراء ، تنطق الراء كأنها غين ، كالفرنسيين! ولك أن تتصور عندما تعيد على مسامعي قصة ساندغيلا ، التي أتتها الساحغه ، وأعطتها كندغة مذهبة ، والتي غقصت مع الأميغ ، وأضاعت كندغتها على دغج القصغ . . . . كم تصبح القصة مثيرة وأنا أتتبع حروف الراء وهي

تتحول إلى غين في حكايتها ، أغالب رغبة ملحّة في الضحك ، وأتصنّع الاستماع الرصين .

حين لمحتُ دمعة على وشك الانحدار ، وأن فصلا دراميا بصدد أن يفرض نفسه ، غيّرت الموضوع على عجل : هيئي نفسك ، سأصطحبك إلى حفل جميل .

سرّحت شعرها ، ووضعت لمسة خفيفة من مواد التجميل على وجهها ، ورشّة من العطر على عنقها ، ثم ارتدت فستانا مخمليا أسود وجزمة جلدية طويلة ، لاحظت أن سماكة نعل فردتها اليمنى أغلظ من الفردة اليسرى . حملت سترتها الجلدية وحقيبة يدها ، ووقفت عند الباب كعادتها معلنة : صرت جاهزة .

وكأنها التقطت ملاحظتي تلك فبادرت إلى التوضيح : نعم ، أعاني من عرج خفيف ، ساقي اليمنى أقصر من اليسرى بمقدار ٢ سم . وتابعت ضاحكة قبل أن استفسر عن السبب : إنه خلع في الورك أثناء الولادة . . . يبدو أنني كنت أرفض الخروج من رحم أمي ، فاضطر الطبيب إلى سحبي عنوة . وضعوني في جبيرة لم تنجح تماما في القضاء على هذا الفارق البسيط ، فلم يتبق لي سوى الرضوخ لحل نهائي يتمثّل بهذه الأحذية التي تراها أمامك ، والتي تفصّل لي خصيصا . حتى إنني تعايشت معها وصرت أنتقي الموديلات التي تعجبني من محال بيع الأحذية وأقلّدها ، بفارق بسيط في غلاظة نعل الفردة اليمنى بالطبع!

همهمت متفهما : لا عليك ، إنها مسألة بسيطة .

في الطريق إلى السيارة ، أوضحت لها أن بحوزتي بطاقتين لحفل «كونسيرت» لعازف الناي «نيستور توريس» . عند وصولنا إلى السيارة ، اتجهت إلى الباب الأيمن بانتظار أن أفتح لها السيارة ، وحين فتحت باب السيارة وجدت نفسها في مقعد السائق . ضحكت من نفسها وبرّرت : آسفة ، تعلم أن مقود السيارة في الجهة اليسرى عندنا .

قلت ضاحكا : ابقي مكانك وحاولي القيادة .

حاولت التنصل والخروج من السيارة ، ولكني أمسكت بها وأبقيتها رغما عنها . وضعتُ المفتاح في خرم المحرّك وقلت : تفضلي ، قودي أنت .

أجابت مستنكرة : كيف أقود سيارة وكنت على وشك أن أفرم تحت عجلات السيارات مرتين ، بسبب عدم التفاتي إلى الاتجاه الصحيح عند قطعي الشارع؟!

قلت باصرار : حاولي .

حاولت ، وكان مشهدا هستيريا ، لم تستطع التحكّم بمقبض غيار السرعة بيدها اليسرى ، وحين أرادت أن تعود بالسيارة إلى الخلف ، التفّت برأسها من خلف كتفها اليمنى عوضا عن اليسرى ، فضرب رأسها بزجاج النافذة ، ولما نجحت في تحريك السيارة اتجهت إلى الجهة اليمنى من الطريق . عندئذ ، أوقفتها وكلي هلع من أن تقابلنا سيارة قادمة من الاتجاه المقابل . خرجت من السيارة مسرعا ، حملتها من على

مقعد السائق بين يدي ووضعتها في المقعد المجاور وهي لا تكف عن الضحك ، وأقسمت لنفسي ألا أدعها تكرر تلك المحاولة المجنونة ثانية .

أخذنا موقعنا في المسرح . أطفئت الأنوار فامتلأ المكان بصوت ناي لم يعرف مصدره ، من ثم أطلّ من خلف الستارة الحمراء رجل متوسط الطول ، يرتدي السواد . قميص أسود ، ربطة عنق سوداء ، وبذلة سوداء ، يخالط شعر رأسه الأسود بياض خفيف . جنوبي الملامح والبنية ، يحمل بين أصابعة نايا مذهّبا وينفخ فيه لحنا حزينا .

همست في أذني : لم تخبرني من أين هو .

فهمست : إنه من بورتوريكو . . . . يعني لاتيني .

استرخت في مقعدها منصتة .

أنهى معزوفته الحزينة ، ثم حيّا الجمهور مرحبا وغاب خلف الستارة التي سرعان ما انفتحت على مصراعيها كاشفة عن فرقة أوركسترا صغيرة تضم عازفين يحملون مختلف الأدوات الموسيقية ، فيما يتوسطها هو حاملاً نايه المذهّب . انحنى تحيّة للجمهور وأعلن عن اسم معزوفته التالية «ثورة الإنسانية» ، التي انسابت نغماتها في داخلي مثل دغدغات رقيقة تداعب الخيال والفطرة . ثم ارتفعت بي معزوفة «ليكن هناك ضوء» إلى عوالم غيبية ساحرة ، أتبعها بمقطوعة أطلق عليها اسم «حتى إلى الأبد» أحسست بها تفجّر وخزا رائعا يصعب وصفه في قلبي .

تابع عزف مقطوعاته الواحدة بعد الأخرى وهو يدور حول

نفسه ، يهبط ويعلو في خطوات راقصة ، وما إن بدأ في عزف ألحانه اللاتينية ، حتى ضج الجمهور بالتصفيق والرقص . أخذ يشارك جمهوره الرقص بخطوات «سالسا» متقنة ، حاملا ناية في يد واحدة ، ليشير إلى الجمهور باليد الأخرى وهو لا يزال ينفخ في الناي ، فيستجيب الجمهور للغة يده . يهبّ راقصا بإشارة من إصبعه ويستكين ناصتا بإشارة أخرى . بدا سيد المكان بحق ، قائد أوركسترا محترفاً ، يتحكّم بالعازفين ، والجمهور ، وحتى كشّافات الضوء التي تلاحق خطواته ، وكأنها عرائس موصولة بخيوط تنتهي عند أصابعه .

على باب المسرح توقفت أمام طاولة عرضت فوقها أقراص مدمّجة متنوعة لحفلات أقامها العازف . اشترت واحدا يحتوي على القطع الموسيقية التي عزفها تلك الليلة ، ثم استقللنا السيارة عائدين باتجاه الجامعة . أوقفت السيارة في موقف السيارات الذي يبعد قليلا عن مبنى السكن ، وأكملنا الطريق سيرا على الأقدام ، في الطريق المفروش بالحصى المؤدي إلى السكن بدا الليل متوهجا بلا حدود ، تنيره أضواء ملونة معلقة خلف شبابيك الغرف الصغيرة والمطابخ الواسعة . ينتهك سكونه رنين ضحكات وصرخات الطلبة المتجمعين حول مائدة العيد .

ومن دون أن أدري ، وجدت نفسي أحملها فوق كتفي وأدور بها دورات حول نفسي وهي تضحك تارة ، وتصرخ طالبة إعادتها إلى الأرض تارة أخرى . لم ألب طلبها إلا عند باب

غرفتها . تمنيت لها ليلة طيبة واستأذنت للمغادرة . سحبتني من ساعدي إلى داخل الغرفة مستنكرة : كيف تذهب في مثل هذه الساعة؟ إبق هنا الليلة والصباح رباح . ألا ترى كيف يتجمّع الكل عند الكل في هذه الليلة؟

ألقيت نظرة شاملة على الغرفة وأعلنت : لدينا مشكلة ، أين سأنام؟ هل ستشاركينني سريرك؟

من دون أن تجيب ، اتصلت بمسؤول السكن وأخبرته أنها بحاجة إلى فرشة إضافية لأنها تستضيف صديقا . ألقت بالفرشة على الأرض إلى جوار السرير وقالت : ستنام على هذه الفرشة ، هل انتهت المشكلة؟

أومأت برأسي موافقا ، وكلي يقين بأن لا حاجة لنا إلى سرير أو فرشة إضافية لأن النوم سيضلّ طريقه إلينا .

بعد أن حلّت مشكلة الفراش ، ذهبت إلى المطبخ وعادت تحمل بعض الساندويشات وكوبين من العصير فوق صينية صغيرة . وضعت قرص المعزوفات الموسيقية الذي اشترته تلك الليلة في جهاز الكمبيوتر ثم جلست إلى جواري على الفرشة . سرقنا الوقت ونحن نتسلّى بالأكل والحديث والاستماع إلى صوت الموسيقى . عند الفجر بدأ الثلج بالتساقط مبيّضا وجه الليل الأسود بنتفه الكثيفة . وقفنا خلف زجاج النافذة نتأمل تعلّق ندف الثلج الصغيرة بالأشجار ، وأسطح المباني القرميدية ، وحوّاف النوافذ وكل ما يمكنها أن تتعلق به تفاديا للانكسار . دقائق قليلة ، وكانت تلك الكائنات قد ارتدت قناعا ناصع البياض .

حـرّكت ندف الثلج الهـشّـة هشـاشـة مماثلة في داخلي ، ودفعـتني لأن أتعلق بكائن مـا تفـاديا لانكسـار مماثل . طلبـتـهـا للرقص فـاسـتـجـابت . أحطت خـصـرها بذراعيّ ، وتمايلنا في خطوات وئيـدة ، مـتـمـهّلة على وقع الموسـيقى ونحن مـتـقـابلان وجـهـا لوجـه ، غـمـرت وجـهي بنظرة سـاهمـة من عـينيـهـا السـوداوين ، فـأحـسـست أنني أغـرق في سـوادهمـا العـمـيق . أغـمـضت عـينيـهـا وأمـالت رأسـهـا لتـوسّـدها كـتـفي ، فلفـحت أنفـاسـهـا الحـارة عنقي ، ولامس شـعـرها وجـهي . بدت شـهـيّـة ومغرية . رفعت يدي عن خصرها ومسّدت بكفي فوق شعرها بلطف ، ثم أمسكت بخصلة منه وشـددتها بقوة بين أصابعي ، فانطلقت من فمها آهة خفيفة زلزلت كياني . رفعت رأسها عن كـتـفي ونظرت إليّ نظرة عتـاب ، فـسـارعتُ إلى وضع إصـبـعي تحت ذقنها دافعا به إلى أعلى فالتقى وجهها بوجهي .

احتويت وجـهـهـا الصـغير بنظرة شـاملة ، دغـدغـت وجـنتـهـا بأناملي ، أزحت خصلة من الشعر عن جبـينهـا ، قبّلتـهـا قـبلة رقيقة فوق شـفـتيـهـا ، فأحـسـست بجسـدها يرتخي بين ذراعيّ . قبّلتـها قبلة أخرى أشـدّ شغفا ، فقبلتني . مررت بشـفتي على عنقها ، شحمة أذنها فاستسلمت لي بكل خلجاتها . استلقينا على الـفـرشـة وضـمـمـتـهـا إليّ بلطف ، ثـم خلعت عنهـا ثـيـابهـا برويّة ، ودسست وجهي في صدرها ، ألثمه بنهم كرضيع فتك به الجوع ، شـدتني إليـها وكـأنها بانتظار اللحظة . التـحمنا حتى سمعت زقزقتها ورأيت بريق النشوة يفرّ من عينيها .

اعـتـدلت في الفـراش ، أشـعلت سـيـجـارة ، وسـألتـهـا باندهاش : كيف؟

أطرقت ولم تجب .

استفسرت : هل أفهم أنني الرجل الأول في حياتك؟

نظرت إليّ بوجل وسألت : ماذا وجدت؟

سألت ثانية : ولكن لماذا؟

نفخت الهواء كعادتها ، هزّت كتفيها في حيرة وتمتمت : لأنه كان لا بد من أن يكون هناك رجل أول .

أحطت وجهها بيدي الاثنتين ، وصوبت نظري إلى عينيها متسائلا : وهل تثقين بي إلى هذا الحد؟

حـرّرت وجـهـهـا من بين يدي بعـصـبيـة ، وتنهـدت منهـيـة حلقة الأسئلة والأسئلة المضادة : إن كنت قد وثقت بنفسك ، فلم لا أثق بك؟ لا تخف ، لن ألزمك بشيء .

غادرتها مصحوبا بسؤال ما كان ليرد في خاطري من قبل . سؤال الثقة هذا لم يكن أبدا في الحسبان! كان قد مات ، وأهلت فوقه التراب منذ وطأت قدماي هذه الأرض . ها هي تطرحه كمن ينبش قبرا ويبعث الجثة الهامدة التي في داخله إلى الحياة من جديد . هنا ، سؤال الثقة لا وجود له ، فجلّ علاقاتي مع النساء عـابرة ، سـريعـة ، وذات نهـايات سـعـيـدة . المرأة بالنسـبـة لـي ندّ عنيد . كلانا فريسة وصياد في الوقت ذاته . تفاهم ضمني متفق عليـه . لا التـزامـات أو عـهـود ، لا ارتبـاطات أو وعود . كـلانا حـرّ سواء في القنص ، أو في الوقوع في براثن الاقتناص .

أما هناك فالأمر مختلف ، المرأة ليست ندّا على الإطلاق . المرأة إما فريسة أو ضحيّة ، فما الذي تعنيه بجوابها / السؤال ذاك : ان كنت قد وثقت بنفسك ، فلم لا أثق بك؟

كيف تتساوى لديها الثقة عند الفريسة والصياد؟! فمنذ متى تثق الفريسة بصيادها؟ ومنذ متى يشك الصياد بقدرته على القنص؟ ألا تعلم أن ثقة الصياد في نفسه فطرية ، تماما مثل شك الفريسة في الصياد؟ فلماذا لم يأتها الشك من أمامها أو خلفها؟

ولكن ، في الواقع أنا من نبش سؤال الشك أولا حين سألتها : هل تثقين بي إلى هذا الحدّ؟ كم أنا غبي! عن أي حدّ أتكلم؟ وأي حدّ هو الحد؟ وهل هناك حدّ لمثل هذا الفعل؟ صحيح أنها امرأة من هناك ، لكنها تناورني بسلاحي . أرادت أن تفهمني أنها لا تقل نديّة عني . أرادت أن تخبرني أنها تعي ما تفعل وتختاره بإرادة حرّة مثلي تماما .

بعد أيام اتصلت بي تدعوني إلى العشاء . قالت إن الشلّة ستحتفل بعيد الأضحى وإنها وعدتهم بصنع المنسف الذي يشتهونه ولا يحسنون طهوه . اعتذرت لها لأننا لا نعطّل بمناسبة أعياد المسلمين ، وتمنيت لها ولشلّتها عيدا سعيدا .

مساء اليوم المحدّد للوليمة ، اتصلتُ بها على الهاتف النقال مستطلعا الأجواء ، أجابني صوت رجل فأغلقت الخط .

بعد فترة وجيزة طلبتني وسألت : هل اتصلت بي؟

بادرتها على الفور : من الذي رد على هاتفك؟

قالت باستغراب : عصام . . .

فقلت بحنق : ما الذي يفعله عصام في غرفتك؟

شهقت مصحّحة : لم يكن في غرفتي ، كنا في المطبخ ، أخبرتك أنني سأدعو الشلّة إلى وجبة طعام . . .

قاطعتها حانقا : اتصلت بالخط الأرضي للمطبخ قبل قليل ولم يجبني أحد . . .

أجابت : ممكن ، لأني ذهبت لإحضار غرض من الغرفة وهم لا يجيبون على هاتف مطبخي لأنهم . . .

- ولماذا يجيب على هاتفك الشخصي؟

- لأن هاتفي كان في يده ، فقد طلبت منه أن يساعدني في إدخال بيانات على الهاتف لا أعرف كيف أدخلها . . . .

أحسست بسخطي يتعاظم ، ويمنعني من الاستماع إلى المزيد من التبريرات الساذجة ، فقلت بحدة : لا أصدّق مثل هذه الألاعيب . . . تذكّري أنني كنت في الجامعة وأعرف مثل هذه الأعذار . . . كل شيء انتهى . لا أريد معرفتك نهائيا . وأقفلت الخطّ .

بعد أيام ، وجدت بين رسائل البريد رسالة شاذة ، قلبتها فرأيت خطّها على المغلّف . ألقيت بها جانبا محدثا نفسي : ما الذي تريده الآن؟ ألم ننته من هذه القصة؟

لأيام ، ظلّت رسالتها الملقاة على الطاولة بإهمال تذكّرني بخديعتها . كل صباح ، أشيح ببصري عنها متجاهلا وجودها وأخرج إلى العمل ، إلى أن جاءت عطلة نهاية الأسبوع فرأيتها

تستلقي أمامي طوال الوقت كجثة هامدة . تشاغلت عنها طيلة يوم السبت بالخروج لزيارة والديّ ، وشراء قائمة الحاجيات ، ثم الذهاب إلى الحانة ليلا . ما أن دلفت إلى الحانة وجلست وحيدا لاحتساء كوب من البيرة حتى داهمني شعور ثقيل بالوحدة ، التفتّ حولي فلم أجد أحدا من معارفي . أنهيت الكوب سريعا وعدت إلى المنزل . ما إن دخلت حتى وقع بصري على الرسالة فوق الطاولة . دفعني الضجر إلى أن أمدّ يدي إليها وأفض غلافها لأجل قتل الوقت ليس إلاّ . سحبتها من الغلاف بأصابع مرتعشة وذهني يؤلف سيناريوهات محتملة عما عساها ستقول ، لم يكن من بين تلك السيناريوهات ما وقعت عليه عيناي . . .

(لست بعاهرة كما يحلو لخيالك الظنّ!

ما كنت أتصور أنني سأقف مدافعة عن نفسي أمامك أنت بالذات ، وما كنت أظن أنني سأعاقب وأهان بسبب عمل كهذا ، أن أجمع أبناء وطني حول مائدة عيد ، لتناول وجبة طعام افتقدوها طويلا .

الألاعيب التي اتهمتني بها لا تخصّني ، فأنا لست أنت!

لم أخدعك وما كنت بحاجة إلى خداع أحد في أي يوم من الأيام ، كنت دوما صادقة وصريحة معك ، إلا أنك أبيت إلا أن تسقط أوهامك وتجاربك السابقة على أفعالي .

ظلمتني مرّتين :

مرّة حين اتخذت قرارك بالتخلي عني قبل أن تتحرى

الحقيقة ، ومرة ثانية حين تمسكّت بقرارك بعد أن اتضحت لك الحقيقة . والحقيقة ليست بحاجة إلى كثير من الذكاء ، ولكن يبدو أن ذكاءك قد خانك هذه المرة .

يلزمني الكثير من الوقت حتى أتجاوز خيبتي فيك .

عموما ، شكرا لك على شكوكك ،

وشكرا على أحكامك المسبقة ، فقد جعلتني أتمسّك أكثر بإنسانيتي . وإن كانت تلك خطيئتي فلك ألا تسامحني أبدا) .

أعدت قراءة الرسالة مرات ومرات ، كل مرّة من زاوية مختلفة ، وفي كل مرّة يتّضح لي أنني تسرّعت بحكمي عليها . غيرتي هيّأت لي الأمر على غير حقيقته ، وعنادي عقّد المسألة رغم بساطتها . ربما كان من الأفضل لو استمعت إلى قصتها كاملة عوضا عن مقاطعتها واتهامها بالكذب . خطر لي أن أكلّمها ، ولكني خفت من ردّة فعلها . ربما لا تجيب ، أو ربما تكون بانتظار اتصالي هذا لتوبّخني وتغلق الخط في وجهي انتقاما لنفسها . سأرى .

أرسلت لها رسالة قصيرة أجسّ بها نبضها : وصلت رسالتك .

بعد قليل وردتني رسالة : ستظل رجلا شرقيا ، وإن عشت في الغرب طوال حياتك .

ضحكت . اتصلت بها وقلت على الفور : أنا غيور ، أعترف . ولكن ليست هذه صفة شرقية محضة .

زفرت الهواء في أذني وهمست : هي القصة ذاتها دوما . لا

يمكن لرجل شرقي أن يصدّق أن مجرد صداقة أو زمالة بريئة يمكن أن تربط بين رجل وامرأة .

فكرت قليلا وقلت : أنا آسف . . . لننهي هذا الخلاف .

أجابت بحدّة : قبل أن ننهيه عليك ان تعرف أن هؤلاء الشباب هم على درجة كبيرة من الذوق والأخلاق ، يتعاملون معي باحترام كأخت كبيرة . . . ثم إنهم في مثل نصف عمري!

سارعت إلى التعليق من دون تفكير : هذا ليس مانعا . . .

صرخت بغيظ : مانعا من ماذا؟ هل أنت مريض إلى هذا الحدّ؟

أوضحت على الفور : أعني في العموم لا يشكّل فرق السن حائلا دون إقامة علاقات . . .

قاطعتني : تذّكر أننا نتحدث عني هنا وليس في العموم ، فكّر قبل أن تتكلم . إن كنت تريد أن نكمل ما بدأناه ، فأرجو منك احترام مشاعري .

هززت رأسي مؤيدا وأجبت : الاحترام موجود و . . .

قالت منهية : على العموم ، توضحت الأمور الآن وهذا يكفي .

ما زال يلزمنا كثير من الوقت قبل أن نتمكن من الوصول إلى نقطة التقاء . يصعب عليّ وضع شكوكي جانبا والتخلّي عن خبرات قاسية في طرفة عين . بعد تلك الحادثة ، بعد تلك المرأة ،ليست هناك امرأة فوق الشبهات ، كل النساء مشاريع خيانة!

كانت تعمل سكرتيكرة لدى أحد مكاتب المحاماة العريقة في المدينة ، وكنت في مهمّة ترجمة لصالح أحد العملاء الأتراك . كان عليّ أن أترجم ما يوجّهه المحامي من أسئلة روتينية عن جنسية العميل ، ومكان إقامته ، وبياناته الشخصية ، وكيفيّة دخوله إلى البلد ، وكانت تجلس إلى جواري تسجّل ما أترجم . تكرّرت جلسات الترجمة ، وتكرّرت الجلسات المتجاورة ، حتى ذلك اليوم الذي انتبذت بي زاوية بعيدة وأنا في طريقي إلى الخارج وطلبت مني أن أنتظرها في الحانة التي على ناصية الشارع .

الساعة حول معصمي تشير إلى الرابعة والنصف مساء ، وينبغي عليّ انتظارها لنصف ساعة أخرى إلى أن تنهي عملها . جلست إلى البار وطلبت كأسا من البيرة أبدّد بها الوقت . جاءت على عجل ، رحّبت بي من بعيد ثم جلست على المقعد المجاور . طلبت كأسا من البيرة ، وجرعتها بسرعة قبل انتقالنا إلى مطعم صغير تناولنا فيه العشاء ، ثم اصطحبتني إلى شقّتها . حدث كل شيء بسرعة . مارسنا الحب بشبق وجنون حتى ساعات الصباح الأولى ، قبل أن أتركها عائدا إلى بيتي صاغرا ، وما زال لدي بقايا شهوة لم تستنفد بعد .

انقضت شهور ونحن نلتقي في لقاءات خاطفة لا تروي ظمأ ولا تسدّ جوعا ، إما في فسحة الغداء ، أو في عطلة نهاية الأسبوع . لا أستطيع أن أنكر تعلّقي بها ، شدتني بساطتها وأناقتها ، أما ساقاها الطويلتان فأفقدتاني توازني . قررت أن

أحـتـفظ بهـا على نحـو دائم ، لـم تعـد تكفـيني اللقـاءات المستقطعة ، والزيارات العابرة ، أردت الاحتفاظ بها إلى جواري طيلة الوقت ، أن أبدأ صبـاحاتي غـارقـا في عـينيـها الزرقـاوين الجميلتين ، وأنهيها غامرا وجهي برائحة شعرها الأشقر الطويل .

عـرضت عليها أن تقيم معي فوافقت ، وعدتني بأن تنذر نفسهـا لي وحـدي ، وألا تشـرك معي أحـدا . يومـا بعـد يوم ، لاحظت تعلّقها الشديد بزجاجات الخمر ، تشرب دون هوادة ، تصب الكأس تلو الكأس في جوفها إلى أن تفقد وعيها ، فتثور لأتفه الأسباب ، تحطم ما تجد في طريقها ، وتصحو في اليوم التالي لتهبّ إلى عملها وكأن شيئا لم يكن . تحمّلت إدمانها ، ثورتها ونزقها ، ولكني لم أستطع تحمّل رؤيتها بصحبة رجل آخر ، وهي تترنح في أحضانه من شدة السكر . . . يلزمني زمن طويل حتى أعيد بناء ثقتي بالنساء ، حتى أصدق ادعاءاتهن وآمن لهن . ربما كنت ساذجا ولكني لست غبيا ، لن أضع ثقتي الكاملة في أية امرأة الا بعد أن أتأكد من إخلاصها لي .

في أوائل شهر حزيران اتصلت بي تدعوني للمشاركة في مظاهرة ينظمها تحالف أوقفوا الحرب ، وحملة مناصرة الشعب الفلسطيني ، وعدد من الجمعيات الأخرى المعنية بالصراع العربي الإسرائيلي بمناسبة مرور أربعين عاما على النكسة ، أو الاحتلال الاسرائيلي للضّفة الغربية وقطاع غزة .

قالت : يستعد فريق من طلبة الجامعة للمشاركة في المظاهرة ، سمر ولورا أكثرنا حماسة ، منذ الصباح ونحن نعمل

على إعداد لافتة كبيرة تحمل اسم الجامعة ، كتبنا فوقها «أنهوا الاحتلال ، أربعون سنة تكفي» .

هدأت قليــلا ثم تابعت : لورا خطّطت على صــدر «تي شــيــرت» أبيض عــبــارة (Free Palestine) ســتــرتديه في المظاهرة . . . حماسة هذه البنت لفلسطين يثير الإعجاب!

أوقفت استرسالها قائلا : حسنا . ما شأني أنا؟

ضحكت مجيبة : شأنك أن تشاركنا . . .

لم تعجبني ضحكتها ، فسألت محتجّا : وهل الدعوة ملزمة؟

قــالت : تقــريبــا . . . على كل فلسطيني أن يشــارك في مثل . . .

قطعت عليها خطبتها : طيّب . . . سأفكر .

ردت على الفور : تعال وفكر لاحقا .

قلت : بل الآن . . .

أطرقت أفكر في عرضها : يا لها من متسلّطة! من قال لها إن لدي رغبة في أن أجوب الشوارع مردّدا هتافات بلهاء لا طائل من ورائها؟ أن أبحّ صوتي في ترديد عبارات التنديد ، لتذروها الرياح عند أول الليل من دون أن تصل إلى آذان أحد .

ثم ما الذي تعنيه النكبة أو النكسة؟

من أخبرها بأني مغرم باحتساب السنين أو مدمن على العدّ؟ ألم نملّ من الحساب؟ أربعون سنة مضت على النكسة ، وقرابة الستين على النكبة ، وكل ما نتقنه هو عدّ الأرقام التي

تزداد وتتراكم سالبة معها أعمارنا وأحلامنا .

زفرت الهواء بضجر تستعجلني : ماذا؟ هل فكرت؟

أجبت : لن أشارك .

استفسرت : لم؟

قلت : إن كانت اللغة هي مثوى وجودك كما تدّعين ، فإن هذا الكون كلّه وطني! أنا الإنسان بصيغته البدائية ، كائن كوني ، «كوزموبوليتاني» ، أوسع من أن يحشر في خرائط صماء ، وأكبر من أن يرسّم بحدود واهية . كائن لا ينتمي إلى جغرافيا من تفصيل البشر ، ولا يصاب بأعراض «النوستالجيا» الواهية . . . .

أوقفتني : يكفي . . . أنت حرّ .

في اليوم المقرر للمظاهرة ، والذي صادف يوم أحد ، لم أشعر برغبة للذهاب إلى الحانة أو زيارة والديّ . ليس لي صداقات في هذا البلد . أصدقائي الحقيقيون خلّفتهم ورائي وانقطعت صلتي بالعديد منهم منذ أقمت هنا ، حتى المدن الكثيرة التي تسكّعت في شوارعها ، وثملت في حاناتها ، وتقشر جلدي على شواطئها لم تصنّي ، بل حفرت بصماتها فوق جلدي ، وتركتني مثخنا بالهزائم والخسارات التي تعجز الذكريات الجميلة عن محوها أو التقليل من أثرها في وجداني ، فمن أين لها أن تظن بأن الحنين سيعتريني الآن إلى أرض لم أطأ ترابها يوما ، لم أشتم هواءها ولم أقطف ثمارا عن أشجارها ، وما كان لي فيها حارة ألهو بين زقاقاتها ، أو مدرسة أتعلم فكّ

الخط على مقاعدها ، وأكتب الشعارات على أسوارها؟
اعتكفت في المنزل وحيدا أجتر أماكني القديمة ، أمضغها من جديد بأسنان نخرها السوس ، فتستعصي على المضغ . تنزلق في حلقي ككرات من لهب ، فأشتعل بالرغم مني تحت وطأة أسئلة ثقيلة : هل تكون على صواب؟ ما الذي يجعلها تتمسّك بمحض فكرة هي الوهم بعينه؟
تابعت المظاهرة على شاشة التلفزيون ، تجّمع المتظاهرون وشقوا طريقهم عبر شوارع لندن باتجاه ساحة Trafalgar Square حاملين معهم لافتات خطت فوقها عبارات تطالب بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ، رافعين على أكتافهم بعض المتحمسين الذين يحملون مكبرات للصوت ويهتفون بعبارات تندّد بالحرب والعدوان ، إلى أن وصلت الحشود إلى ساحة «الطرف الأغر» واتخذت أماكنها على المدرّجات الحجرية أمام منصّة عالية وقفت فوقها مجموعة من المتحدثين من منظمين وناشطين ، عرفت من بينهم إيمانويل حاسسيان ، سفير فلسطين في لندن ، والنائب الفلسطيني مصطفى البرغوثي ، والنائب البريطاني المعروف بمناصرة القضية الفلسطينية جورج غالاوي . . .
اتصلت بها تلفونيا معربا عن تضامني . فصارت تبكي . حاولت تهدئتها قائلا : لا بأس . ابكي . . .
برّرت بكاءها بصوت مخنوق : آسفة ، لكني لا أستطيع منع نفسي من البكاء . . . أحيانا أتمنّى لو أني أستحيل إلى

جماد لا يعرف الدموع ، لو باستطاعتي أن أنقلب إلى صخرة ، أو خشبة ، أو حتى جزمة لا تفيض بالبكاء كلما داهمتها ذكرى جديدة لنكستنا . . .

سكتّ مصغيا لما تقول ، فسألتني : بم تفكّر؟

قلت : لن يعجبك ما أفكر به . . .

قالت : جرّب .

استجمعت جرأتي وقلت : هل يمكن لحكومة غير هذه الحكومة أن توافق على تنظيم مظاهرة حاشدة ضدّها في أي بلد عربي؟

أجابت : بصراحة لا .

تابعت : I am proud to be British

جاءتني شتيمتها على الفور : Well, F*** you

استمهلتها موضحا : اسمعيني . . . أعني ، أنظري إلينا ، شعوب متناحرة مشتتة ، لا تلتقي على كلمة ، ولا نستطيع حتى تنظيم مظاهرة كهذه . . .

قاطعتني منفعلة : صحيح أننا كذلك ، ولكن أليست هذه الإمبراطورية وراء كل ما جرى ويجري في بلادنا من فتن طائفية ، وحروب أهليّة قذرة؟ أليست هي من فتتّت وطننا إلى دويلات عاجزة وتابعة؟ أليست هي من فرّقتنا إلى طوائف ، وقبائل متناحرة؟ أنظر إلى ما حلّ بالعراق ، ولبنان ، والصومال ، والسودان . . . متى تفهم التاريخ؟

ثرت في وجهها ساخطا : لم أنت هنا إذن؟

لاذت بالصمت .

كم هي عنيدة!

كل حدث بالنسبة لها هو حدث مصيريّ مهما كان ضئيلا . وكل أمر هو خيار ما بين موت أو حياة! خيار ما بين لونين لا ثالث لهما ؛ أبيض أو أسود . ألا تعلم أن هناك على الدوام لونا ثالثا؟ لونا ما بين بين ، رماديا من غير سوء! حتى إن هناك جنسا ثالثا ، وطريقا ثالثا ، وأن خيارا من قبيل «إما معنا أو ضدنا» ما عاد يصلح لهذا الزمان! متى ستفهم أن ما يدور فوق هذه الأرض هو أمر أكبر منا جميعا؟

مرّت أسابيع من دون أن نتبادل كلمة واحدة ، فأحسست بأن غيبتها طالت أكثر مما ينبغي وأنني أفتقدها بجنون . وتساءلت : ماذا أفعل بي لأني أشتاق إليها؟ لا أريد لفروقاتنا التي بزغت واستطالت مثل نبات شيطاني ، أن تسدّ الأفق وتحجب عنا الرؤية . لن أسمح لهذه الفروقات أن تبعدها عني ، أو تخرجها من تحت جلدي ، أو تمتصّها من شراييني . لابد من حل . قررت أن أنحّي الحديث في المسائل الشاكة جانبا ، أن أعلّقها إلى حين ، أن أبحث عن نقاط التقاء .

في اليوم التالي ، ذهبت إليها مباشرة بعد انتهاء عملي ، وصلت إلى الجامعة بحدود السادسة مساء محمّلا بما استطعت حمله من شموع زرق بمختلف الأشكال والأحجام ، دائرية ومربعة ، رفيعة وغليظة ، طويلة وقصيرة ، داخل حقيبة صغيرة . وجدتها في المطبخ تعدّ وجبة العشاء برفقة شابة لا تتجاوز

الخامسة والعشرين من العمر . بشرتها بيضاء صافية ، عيناها خضروان صغيرتان ، وشعرها أشقر ناعم ينتهي عند منتصف ظهرها . ترتدي قميصا من دون أكمام و «شورت» يصل إلى ركبتيها ، كاشفة عن جسد رياضيّ بعضلات بارزة في الذراعين والساقين .

راقبتهما لدقائق قصيرة عبر النافذة الزجاجية لباب المطبخ ، قبل أن أطرق الباب وأستأذن بالدخول . حين رأتني ، سارعت إلى إخفاء دهشتها خلف عبارات التعريف قائلة : هذه لورا ، زميلتي في الشّقة ، ثم التفتت نحوي وقالت : وهذا وليد ، صديقي .

تبادلتُ ولورا عبارات المجاملة المعهودة ، فبدت لي مرحة ، تلقائية وبسيطة ، وحين تضحك تبرز أسنانها الصغيرة غير المستوية بوضوح . علّقت رهام بودّ : «لورا» فلسطينية الهوى ، ومحسوبة علينا!

قبل حضوري ، كانتا قد اتفقتا على أن تعد كل منهما طبقا وتتشاركا وجبة العشاء معا عوض أن تتناول كل واحدة عشاءها منفردة ، وهي من المرّات القليلة التي تصادف وجودهما من دون انشغالات سابقة عند موعد العشاء . بعد حضوري ، أضافت لورا طبقا ثالثا إلى المائدة ودعتني لمشاركتهما عشاءهما . بينما نحن نفتك بطبق «اللزانيا» الذي أعدّته لورا ، وطبق فتّة الدجاج الذي صنعته رهام ، أجبت عن بعض أسئلة لورا الروتينية حول طبيعة عملي ، والمدة التي قضيتها هنا ،

وقصة لقائي برهام .

فجأة توقفت عن الحديث لتبدي إعجابها «بالفتّة» قائلة : هذا الطعام لذيذ جدا خاصة مع كل تلك المكسرّات التي تزين وجهه . نحن لا نضيف المكسّرات إلى طعامنا .

ضحكت ضحكتها الصغيرة التي تبرز أسنانها غير المستوية ، وأضافت : في الحقيقة نحن في أمريكا ليس لدينا مطبخ أو أطباق خاصّة ، أغلب طعامنا هو «البيرغر والستيك»! ونفضّل المطبخ الصيني والإيطالي عندما نطلب طعاما جاهزا إلى البيت .

سألتها : وماذا كنت تعملين قبل حضورك إلى هنا؟

قالت : في الجامعة ، درست الفنون المسرحية ، الرقص المسرحيّ بالتحديد ، وبعد تخرّجي التحقت بالعمل في مدرسة إعدادية ، وعملت على تحويل النصوص الأدبية إلى نصوص مسرحية راقصة بمشاركة الطلبة . خلال سنوات عملي الثلاث ، لاحظت أن الطلاب يواظبون على حضور الحصص ، ويشاركون بحماسة في مراحل بناء النص المسرحي ، والحركات الراقصة ، وتكتمل سعادتهم بعرضه على مسرح المدرسة .

- وما طبيعة هذه النصوص؟

- كنت أترك اختيار النص للطلبة أنفسهم ، بعد أن أفرزهم إلى مجموعات صغيرة ، وتختار كل مجموعة اسما لها وناطقا باسمها . بالطبع هناك شروط لاختيار النصّ ، وأهمها أن يحتوي على رسالة إنسانية . . . غالبا ما كان لكل مجموعة

تصوّر معين عن الرسالة التي يريدون إيصالها إلى الجمهور .

– مثل ماذا؟

– قد تستغرب أن قائمة القضايا التي كانت تشغل الطلبة هي نفسها التي تشغل العالم بأسره ، تقع على رأسها قضّية التمييز العنصريّ ، والعنف بأشكاله .

– واضح أن ما تقومين به ممتع جدا ، لماذا تركت العمل إذن؟

– فكرت في تطوير معلوماتي ومهاراتي ، حضرت إلى هنا لأجل الحصول على درجة الماجستير ، وأتمنى بعد أن أتخرّج أن أجد لي فرصة عمل في فلسطين ، أعرف كم يحتاج الأطفال هناك لمشاريع من هذا النوع تساعدهم على إطلاق مخزونهم الفكري والعاطفي في مواجهة الاحتلال .

نظرتُ إليها بفضول ، وكأنها «صندوق الدنيا» ، بما يحمل من عجائب وأسرار ، وتساءلت في نفسي عما إذا كان العالم على موعد مع نسخة أخرى من «راشيل كوري»!

تابعت حديثها موضحة وكأنها تقرأ أفكاري : لا تظنّ أن العالم غافل عما جرى ويجري في فلسطين ، القضيّة أصبحت مفضوحة ولا يمكن التستّر عليها إلى الأبد . صدّقني ، جزء كبير من الشعب الأمريكي بات يعرف الصواب ، ولن يعم السلام إلا بتضافر القوى الشعبيّة في أنحاء هذا العالم .

سألتها : هل تظنين أن بالإمكان تحقيق السلام فعلا؟

أجابت بحماسة : طبعا ، علينا أن نعمل على تقريب

وجهات النظر بين الطرفين ، وعلى الأخصّ الصّغار ، حتي يرى كل طرف هموم الطرف الآخر ، ويتعلم طرق التعامل معه عوضا عن إنكار وجوده كليا .

انتهينا من العشاء ، فقامت كل منهما إلى رفع الأطباق وغسلها في حوض المطبخ وهما منهمكتان في استكمال نقاش سابق حول كتاب من تأليف فتى لا يتجاوز السابعة عشرة من العمر يحكي فيه عن ظروف أسره وتجنيده في صفوف المقاتلين في «سيراليون» منذ كان في الحادية عشرة من عمره ، وكيف تم انقاذه وإعادة تأهيله من قبل هيئات الأمم المتّحدة . . . فبدت لي العلاقة التي تجمع بينهما متجانسة وسلسة رغم الفارق الكبير في العمر والتجربة .

بعد أن فرغتا من غسل الأطباق ، انفردت بلورا جانبا ، ورجوتها أن تشغل رهام في المطبخ لبعض الوقت ، متذرّعا بحاجتي إلى استعمال الحمام في غرفتها . دلفت سريعا إلى داخل الغرفة ، أخرجت شموعي من الحقيبة ونصبتها في أرجاء الغرفة ، أشعلتها فأحالت فضاء غرفتها إلى بحر من الزرقة .

حين عادت ، غمرتها أنوار الشموع المزروعة على جنبات الغرفة ، فتسمّرت في مكانها غير قادرة على الحراك أو النطق وعلامات الدهشة تشّع من عينيها . لم أمنحها فرصة للسؤال أو الاستفسار ، جثوت على ركبتيّ ورجوتها : تزوجيني!

أمسكت بشعري وشدتني قائلة : يا مجنون ، ألست طائرا حرّا؟ لم تريد أن تدخل القفص بجناحيك؟

قلت ضاحكا : لأنك لعنتي وغضب الله عليّ . اقبلي بي حتى يرفع الله غضبه عني . . .

قالت جادة : لن ينجح هذا الزواج . . . نحن ضدان متناقضان . شمال وجنوب ، لكل عالمه وطبائعه المختلفة . . . لن يدوم زواجنا لأكثر من أيام العسل ، نكون فيها قد أجهزنا على الخيوط الواهية التي تربط بيننا . . .

قاطعتها مؤكدا : هل تظنّين بأنني غير مدرك لهذه الحقيقة؟ لم لا يكمّل جنوبك شمالي وتنتهي المشكلة؟

ضحكت مجيبة : بهذه البساطة؟ سيكون زواجنا حماقة كبيرة عندئذ . . .

قلت بإصرار : وما المانع من ارتكاب حماقة جديدة نضيفها إلى سجّل الحماقات الكثيرة التي ارتكبناها سابقا؟!

أطرقت تفكر قليلا ، ويبدو أن التسوية التي طرحتها أعجبتها ، فابتسمت قائلة : سأقبل بشرط .

أجبت على الفور : أشرطي .

قالت بوجل : Impress me !

عند الغروب كنت أحمل الماندولين وأقف تحت نافذه غرفتها أعزف لحنا غجريا ، وأحمل بالونا كبيرا أحمر اللون ، على شكل قلب ، مكتوب عليه عبارة (Marry Me) بالخطّ العريض .

تجمّع طلبة السّكن على النوافذ ينظرون إليّ منصتين إلى العزف ، بينما تعلقّت نظرات الفتيات بزجاج نافذتها ، ثم

تعـالت تنهيـداتهن بعـد أن تبيّن العـبارة المكتـوبة فوق البـالون ، وهدرت صرخاتهن يحرّضنها على القبول : say yes , say yes

لـم أتوقف عن العـزف حتى أنهت تلك المسرحـيّة هاتفـة : «Yes , yes , yes» .

«سفر، سفر
موت يترجمني إلى كل اللغات وينكسر
وترا، وتر»

معين بسيسو

(٤)

تقبض بيدها الصغيرة على جهاز التحكم عن بعد ، وتدور به بين القنوات الفضائية ، من دون أن تعي ضالّتها . قناة الجزيرة ، العربية ، الحوار . . . . تواصل استضافة معلّقين يمثلون مختلف الأطياف السياسية والفكرية ، بمن فيهم المعلقون الإسرائيليون ، حتى ليخيل اليّ أن هؤلاء الضيوف من محلّلين سياسيين ، وقادة عسكريّين متقاعدين ، باتوا يقيمون في الاستديو . غير أن ما يرفع ضغطي إلى ذروته هي تلك التصريحات العجيبة الصادرة عن زعماء ومسؤولين من قطبي ما يسمى بالممانعة والاعتدال على حدّ سواء .

قناة العربية تبنّت تصريحات كل من القيادة المصرية والفلسطينية ، اللتين سارعتا إلى إدانة حركة حماس ، وحملتهما مسؤولية الحرب على غزة . في المقابل ، فتحت قناة الجزيرة أبواب الفضاء على مصراعيها أمام قادة حماس وأسمعت أصواتهم للعالم . أما قناة الحوار اللندنية ، فأعلنت حالة الطوارئ ، كثّفت برامجها وتغطيتها للحرب ، فتحت خطوط الاتصال المباشر مع المشاهدين واستفتتهم فيما يجري ،

فتلوث الفضاء بعبارات الذم والقدح والشتائم التي طالت الجميع دون استثناء!

سخّنتُ طبقا من شوربة الدجاج وحملته إلى حيث هي في الفراش ، سحبت جهاز التحكم عن بعد من بين أصابعها عنوة وخفّضتُ من صوت التلفزيون إلى آخره قبل ان يفتك بي غيظي الذي بات يؤجّجه هذا الكم الهائل من المهاترات الإعلامية .

راقبتها وهي تنقّل الملعقة ما بين الطبق وفمها بيد مرتجفة ، فسارعت إلى وضع فوطة صغيرة فوق حجرها لتحول دون تلوّث الحرام الصوفي في حالة أن انسكب ما في الملعقة في الطريق ما بين الطّبق وفمها . حدثتها عن مجريات يومي كالمعتاد وسألتها : كيف كان يومك؟

أخبرتني : المعتاد ، إلا أن إلهام جاءت بصحبة ابنتها إيمان اليوم . ما شاء الله ، هذه الطفلة غاية في الذكاء ، تصور أنها تمكّنت من تركيب جميع قطع اللعبة الفسيفسائية التي عجزت أنا وأنت عن تركيبها ، وأكملتها وفق الصورة الأصلية تماما!

تنهّدت بحرقة وأضافت : كم تمنّيت لو أن الله رزقنا بطفلة مثلها .

أجبتها مشفقا : اهتمي الآن بصحتك ، واتركي الباقي على الله .

قالت بتوجس : أريد طفلا لا طفلة . ضحكت ثم تابعت : أخافتني الهام اليوم بوسوساتها . قالت إن إيمان تكبر بسرعة ،

وتخشى ألاّ تتمكن من ضبط رغباتها حين تكبر ، لأنها بدأت بتقليد زميلاتها في المدرسة في لباسهن وأفكارهن المتحررة التي لا تتناسب وتقاليدنا . . .

قاطعتها متذمّرا : هذه عقدة العرب هنا . لا ينظرون إلى المجتمعات الغربية إلا من بعدها الأخلاقي فقط ، ويتناسون ما وصلت اليه من الحريّة واحترام الفرد ، وما حققته من وسائل الشفافيّة والمساءلة ، والرفاه الاجتماعي والاقتصادي التي تجذب إليها المهاجرين من دولنا العربية الغارقة في الهيمنة والفساد .

– ولكن ، ألا ترى أن تخوفاتها في محلّها؟ أعني أننا في النهاية لا نرغب بإنجاب أطفال من أجل ان نفقدهم في هذا المحيط الشرس!

– المحيط الشرس الذي تتحدثين عنه هو نفسه المحيط الذي يمنح أطفالنا العلم ، وحرية التفكير والإبداع . ما الذي تعلمناه في مدارسنا وجامعاتنا غير حشو عقولنا بالتبعيّة والخوف ، وتلقيننا دروسا لا طائل من ورائها؟!

رفعتُ صينية الطعام عن حجرها ، وذهبت بها إلى المطبخ . عدت أحمل كوبا من الماء ، ناولتها حبّات الدواء وسرعان ما استسلمت لنوم عميق . أغلقت جهاز التلفزيون ، شددت الحرام الصوفي فوق كتفها ، مسّدت على رأسها ، أطفأت النور وتوجهت إلى غرفة المكتب منفردا بأوراقي ، وتابعت . . . .

«بعد أن اتفقنا على ارتكاب حماقتنا ، وجب علينا أولا تجاوز سلسلة من المواجهات العائلية ، والإجابة عن أسئلة صعبة

حول علاقتنا ، وتقديم تفسيرات جمّة حول متى وكيف وأين ولماذا ، والحصول على حفنة من صكوك الغفران الضروريّة لإتمام هذا الزواج!

ذهبت إلى أمي وسألتها : هل ما زلت ترغبين برؤيتي عريسا؟

فتحت فمها دهشة وهي تؤكد : طبعا!

أطرقتُ قليلا ، استجمعت قواي وأعلنت : وجدت عروسا . . . باركي لي .

شدت على يدي غير مصدّقة : عن جد؟ من هي؟

أخبرتها مترددا : تلك البنت التي جاءتنا بالهدايا الصيف الماضي .

بدت على أمي علامات التجهّم والارتياب ، ثم أفصحت : ولكنها كبيرة في العمر ، وقد لا تتمكن من الإنجاب ، ثم إنها عرجاء!

صفعتني كلماتها ، وددت لو أختفي من أمامها بطرفة عين ، لو أتلاشى بكبسة زر ، وقبل ان أتمكن من التلاشي سمعتها تأتيني بعرض مغر : طالما أنك قرّرت الزواج ، لم لا تسمع مني وتتركني أكلّف إحدي قريباتي في قبرص أو تركيا باختيار عروس صغيرة لك . . .

قلت حاسما أمري : أمي ، أعرف أنها كبيرة في العمر ، وأنها تعرج قليلا ، وأعرف أيضا أنني كبير في العمر ، وأنني لن أتزوج غيرها .

على الطرف الآخـــر ، اتصلت رهام بوالدها تلفـــونيـــا ، وشرحت له الأمر ، ثم طلبت إليه أن يحضر لأجل إتمام مراسيم الزواج ،لكنه فـاجـأها بالقـول : إن كـان لا بد من حـضـوري فسأصطحب زوجتي معي .

- إن كنت تنوي أن تصطحب أحـدا مـعك ، فلتكن أمي فقط .

- هذا شرطي!

- إذن ، لا تأت .

- ولم لا تأتيان أنتما إلى هنا؟

- لا نستطيع ، وليد ليس لدية إجازة وأنا لدي محاضرات في الجامعة .

أنهى حديثة مقررا : لست موافقا إذن .

قالت بتحد : سنتزوج دون رضاك .

أجابها والغضب ينزّ من كلماته : في هذه الحالة ، اعتبري نفسك ميتة!

بعد تلك المكاشفة التي بدت ضرورية ، انتهينا إلى أن نتم مراسيم الزواج سرا في التاسع من شهر آب ، على أن ننتظر إلى أن تنتهي من تسليم رسالة الماجستير في أيلول ،لنعلن زواجنا كـأمر واقع . أخي وائل كـان الشخص الوحـيد الذي أخبـرته بنيتي تلك .

اختـرنا أن نمضي بضـعـة أيام من العـسل في اسكتلندا . حصلنا على عرض من تلك العروض المتكاملة التي تقدّمها

الشركات السياحية ، وتشمل تذكرة الطائرة ، والإقامة ، والرحلات الداخلية إلى ما يسمى «بالأراضي المرتفعة» الاسكتلندية . استغرقتنا رحلة الطائرة ما يقارب الساعة والربع على متن واحدة من الطائرات المحلية الصغيرة . وصلنا إلى مطار «أدنبرة» ومن بعده إلى فندق صغير في وسط المدينة ، يحتوي على شقق فندقية صغيرة ، كل شقة تحمل اسما عوضا عن الرقم المتعارف عليه في الفنادق .

تميّزت كل شقة من تلك الشقق بطابع خاص . شقتنا حملت اسم «كاميرا» . بدا الاسم المعلّق على بابها ساذجا ، ومضحكا لنا في البداية ، ولكن ما إن دخلنا حتى واجهتنا كاميرا كبيرة من الطراز القديم تنتصب على ثلاث روافع خشبية طويلة ، كالتي اشتهرت في تصوير أفلام «شارلي شابلن» . تحسّست الكاميرا بفضول وسألتني : هل تعمل؟

دارت حولها تتحسس أجزاءها ، ثم تمترست خلفها قابضة على مقبض التقاط الصور المثبت إلى جانبها ، طالبة مني أن أقف دون حراك في مواجهة الكاميرا . صوّبت عينها عبر عدسة التصوير ، حرّكتها يمينا وشمالا قبل أن تثبتها على وضع معين ، وتضغط على الزرّ ملتقطة صورة لي ، لتكتشف أن تلك الكاميرا لم تكن أكثر من قطعة ديكور ميتة ، لكنها أحيت بوجودها ثيمة كادت تنقرض .

درنا نتفقد أرجاء الشّقة التي احتوت على صالة صغيرة من الطراز الهندي ، بأريكتها الطويلة المزدانة بمفارش وطنافس

ملونة ، ومحلاة بخيوط القصب والخرز والترتر ، وعلى غرفة نوم واسعة بسرير ملوكي فخم ، تعتليه ناموسية من الشيفون الأحمر ، ويقبع على طرف الصالة مطبخ صغير ، وحمّام . لم تكن الشّقة على قدر من الفخامة بقدر ما امتازت بذوق فريد وجذّاب .

تجوّلنا لساعات في أحياء المدينة القديمة والجديدة ، ثم ذهبنا لزيارة قلعة «أدنبرة» الشهيرة . استمعنا خلال الزيارة إلى شرح عن تاريخ القلعة ، وتفرّجنا على جواهر التاج الاسكتلندي الفريدة ، وأطللنا من على أسوارها الحجرية العتيقة على سهول المدينة الساحرة . في المساء حضرنا عرضا للفلوكلور الشعبي ، واستمعنا إلى موسيقى القرَب الشهيرة ، واستمتعنا بتناول وجبة «الهاجيز» التقليدية .

في اليوم التالي ، ذهبنا في رحلة إلى الأراضي المرتفعة High Lands . عبرنا في طريقنا بحيرة «لوخ نيس» الشهيرة بأسطورة التنين الغامض ، ثم استقللنا العبّارة وقطعنا مضيق «سليت» قبل الوصول إلى ميناء «ماليج» . تابعنا الرحلة إلى مدينة «فورت وليام» التاريخية ، ثم عدنا أدراجنا إلى الفندق منهكين . في اليوم الثالث ، ذهبنا لزيارة مدينة «غلاسكو» وتجولنا في أرجائها على متن حافلة سياحية من طبقتين . اتخذنا مقاعدنا في الطبقة الثانية المكشوفة ، واستمتعنا بالتقاط الصور لمعالم المدينة الأثرية الساحرة .

بعد رحلة العسل ، عادت هي إلى الجامعة ، وانشغلت أنا

بتجهيز بيت الزوجيّة ، متخليّا وإلى الأبد عن شقتي الصغيرة التي شهدت وحدتي وعزوبيتي وشقاواتي الكثيرة . حين انتهت من كتابة رسالة الماجستير وسلّمتها إلى إدارة الكليّة ، ذهبتُ بسيارتي لإحضارها من الجامعة وكانت قد حزمت حقائبها ولملمت حاجياتها بانتظار وصولي . وضعنا الحقائب في السيارة بمساعدة لورا ، التي سألتُها : ماذا عنك؟ هل ستعودين إلى أمريكا؟

هزّت رأسها نافية ، وقالت : ليس بعد . سأبقى ، حصلت على عقد عمل لستة أشهر لدى جمعية تعنى بالأطفال من ذوي الإعاقات الجسدية ، وبعدها أقرّر خطوتي التالية ، التي أرجو أن تكون إلى فلسطين .

استفسرت : ما سر اهتمامك بفلسطين؟

قالت وكأنها كانت بانتظار السؤال : الجدار . . . نعم الجدار العازل! بالصدفة المحضة شاهدت فيلما وثائقيا عن الجدار العازل الذي شيّدته إسرائيل ، ورأيت آثاره المدمرة على المزارعين والسكان في فلسطين ، فلم أصدّق أن مثل هذا الجدار يمكن أن يوجد ونحن في الألفيّة الثالثة! كنت أظن أن مثل هذه السياسات انتهت مع تحطم جدار برلين ، وانتهاء الحكم العنصري في جنوب أفريقيا .

تمنيت لها النجاح في عملها الجديد ، وأخذت موقعي خلف مقود السيارة ، وقبل أن ننطلق باتجاه بيتنا زوّدتها رهام بعنوان منزلنا ، ثم عانقتها هامسة : أنت أجمل حدث مرّ بي

هذه السنة!

ابتسمت لورا وبادلتني نظرة متشكّكة ، تمنّت لنا السعادة ، أشارت بيدها مودّعة ، ثم وقفت تراقبنا إلى أن اختفت السيارة عن أنظارها .

حرصنا على أن يكون بيتنا ذا طابع تراثيّ وعصري في آن . اختـرنا قطع أثاث بسـيطة وعـصـرية وزيّنا أرجـاءه بالتـحف والمطرزات الفلكلورية . انتقينا بؤر الإضاءة بعناية لإضفاء قليل من الشاعـرّية على أجوائه . بيتنا ظل خاويا علينا ، فـما عـدا أخي وائل الذي لـم ينقطع عن زيارتنا بصحبـة زوجتـه وأطفاله الثـلاثة ، لم تكن بنا حاجـة إلى غرفـة الضـيوف . اعتـدنا أن نمضي مـعظم أوقـاتنا في المطبخ أو غـرفـة النوم ، أو في غـرفـة المكتب الصغيرة خلف أجهزة الكمبيوتر .

أنفـرد بجـهـازي لبـعض الوقت للتـحـضـيـر لعـملي في الترجمة ، وكانت تعلم أن طبيعة عملي تتطلب السرّية التامّة حفاظا على مصالح العميل ، وحقه في عدم الإتيان على ذكر اسمه أو بياناته الشخصية ، أو طبيعة المهمة المكلّف بها حتى مع أقرب المقرّبين ، مما جعل أحاديثي معها تقتصر على حياتنا الخاصة ومشاريعنا القادمة . أما هي ، فلا تكاد تفارق جهازها . تمضي معظم يومها بصحبته . تقرأ الصحف ، تجيب على رسائل البريد الالكتروني ، تجري محادثات مع شقيقتيها وصديقاتها ، وتواصل إعداد الأبحاث والدراسات التي يتمّ تكليفها بها من قبل مركز الدراسات الذي كانت تعمل به في عمان .

بعد أن أنهت دراستها ، عرض عليها مدير المركز أن تعود إلى العمل براتب أكبر . شرحت له ظروفها الجديدة واعتذرت عن قبول عرضه ، فما كان منه إلا أن عدّل عرضه بحيث يمكّنها من إجراء الأبحاث والدراسات حيث هي . بدا لها العرض مغريا فقبلته على الفور . اتفقا على خطّة العمل التي تقضي بأن يزوّدها المركز بموضوع البحث ، أهدافه ، وأسئلته عبر الإنترنت ، فيما تقوم هي بوضع منهجية البحث وهيكليته وفصوله ، وبعد الوصول إلى توافق تام ، تباشر في كتابة فصول البحث وتزويد المركز بها الواحد تلو الآخر . تتلقى ملاحظاته ، وتعدّل ما ينبغي تعديله حتى يكتمل بنيانه ، فيحوّل إلى حسابها في البنك المبلغ المتفّق عليه .

في إحدى الأمسيات ، وبينما كنت خلف جهاز الكمبيوتر أجهّز لعمل اليوم التالي ، جلست إلى جواري وهمست : كلّفني المركز بإعداد دراسة عن الجمعيات العربية في لندن ودورها في الحفاظ على الهوية والثقافة العربيتين ، ما رأيك؟ .

أجبتها دون أن أحيد بنظري عن الشاشة : بماذا؟

– بالموضوع!

– موضوع غبيّ ، يكرّس عقليّة الإنسان العربيّ المنغلق على ذاته . . .

قاطعتني : لماذا؟

تركت الشاشة والجهاز واستدرت نحوها موضحا : حبيبي ، الأمر لا يحتاج إلى تعليل ، ما المقصود ب «دور

الجمعيات العربية بالحفاظ على الهوية والثقافة العربيتين؟»
الموضوع لا يحتاج إلى بحث أو دراسة لأن نتائجه واضحة أمامك مسبقا . ما هذه الجمعيات إلا نموذج مصغّر عن حال الجاليات العربية في الغرب كله وليس هنا فقط ، والتي تغلب عليها ثلاث سمات هي : التقوقع على ذاتها وعدم الاندماج مع المجتمع المضيف . كراهية الذّات وانعدام العمل الجماعي ، بمعنى أن العرب لا يحبذون التعامل مع العرب . وأخيرا ، الكذب على الذات ، تسمعينهم يئنون بالحنين إلى بلدانهم ، ويتغنون بحب أوطانهم ، بينما هم يتشبثون بالحياة في الغرب بأظافرهم وأسنانهم ، ويكفي مثلا ، أنهم يعودون بعد زياراتهم القصيرة إلى بلدانهم وهو يعلنون التوبة والبراءة من تلك البلدان . وبالنتيجة ، فهم يتمسكون بما يطلقون عليه «حماية الثقافة العربية» كمبرر للتقوقع على الذات ، وعدم التفاعل مع المجتمعات المضيفة .

أطرقت قليلا ، ثم سألت : يعني؟

– يعني ، إن كان لا بدّ من البحث ، فابحثي في موضوع يستحق البحث فعلا .

جلست على الفور خلف جهازها ، وكتبت رسالة إلى المركز :
أعتقد أن بحث موضوع مثل دور الجمعيات العربية في لندن في الحفاظ على الهوية والثقافة العربيتين مهم ، إلا أنه من الأهم أن نبحث مدى تأثيرها في صنع السياسات البريطانية ، خاصة وأن ما تمرّ به منطقتنا في الوقت الراهن ، بحاجة إلى تكريس الجهود

باتجاه رصد الأدوات التي من شأنها التأثير على صانعي السياسات الغربية فيما يتعلق بقضايانا المحورية .

لذا ، أقترح أن يتمّ تغيير العنوان إلى «الجمعيات العربية في لندن وتأثيرها في صنع السياسات البريطانية الخارجيّة» .

بانتظار موافقتكم .

جاءتها الموافقة في اليوم التالي ، وسرعان ما انهمكت في العمل ، ودخلت في رتابة الحياة العادية . أجرت مسحا شاملا للجمعيات العربية في لندن ، أهدافها ، وأنشطتها . حدّدت أسماء الأعضاء الفاعلين من أجل إجراء لقاءات معهم . وضعت قائمة بالمراجع والكتب التي يمكنها الرجوع إليها في المكتبة .

ذات صباح ، وبينما هي منشغلة على بحثها على جهاز الكمبيوتر ، رنّ جرس الباب ، ثم تبعه صوت طرقات على الباب بإيقاعات تميّز من خلالها هوية الطارق . فتحت الباب ، فدخلت إلهام بقامتها الممشوقة وخطواتها الواسعة ، ناشرة عطرها القوي في الأرجاء . قالت مازحة : بعدك مسمّرة وراء ذاك الجهاز الملعون؟ شنو بيه؟ سحر؟ ما تعرفين إنه أكو ورا هالباب حياة حقيقية؟!

أجابتها محتجّة : أنتي اللي نسيتي أنه ذاك الجهاز الملعون هو نافذتي للعالم ، ومصدر رزقي ، ليش بتغاري منه؟

توجهت على الفور إلى المطبخ لتعد لها الشاي بالنعناع كما تفضله . تبعتها إلهام قائلة : عندي مشروع ، يلّلا نشرب الشاي في المقهى وندردش شوي .

لا تأتي إلهام لزيارتها إلا وفي جعبتها مشروع ما ، فهي تعدّ كل ما تقوم به من قبيل المشاريع الصغيرة ، فشراء الحاجيات مشروع ، تعزيل المنزل وتنظيف زجاج النوافذ مشروع ، الذهاب إلى مكتب البريد لقبض المعاش الأسبوعي مشروع ، تناول وجبة في أحد محلات الوجبات السريعة مشروع ، اصطحاب إيمان إلى إحدى الحدائق الصغيرة حيث تنتشر ألعاب الأطفال من مراجيح وسحاسيل مشروع ، والذهاب إلى المقهى المجاور لشرب القهوة والدردشة مشروع .

أجابتها معترضة : ولم لا ندردش هنا في البيت؟

أمسكت إلهام برقبتها وقالت متأففة : أشعر بالاختناق .

سألتها رهام بوجل : ماذا حصل؟ ثم ارتدت سترتها ورافقتها إلى حيث مقهى «كوستا» ، الذي يقبع في الشارع المجاور ، مشيا على الأقدام .

أحضرت النادلة الشاي ، أفرغت إلهام كثيراً من المغلفات الورقية التي تحتوي على السكر في كوبها ، حركته ورشفت رشفة كبيرة غير آبهة بحرارته .

عندما طال صمتها . سألتها رهام بنفاد صبر : ما الأمر؟

لمعت عيناها بدمعة على وشك السقوط وقالت : قد يقطعون عنا المعونة .

- لماذا؟

- ضبطوا لطفي وهو يعمل في أحد مكاتب تغليف الطرود .

- وما المانع في أن يعمل لطفي؟
- أنت لا تعرفين . . .
- عرّفيني إذن

وضعت فنجان الشاي من يدها على الطاولة ، تناولت حقيبتها وأخرجت ورقة ، فردت طياتها وقالت : اقرئي .

مسحت الورقة بقراءة سريعة ، ففهمت أنها مجرّد تقرير طبي يفيد بأن لطفي يعاني من إصابة في ذراعه اليمنى ناتجة عن طلق ناري .

بعد أن أنهت قراءة التقرير ، سألتها : ما قصة هذا التقرير ، وما قصة تلك الإصابة؟

لم تستطع إلهام كبح دموعها ، هطلت بغزارة فوق خديها ، فسارعت إلى مناولتها منديلا ورقيا ، راجية منها أن تهدأ وتمسح دموعها حتى تفهم الحكاية .

أوضحت إلهام : لا أدري كيف لم نتحوط لهذا التقرير ، ولكن ذلك كان منذ بداية حضورنا إلى هنا قبل ثلاث سنوات . تعرفين الدوخة التي كنا بها عندما خرجنا من العراق ، لولا هذا التقرير لما استطعنا المغادرة ، كان لطفي قد تعرض لحادثة إطلاق نار في العراق ، اخترقت رصاصة طائشة ذراعه ، لكنها لم تكن إصابة بليغة لدرجة الإعاقة . حين تقدمنا بطلب اللّجوء باعتبارنا من ضمن الحالات الصعبة ، قدمنا التقرير وادعينا أن الإصابة سببت له مضاعفات وأفقدته القدرة على تحريك ذراعه ، ولحسن الحظ أن دائرة الهجرة

صدقتنا ولم تتحقق حينها من صدق ادعاءاتنا . فور قدومنا وضعونا في مبنى مخصص لطالبي اللّجوء وصرفوا لنا معونة أسبوعية .

سارعت رهام إلى الاستنتاج : والآن ، حين ضبطوا لطفي أثناء العمل ، اكتشفوا أن موضوع الإعاقة محض كذبة ، أليس كذلك؟

هزّت إلهام رأسها وأضافت : خاصة أنه يعمل بشكل غير قانوني ، يعني دون علم مأمور الضرائب ، وضمن اتفاق مع رب العمل أن يعطيه أجره دون تسجيله في سجل الحسابات الرسمية ، أو ما يطلقون عليه هنا «cash in hand» .

– وماذا ستفعلون الآن؟

– ذهب لطفي إلى مكتب دائرة الهجرة منذ الصباح ، وأرجو الله ان يتمكن من الوصول إلى تسوية .

نظرت إلى رهام وقالت : أعرف ما تفكرين به ، كان ينبغي ألا نخالف القانون ، ولكن المعونة التي يدفعونها قليلة جدا ولا تكفي . . . قبل أن ننتقل للإقامة في منزلنا الحالي ، كنا نقيم ثلاثتنا في غرفة صغيرة في مبنى كبير شبيه بالملجأ ، مخصص لاستضافة طالبي اللجوء من مختلف بقاع العالم . لم نكن ملزمين بتسديد فواتير الكهرباء والغاز والمياه ، أما الآن فمبلغ المعونة الذي يلقون به لنا كل أسبوع لا يكاد يغطي تلك الفواتير .

همست رهام بألم : صدقيني ، أتفهّم وضعك ، ولكن كما

تعرفين ، بالرغم من خدمات هذه الحكومة الكثيرة ، إلا أنها تتحول إلى غول شرس عندما يتعلق الأمر بانتهاك قوانينها .

ردت إلهام بعصبية : لا أظن أن بإمكانك تفهّم وضعي . أنت أتيت إلى هنا برغبتك واختيارك ، باستطاعتك العودة إلى عمان متى شئت ، بينما أتيت أنا إلى هنا هربا ورعبا . . . أليس هناك فرق بين من جاء للدراسة أو العمل وبين من هرب حفاظا على حياته وحياة أسرته؟

شردت بعينيها إلى البعيد وأكملت :نحن نموت ميتة طويلة ليس لها نهاية ، منذ الاحتلال الامريكي للعراق وحتى اليوم ونحن نجهل أي مصير ينتظرنا . بربك ، ماذا سيكون موقفك لو عشت هول ما جرى في العراق ، أو بؤس الإقامة لشهور طويلة في المباني المخصصة لطالبي اللجوء هنا؟

مخّطت أنفها بالمحرمة الورقية تمتمت : أنت لا تعرفين مرارة أن تحملي طفلتك بمعطفها وحقيبتها المدرسية فوق كتفيك في الصباحات المثلجة ،لتمشي بها في عزّ البرد حتى باب مدرستها ميلين ذهابا ومثلهما إيابا ، لا تعرفين معنى الخوف واليأس وجحيم الانتظار . . .

لم تقو رهام على النطق ، اكتفت بالشدّ على يدها مؤازرة ولاذت بالصمت .

بعد أيام عادت إلهام لتطرق الباب بايقاعاتها المميزة ، أخبرتها أن زوجها توصل إلى تسوية مع دائرة الهجرة ، وأنهم سمحوا له بالعمل عملا جزئيا لزيادة دخله دون أن يقطعوا عنه

المعونة الأسبوعية .

أجابتها رهام على الفور : مبروك ، ما هو مشروعك القادم؟ وغرقتا في الضحك .

في منتصف أيلول ، حلّ علينا شهر رمضان ، فافتقدت أمي . لا أدري لم ترتبط مائدة الإفطار في مخيلتي بصورة أمي على الدوام . وكأن الإفطار أمّ ، أو أن الأم هي مائدة الإفطار ، لا يحلو الإفطار إلا بحضورها ، بحسّها ونفسها ، بحرصها على أن ينال كل منا حصة كبيرة مما أعدّت يداها من أطايب . ذاك الرمضان ، اقتصرت مائدة الإفطار علينا نحن الاثنين في غالب الأيام ، فيما عدا عزومتي لوائل وأسرته ، وعزومته لنا التي انتهزتها فرصة لأشكو إليه عتبي على أمي وأبي ومقاطعتهما لنا .

همس وائل في أذني : بادرا أنتما إلى زيارتهما .

تساءلت : ماذا لو رفضا استقبالنا؟

أكّد لي : غير معقول . ستظّل ابنهما مهما حصل .

وائل يكبرني بعام واحد . أبيض البشرة ونحيل رغم ولعه بالطعام . يتميّز بأنف شديد الحساسية منذ صغره . في طفولته ، كان يعرف بخياشيمه ما أعدّته أمي لطعام الغداء من على باب العمارة . مع الوقت تطورت لديه حاسة التذوق أيضا ، حيث واظب على الوقوف إلى جوار أمي في المطبخ وهي تعدّ الطعام ، متابعا بشغف تحوّل المواد الأوليّة من لحوم وخضار وتوابل إلى خلطة سحريّة لذيذة الطعم والنكهة . صار ينتهز فرصة خروج

أمي من البيت لقضاء أمر ما ، لينفرد بالقوارير الصغيرة المتشابهة الأحجام ، الممتلئة بأنواع التوابل والبهارات والأعشاب والمنكّهات ، والتي تحتفظ بها أمي فوق رفّ خاص في خزانة المطبخ . ينزلها عن الرّف ، يشتمّها بأنفه الدقيق مستكشفا روائحها ، يتحسّسها بأصابعه الطويلة النحيلة متفحصا ملمسها ونعومتها ، يلحسها بطرف لسانه متذوقا طعمها ، حتى صار يميّزها وهو مغمض العينين ، وغدا بمقدوره التعرف على مكونات الطعام من توابل وبهارات بمجرد تذوقه .

ولعه الكبير في الطعام ، دفعه لأن يلتحق بمدرسة لتعلّم الطبخ منذ وصوله إلى هنا . عمل بعدها طاهيا في مجمّع ضخم خاص بتنظيم المؤتمرات الكبيرة والدورات التدريبية ، يؤمّه المنتسبون إلى الدورات التي تعقدها الشركات الكبرى في مختلف المجالات ، وتفضّله العديد من الجهات الرسمية لعقد مؤتمراتها الدولية . يضمّ أجنحة فندقية لاستضافة المشاركين ، قاعات كثيرة للاجتماعات ، بالإضافة إلى صالات لتناول الطعام .

هناك التقى بسوسن بعد سنوات عدة من انقطاع أخبارها عنه في مصادفة أعجب من الخيال . سوسن الفتاة التي خطبها وائل في بداية شبابه وحالت ظروف الحرب دون زواجهما ، حيث هربت مع أسرتها إلى عمّان ، بينما بقي وائل حبيس وثيقة السفر المصرية وانقطعت بينهما سبل الاتصال . كانت تعمل موظفة في البنك العربي حينها ، وصارت موظفة في

البنك البريطاني في عمان ، ومسؤولة في قسم الاعتمادات المستنديّة . أرسلها البنك في دورة تدريبية إلى لندن لمدة أسبوع . ساقتها أقدار خفيّة لأن تلتقي بوائل بعد كل هذه السنين وكانت ما زالت عزباء . ربما حدست بأن القدر قد يجمع بينهما في صدفة مماثلة لتلك التي طالما سمعت عنها في حكايا الحب الأسطورية . هذه المرة ، لم يتركها وائل تضيع من بين يديه . ذهب إلى عمان لخطبتها ، تزوجا وأنجبا ثلاثة صبيان خلال خمس سنوات ، في تحد سافر لسياسات تنظيم الأسرة وتباعد الأحمال .

وائل لا يشبهني في شيء . لم يكن يحب المدرسة ، رسب في الثالث الثانوي فلحقت به . تشاركنا بعد ذلك صفا واحدا في ثانوية عبد الله السالم ، وتبادلنا أوراق الإجابة على الامتحان بعيدا عن أعين المراقبين ، سلّمته ورقة الإجابة الخاصة بي ثم أخذت ورقته وأكملتها عوضا عنه . أنهينا تلك السنة بنجاح ، إلا أنني لم أتمكن من مساعدته على النجاح في الثانوية العامة فرسب هو ونجحت أنا . أعاد السنة الدراسية ثانية ونجح دون مساعدتي .

في المدرسة ، فضّل وائل أن يصاحب شلّة من طلبة مدرستنا ، وفضّلت أنا أن أصادق طلاّب المدرسة الإنجليزية ، أو طالباتها على وجه الخصوص . نتسكع في الشوارع ، نرتاد المطاعم من «هارديز» إلى «زهرة المدائن» . أذهب بمعيتهم إلى النادي البحري ، اشتركت في مباريات السباحة وحزت على

ميدالية ذهبية وأخرى برونزية . من ثم ، صرنا نذهب إلى نادي القادسية الرياضي للعب كرة القدم . في هارديز ، تعرّفت على سيدة كويتية مطلقّة وفي السابعة والعشرين من العمر . لم يدم زواجها برجل يكبرها بخمسة عشر عاما أكثر من سنتين . طلّقها تاركا لها مؤخر صداق ضخما . وقع اختيارها عليّ من دون سائر شباب شلّتي لتخصّني بكل ما وهبها الله من فتنة . سمراء كقهوة الصباح ، عينان كحيلتان وشعر طويل حالك ينساب بنعومة فوق ظهرها .

اصطحبتني يوما في سيارتها «الكاميرو» الحمراء إلى شقّتها الخاصة بعيدا عن أعين الفضوليين وأفقدتني عذريتي . فجأة ، وجدتني وحيدا في مواجهة شفتين أحرّ من الجمر ، نهدين كقطعتين من الشوكولاته الطّرية ، خصر نحيل أكاد أطوقه بأصابعي ، فخذين بضّتين يتوسطهما منحدر الليل الباهر ، يرجوني لأن ألج محرابه لأفجّر فيه ينابيعي ، فكان له ما أراد . ويبدو أنني لم أكن الرجل الوحيد الذي يتردد على تلك الشقّة ، كان هناك من سبقني إليها ، وبالتأكيد جاء من تبعني إليها بعد سفري إلى تركيا .

في صبيحة عيد الفطر ، ذهبنا إلى منزل والدي . طرقنا الباب وانتظرنا متوجسين . فتحت أمي الباب ، وما إن وقع بصرها علينا حتى جفلت .

قلت لها : بإمكانك منعي من الدخول .

لم تجب . نظرت إلينا نظرة غامضة ثم فتحت الباب

مفسحة لنا الطريق إلى داخل المنزل . ألقينا عبارات التهنئة بالعيد ولم نسمع منها جوابا . سمعتُ صوت أبي يناديها من الداخل فذهبت إليه . بعد قليل خرجا إلينا ، وكنت على وشك أن أمسك بيد رهام وأخرج من المنزل ، لكن الابتسامة الرقيقة التي زيّنت وجه أبي استبقتني .

قال بصوت هادئ : كل سنة وانتو سالمين ، فسارعتُ إلى السلام عليه وتقبيله . سلّمت عليه رهام بدورها . ثم دعانا إلى الجلوس قائلا : اللي راح راح ، نحن أولاد اليوم .

لا يكفّ هذا الرجل عن إدهاشي . حساباته دائما في محلّها . أراد أن ينهي خلافا قد يدوم طويلا قبل أن يرحل عن هذه الحياة . أراد أن يضمّ إليه أسرته ، ويعيد إليها تماسكها تحسّبا من قدر قد يأتي على غفلة منه ومنا ولا يمنحنا فرصة للمصالحة . أراد أن يعيدني إلى حضن أمي وهو العالم بمقدار شوقها وافتقادها لي ، بالرغم من عنادها وكبريائها المفرطة . أرادني أن أكون جاهزا ، ومستعدا للوقوف إلى جوارها في حضرة موت لا يستثني أحدا .

ساد صمت مباغت ، كدنا نسمع أثناءه دقات قلوبنا التي لم تهدأ عن الخفقان السريع منذ قرّرنا اتخاذ هذه الخطوة . ذهبت أمي إلى المطبخ وعادت بأكواب العصير ، وضعتها على الطاولة الصغيرة أمامنا بصمت وجلست دون أن تنطق بكلمة ، ولا حتى تفضلا . ألقت رهام نظرة باتجاهي قبل ان تنتقل لتجلس إلى جوار أمي . تناولت بلطف يد أمي وأبقتها بين

كفّيها سائلة بصوت خافت ومرتجف : خالتي أم عماد ، هل رأيت مني ما هو معيب؟

هزّت أمي رأسها نفيا .

تابعت بصوت مرتجف : تعلمين أن لا أهل لي في هذا البلد ، أنتم أسرتي الوحيدة وأتمنى أن تقبلوني بينكم على الحلوة والمرّة . تؤلمني كثيرا هذه القطيعة ، ولست بالتي تقبل ابتعاد أم عن ابنها ، أنت أمي أيضا ، وأتمنى أن تعتبريني بمثابة ابنتك البعيدة عنك في الكويت .

يبدو أن أمي كانت بانتظار مثل هذه الكلمات حتى تنهار خطوط دفاعها . بكت بغزارة ، قامت واحتضنتني بشدة ، ثم احتضنت رهام معلنة عن صفح لا رجعة فيه .

في الطريق إلى المنزل سألتها : من أين لك كل هذه الحكمة؟

ضحكت وأجابت : من جدتي! جدتي لأبي هي التي زودتني بالوصفة التي أكسب بها ودّ حماتي .

- متى؟

- عندما اتصلت بها لأشكو إليها موقف أبي من زواجنا . سألتني مستنكرة : عزا ، بدّك تتجوزي إنجليزي يا ستي؟! أجبتها : لا يا ستي مش إنجليزي ، فلسطيني مشرّد من أهل ٤٨ بس معه جنسية إنجليزية . عندها ، باركت لي وأوصتني أن أكون ذكية وفصيحة . وحين سألتها كيف أكون فصيحة ، قالت : ديري بالك على حماتك ، صاحبيها وتعلمي منها .

جدتي تعلم بفطرتها الأنثوية أن سرّ السعادة يكمن في قلب الأم الذي يملك مفاتيح الرضا ، والغضب ، فإما أن تجمع أبناءها حولها وإما أن تفرّقهم . جدتي هذه حكاية بحد ذاتها ، بل ملحمة . . . ما زالت تحتفظ بفكر يقظ ، وذاكرة حية ، وحكمة يفتقدها معظم الرجال رغم أنها تجاوزت الخامسة والثمانين . حين أخبرتها أنني ذاهبة للدراسة في لندن قالت محتجّة : رايحة تقري عند اللّي قتلوا أخوي؟ شو رح يعلموكي الإنجليز غير الخبث والغدر؟ بالمناسبة ، أخ جدتي كان أحد أبطال ثورة ١٩٣٦ في فلسطين ، قتله الإنجليز أيام الانتداب البريطاني . داعبتها قائلة : بتعلّم منهم الخبث والغدر حتى أحاربهم بهما . هزّت رأسها مشكّكة : ما رح تقدري عليهم . قلت : بحاول .

منذ تلك الزيارة توطدت علاقتنا بأمي وأبي ، ولم تنقطع الزيارات ما بيننا . أمي تهاتفنا لتطمئن علينا إن طالت غيبتنا . وأبي الذي كثيرا ما كانت تخذله الذاكرة ، لم يستطع تذكّر اسمها ، فأطلق عليها اسما آخر هو «ألمظ» . ولا أدري ما وجه الشبه بينها وبين من كانت تدعى ألمظ على زمنه . إلا أن الاسم راقها ، وكانت كلما تحدّثت معه على الهاتف تقول : كيفك عمو؟ أنا ألمظ . . . أغنيلك؟ .

هي والبرد لا يلتقيان . دخل البرد في تشرين الثاني وتغيّر معه مزاجها كليّة ، لم تحتمل رؤية العتمة وهي تنشر سوادها منذ الثالثة مساء ، ولا الريح التي لا تكفّ عن الصفير مبعثرة أوراق الشجر الكثيفة في كل الاتجاهات ، ولا رطوبة الهواء

الثقيلة . اعتكفت في المنزل محتمية بدفئة ، وتمثّل لها الخروج منه على شكل عملية انتحارية تتطلب كل ما في الكون من شجاعة وجرأة . وكلما طلبت منها مرافقتي إلى مكان ما ، قالت : أنا في سباتي الشتوي ، كلّمني في آذار .

استحوذت عليها الكآبة ، وجنّ جنونها حين أفرزت الرطوبة خيوطا من العفن الأخضر ملطخة طلاء الجدران الأبيض . تسلّحت بالفرشاة والصابون ودخلت في حرب معها ، تتبعت أوكارها في الزوايا والحواف ماحقة آثارها .

سألتني بحنق : هل هذا العفن خاص ببيتنا؟

ضحكت ملاطفا : لا حبيبي . تعرفين ان البيوت هنا معظمها قديم ، وكلها تعاني من هذه المشكلة ؛ لأن الرطوبة جزء من هوية هذا المكان ، ولا فكاك منها . . . عليك فقط التعايش معها .

في اليوم التالي ، أحضرت لها مستحضرا خاصا للقضاء على العفن . وضعته في حجرها قائلا : بخّي بعضا منه على مكان العفونة ، أتركيه لدقيقتين ثم امسحيه ، ولن يعود ثانية .

على أبواب عيد الميلاد ، اتصلت لوار هاتفيا وقالت : رهام ، اصنعي لي «فتّة» أنا قادمة لقضاء عيد الميلاد برفقتك .

حضرت تحمل باقة من الزهور وعلبة من الشوكولاته . قالت إنها تحنّ إلى قضاء العيد في جوّ أسريّ حميم ودافئ ، وبما أنها وحيدة هنا ، وجميع أصدقائها غرباء أيضا ، فلم تجد أفضل من أجواء بيتنا لقضاء عشية العيد . على العشاء ، أخبرتنا أنها

تعمل مع الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة على التحضير لمسرحية سوف يقوم الأولاد بعرضها على المسرح في نيسان . وأصرّت على دعوتنا لحضور المسرحية بعد انتهاء التحضيرات .

تلك الليلة ، وإرضاءً لتوسلات «لورا» التي كنت أنا وراءها ، وافقت على الخروج . ذهبنا إلى ناد ليلي ، ورقصنا حتى الصباح .

في نيسان ، ذهبنا لمشاهدة المسرحية . اتخذنا مقاعدنا وسط جمهور حاشد من أسر الأولاد وزملائهم في الجمعية . اختار الأولاد تقديم قصة «سنو وايت والأقزام السبعة» . جسّدت شخصية «سنو وايت» فتاة عمياء لا تتجاوز الثالثة عشرة من العمر ، تتمتع ببياض ناصع يضاهي بياض بطلة الحكاية . ورغم عماها إلا أنها استطاعت تجسيد الشخصية بموهبة تحسد عليها . أما الأقزام السبعة ، فجسّد أدوارهم أطفال صغار لا يتجاوز عمر أيهم السبع سنوات ، منهم من فقد سمعه ، أو ذراعه أو ساقه .

صفّق الجمهور طويلا لبراعة أداء الممثلين الصغار ، وصفق بحرارة أكبر للمعلمة لورا التي حيّت الجمهور مرات عدة قبل أن تتمكن من الهبوط عن خشبة المسرح . بعد أن أثنت على أداء فريق العمل وشكرته ، توجهنا ثلاثتنا إلى الحي الصيني لتناول وجبة في مطعم صيني قبل أن نفترق . وفيما نحن نلتهم رقائق الخبز المغطاة بالصلصة ولحم البطّ ، أعلنت لورا وهي تكاد تطير من الفرح : أخيرا سأتمكن من الذهاب إلى فلسطين!

سألتها رهام وهي لا تكاد تصدق : تمزحين؟ كيف؟ متى؟

عدّلت لورا من جلستها وشرحت : لست أمزح . وجدت على صفحة الإنترنت الخاصة بمؤسسة «غصن الزيتون» ، وهي مؤسسة أهلية بريطانية فلسطينية مشتركة ، إعلانا عن وظيفة شاغرة ، ضمن التخصص الذي درسته في الماجستير . تقدمت بطلبي وحظيت بالموافقة .

لكزتها رهام من كتفها مداعبة : يا لك من شرّيرة! ومتى السفر؟

قالت : في حزيران .

سألتُها بدوري : وما هي طبيعة العمل؟

أجابت : باختصار ، سنعمل مع مجموعة مختارة من طلبة المدارس في القرى المحاذية للجدار الفاصل ، الإسرائيلية منها والفلسطينية . سنعطي الطلاب كاميرات من تلك التي تستعمل لمرة واحدة ، ونطلب منهم تصوير مشاهد لحياتهم الخاصة في البيت ، طريقهم إلى المدرسة ، أماكن اللّعب ومدى تأثير الجدار على حياة كل منهم .

علقّت رهام : فكرة جميلة! ولكن ما الهدف من ورائها؟

أجابت : الهدف في النهاية هو جمع الفريقين في مخيّم خاص ، لعرض الصور وإجراء نقاش فيما بينهما لأجل تعريف كل طرف بمخاوف ومشاكل الطرف الآخر ، وبذلك نعمل على الجمع بينهما وإعطاء فرصة لعملية السلام من خلال الأجيال القادمة . . .

نفخت رهام الهواء وقالت مقاطعة : هل تعتقدين أن

الأطفال في الجانب الإسرائيلي غافلون عن معاناة أطفال الضفة وما يرتبه الجدار من عذاب بالنسبة لهم؟

أجابت لورا : أعرف ، ولكن علينا أن نفعل شيئا لتجفيف الضغائن ومنع انتقالها إلى الأجيال الصغيرة .

اختصرت رهام الحديث قائلة : لوار يا عزيزتي ، أقدّر كل ما تقومين به ، ولكن ستكتشفين بنفسك ألاّ سلام مع مثل هذا الكيان الهمجي!

أنهينا عشاءنا ، لملمنا حاجاتنا ، ووقفنا عند الباب مودعين ، فقالت رهام منذرة : إياك أن تسافري دون أن تودعيني .

عندما جاءتنا مودّعة ، بكت رهام بحرقة ، فسألتها بغيظ : ما سرّ تعلّقك بهذه الفتاة؟ إنها في مثل نصف عمرك! هل ترين بها أختك البعيدة ، أم ابنتك التي لم ترزقي بها؟

أجابت وهي تمسح دموعها : لا هذا ولا ذاك ، أحسّ أنني فقدت جزءاً مني ، لورا تشبهني في عنادها وتمسّكها بحلمها ، تذكّرني بي عندما كنت في مثل عمرها ، لوار هي الصورة التي أحنّ من خلالها إلى نفسي ، وإن كنا من عرقين لا يتقاسمان مصيرا مشتركا!

بعد سفرها بأسبوعين تقريبا وصلتها رسالة عبر البريد الالكتروني من لورا تقول فيها : «وصلت إلى فلسطين . وأستقر حاليا في قرية (نعلين) المحاذية للجدار العازل غرب مدينة رام الله . الناس هنا طيبون بسطاء ومضيافون ، ولهم خبرة كبيرة في

التعامل مع نشطاء السلام من أمثالي ، القادمين من مختلف بقاع العالم ، تعرفت على مجموعات منهم من السويد وإيطاليا وإسبانيا . سنبدأ مشروعنا قريبا ، استطعنا التحدث مع مدرسة ابتدائية من الجانب الفلسطيني وأخرى من الجانب الإسرائيلي والحصول على موافقتهما على فكرة المشروع . سأطلعك على التطوارت لاحقا . سلامي إلى وليد» .

ردّت عليها : «انتبهي لنفسك جيدا ، أغبطك بحق وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أكون هناك ، بانتظار التفاصيل والتطورات . على الجانب الآخر ، أعمل الآن على إعداد دراسة عن الجمعيات الأهلية العربية في لندن ، وتأثيرها على صنع السياسات الخارجية للحكومة البريطانية .»

رنّ جرس الباب تلتها طرقات إلهام المميّزة . فتحت الباب ، فباغتتها إلهام بالهتاف : Happy birthday to you احتضنتها بشده ثم ناولتها حقيبة كرتونية ملوّنه . همست رهام : هسّ ، أفزعت الشارع كلّه .

ألقت نظرة إلى داخل الحقيبة وأضافت : شكرا لك ، بس ، من قال لك بأن اليوم هو عيد ميلادي؟

– اليوم هو ٧ تموز ، ويصادف عيد ميلادك .

– كيف عرفت؟

– ماكو شي يخفى عليّ بها الحي . ضحكت وأكملت : تاريخ ميلادك كان مشروع كلّش بسيط . بصراحة ، سألت زوجك .

ردّت مازحة : آه ، بتحكي مع زوجي من وراي؟

قالت إلهام بما يشبه الاعتذار : هذه المرة بس ، حبيت أخليك مشروعي لهذا اليوم ، افتحي الهدية .

دعتها للجلوس وأصابعها مشغولة بفضّ الشريط الذهبيّ عن الهدية . فضّت الغلاف فوجدت قميصا للنوم ، أسود اللون ، وشفافا . ضحكت محتجة : جميل ، بس مختصر كثير! ثم قبّلتها شاكرة .

احتضنتها إلهام بقوة وهمست : شنو بيها؟ بعدك عروس .

سألتها بحيرة : الآن قولي لي بجد ، يعني لازم يكون عندك مشروع جديد كل يوم؟

تنهدت إلهام بحرقة وقالت : شا اسوي؟ مليت القعود بالبيت بلا شغل . آه يالقهر ، قبل احتلال العراق ، كنت أشتغل مدرّسة وأروح لشغلي بحرية . صحيح أنه ما كان عندنا ديمقراطية وانتخابات نزيهة ، لكن الشارع كان آمن ، والأسواق بيها كل شي . كنا نستمع للأغاني ، ونروح للتنزه ، ونقدر نتخلى عن لبس الحجاب . أما بعد التحرير ، فصار شغل المرأة فضيحة ، والميليشيات تجبرنا نلبس الحجاب بالقوة وتحت التهديد بالقتل ، حتى أنه شرب المياه المثلجة في عزّ الصيف صار كفر . . . قتلوا بالفعل بائع مثلجات في الحي . الله أكبر! مين يصدق أنه يجي على العراق يوم تصير بي الأغاني والموسيقى على قائمة الممنوعات ، والتنزه ترف مو مسموح بي؟!

وقفت بسرعة ، تناولت حقيبة يدها وغادرت قبل أن تفتك بها همومها .

استرسال إلهام في سرد ذكرياتها ، أشعر رهام بأن ذاكرة تلك المرأة ستقضي عليها يوما ، ما لم تسارع إلى حشوها بقصص جديدة تطرد بها تلك القصص المؤلمة . اتصلت بها بعد يومين معلنة : لديّ مشروع صغير لك .

- أي مشروع؟ أنا صاحبة المشاريع مو إنت؟

- اسمحي لي هذه المرة باختيار المشروع ، علمت أن هناك جميعة خيرية إسلامية في الحي بحاجة إلى متطوعات ، اذهبي واستفسري ، يمكن تلاقي شي يشغلك عن التفكير في الماضي .

جاءت إلهام بعد أيام والفرحة تملؤها ، لتخبرها بأن الجمعية بحاجة بالفعل إلى معلمة لتحفيظ أبناء الجالية المسلمة القرآن الكريم . وأنها استلمت عملها الذي يلزمها بالمكوث ثلاثة أيام في الأسبوع في مقر الجمعية» .

«الكلمات ، تصعد من مناجم العدم في رئاتنا .
نحن لا نتكلمها ، بل نسعلها» .

زكريا محمد

(٥)

قناة الجـزيرة لا تكفّ عن نقل مـراحل الحـرب إلى عـقـر بيـتنا . قـادة الحـرب الإسـرائيليـون يعلنون أن الحـرب دخلت مـرحلتـهـا الثـالثـة ، ورغـم جـهلي التـام بمغزى ذاك الإعـلان من النـاحـية العـسكرية ، حدست أننا بصدد ليلة أخرى من ليـالي هذا الجحيم الخرافي . العـميد العسكري المتقاعد ، يشرح من داخل استديو أخبار قناة الجزيرة ، تحركات القوات الإسرائيلية مستعينا بخريطة الكترونية تماثل ما يجري في قطاع غزة التي تم تقطيـع أوصـالهـا إلـى ثلاثـة مـحـاور هجـومـيـة ، ويقلل من أهمية المرحلة الثالثة المذكورة على المحصلة النهائية للمعركة ، مؤكـدا أن الجيش الإسـرائيلي لم يحـقّق تقـدما ملموسـا في الميـدان .

تساءلت في نفسي : أين يختـفي القـادة العـسكريون غيـر المتـقاعـدين الآن؟ ولأجل مـاذا تتبـهرج الجيوش العـربيـة بالمال والسلاح؟

القادة العرب ، حائرون بين قمتين يعرف الجميع أن بيانهما الختـامي أوهن من أن يفتـح معبـر رفح أمام شـاحنات الإغاثة ،

وأوهى من أن يرد الأذى عن بيوت غـزة الصـابرة ، وأضـعف من أن يحـول دون روح طفل والصعـود إلى بارئهـا طمعـا في حيـاة أبدية خالدة .

جلست إلى جوارها على حافة السرير ، وعيناها لا تفارقان الشاشة .

أخبـرتني : ضـربوا مـدرسـة لوكـالة غـوث اللاجـئين ، فـأين يذهب الـناس؟ الإحـصـاءات تشـيـر إلى أن عـدد الضـحـايا فـاق الألف ، والمنكوبين يصعب إحصاؤهم!

وأخبرت نفسي : يا رب ، نبوءة الخلق لم تتحقق ، وما آدم وذريته إلا صورة من عذابات الأزل ، وهي العالقة ما بين موت حـتمي ، وموت مؤجل لا تعبأ إلا بتـفـقـد الشـهـداء ، وحـفظ أسـمـاء المنكوبين ، فـأي ذاكـرة هذه التي يمكـنهـا أن تخـتـزن كل هذه الويلات؟

رن جرس الباب ، فتحته فوجدت لطفي وإلهام أمامي .

بادرني لطفي بالاعتذار قائلا : آسف للإزعاج ، ولكن الأمر في غاية الأهمية .

دعوتهما إلى الدخول . دخل يحمل ورقة في يده ، وغضبا في عينيه . مدّ يده إليّ بالورقة ، أخذتها وقرأتها سريعا . كـانت تحوي قرارا من دائرة الهجرة برفض طلب منحهما صفة طالبي اللجوء ، وتخيّرهما ما بين التوقيع على طلب للرجوع الاختياري إلى العراق ، على اعتبار أن العراق أصبح بلدا آمنا ، أو مواجهة الحرمان ، وقطع المعـونات التي تقدمـها لـهـما الحكومة ، بما فيـهـا

المسكن ، ومعاش الإعالة الشهري للطفلة .

ضرب على رأسه وكان على وشك البكاء ، بينما انفجرت إلهام بسيل من التساؤلات : شلون يسوّون بينا هيش؟ ليش قبلوا نجي أصلا إذا يريدون يرفضون طلبنا ويرجّعونا للعراق؟ بعدين ، مين قالهم إن العراق صار آمن؟ ما يعرفون اللّي يصير هناك من نهب ، وقتل ، واغتصاب؟ الكل يقتل ، يخطف ويغتصب ، جيش المهدي ، القوات الصفوية ، وحتى أجهزة الأمن العراقية . من حوالي أيام بس ، هاجم سبعة ملثمين بيت من على بكرة الصبح ، وقتلوا أفراد الأسرة التسعة وهم بعدهم نايمين في فراشهم ، ما رحموا لا صغير ولا كبير . حتى إن الجيران سمعوا استغاثاتهم ، وعجزوا عن إغاثتهم خوف يصيبهم نفس المصير . شنو يريدون منا؟ نمضي الليل ساهرين على السطح والرشاش فوق كتفنا؟!

ما إن سمعت رهام صوت إلهام يولول نائحا ، حتى هرعت نحوها لتحتضنها وتكفكف دموعها . تابعت إلهام وهي تشرق بدموعها : والله العظيم هذا كفر ، على مود يعرفون عندي طفلة يلزمها قلم ودفتر ، يلزمها هواء ما بي إشعاعات ، وطريق ما بي سيارات مفخّخة فد توصل لمدرستها بسلام . ما يفتهمون إنه بنتي تعوّدت خلص على الخبز النظيف ، والحليب الطازه ، والشكليتة؟ من وين أجيبلها شكليتة في العراق؟ يا الله ، شاسوي؟

كفّ لطفي عن لطم رأسه ونظر إليّ نظرة متوسلة قائلا :

ساعدني أرجوك ، أنت بريطاني وممكن يستمعولك . ما أقدر أرجع لبغداد ، أقتل نفسي قبل ما يعاودّوني!

هدّأت من روعه وذهبت لصنع الشاي ، وما إن هدأت ثورته ، وعاودته رصانته المعهودة حتى طلبت منه أن يمنحني بضعه أيام حتى أفكر بطريقة ما لمساعدته .

بعد مغادرتهما سألتني : هل ستساعدهما حقا؟

أطرقت قليلا ثم قلت : غريب هذا التناقض ، يخافون على طفلتهم من الانحلال ، وينتقدون القيم الغربية المنحلّة والحضارة المشوهة ، ثم يتمسكون بالحياة هنا رافضين العودة إلى نعيمهم المفقود!

- سؤالي كان إن كنت ستساعدهما .

- لا أعتقد . لماذا أساعدهما؟ أليسا من أتباع صدام حسين ، وكانا من ضمن من هللّوا لاحتلال الكويت ، وتشريدنا في بقاع الأرض؟ ليذوقوا من الكأس نفسها التي جرعناها . . . لن . . .

وقبل أن أكمل ، قالت بحدّة : كفى . ما ذنبهم هم؟ إنهم ضحايا مثلكم ، بل ضحايا مرتين ، مرّة في عهد صدام حسين ، ومرّة أخرى في عهد الاحتلال الأمريكي . . . ثم ، ثم غريب أمرك حقا ، كيف تشمت ضحية بضحية مثلها؟!

تركتني لذهولي وعادت لتغرق في أحداث الشاشة .

شغلت نفسي عن التفكير في مشكلة لطفي وإلهام باستكمال ما بدأت من الحكاية . . .

«هل كـان ينبـغي أن يعلن خـبـر وفـاته في الـذكـرى الأولى لزواجنا؟!»

مـا إن سـمـعت المذيعـة تنطق باسـمـه ، وقـبل حتى أن تتم إكمال الخبر ، حتى كانت صرختها تشق الفضاء ، وأحسست بأظافـر يدها تنغـرس في سـاعـدي كـأنما تريد تجنّب كـارثة . لم أفهم دواعي تصرّفها ذاك ، ولكن ما إن أتمّت المذيعة الخبر حتى فـهـمت أنا ، وصـرخت هي مكذّبة : لا . غـيـر صـحـيح! ثم انكفأت على صدري تكتم فيه صوت أنينها .

لم أسمع بالشاعر إلاّ قبل أسابيع قليلة ، فليس لي علاقة بالشـعـر أو الأدب ، كل مـا أعـرفـه عنه ، هو أغنيـة من أشـعـاره لمارسيل خليفة ، يحنّ فيها إلى خبز وقهوة أمه ، تماما كما كنت أحن إلى خبـز وقـهـوة أمي في ليـالي غـربتي الموحـشـة . كـانت تستعرض الصحف على شاشة الكمبيوتر كعادتها ، فوقعت على قـصـيـدة جـديده له بعنوان «لاعب النرد» . قـرأتهـا على مسامعي ، وبعد أن فرغت ، قالت بلهفة : انتظر لأعرفك على محـمود درويش بصوته هو . عـبـثت بأزرار الكمـبـيـوتر وجـابت المواقع الإلكتـرونيـة حـتى عـثـرت على مـوقع يبثّ قـصـائده . توقفت عند قصيدة بعنوان «ليل يفيض من الجسد» ، وأعلنت بزهوّ : ها هي . الآن ، استمع إلى القصيدة الأحب إلى قلبي .

أنصتّ باهتمام :

«ياسمين على ليل تموز ، أغنية

لغريبين يلتقيان على شارع لا يؤدي إلى هدف . . .

من أنا بعد عينين لوزيتين؟ يقول الغريب .
من أنا بعد منفاك فيّ؟ تقول الغريبة
إذن ، حسنا ، لنكن حذرين إذن
لئلا نحرك ملح البحار القديمة في جسد يتذكّر . . .
كانت تعيد له جسداً ساخناً ،
ويعيد لها جسداً ساخناً . . .
هكذا يترك العاشقان الغريبان حبهما فوضوياً ،
كما يتركان ثيابهما الداخلية بين زهور الملاءات ،
إن كنت حقا حبيبي ، فألف نشيد أناشيد لي ،
واحفر اسمي على جذع رمانة في حدائق بابل
إن كنت حقا تحبينني ، فضعي حلمي في يدي . وقولي له ، لابن مريم
كيف فعلت بنا ما فعلت بنفسك يا سيدي؟
هل لدينا من العدل ما سوف يجعلنا عادلين غداً؟
كيف أشفى من الياسمين غداً؟
كيف أشفى من الياسمين غداً؟ . . . .»

ما إن انتهى حتى فهمت سبب تعلّقها بتلك القصيدة ؛ إنها تشبهنا! فهي الغريبة التي تلتقي بغريب مثلها على شارع لا يؤدي إلى هدف ، ليتحرك في جسديهما ملح البحار القديمة! أخبرتني يومها عن مرضه ، وعن عملية جراحية كبيرة في القلب ، تنتظره بعد سفره إلى أمريكا ، يعيقها تعنّت السفارة الأمريكية في منحه تأشيرة دخول . أبديت ساعتئذ عدم فهمي

من خطورة إجراء عمليّة جراحية لقلب شاعر على الأمن القومي الأمريكي ، حتى يماطلون في منحه التأشيرة .

الآن عرفت الجواب! احتضنتها بلطف وطبطبت على كتفها وتمتمت بكلمات عزاء بدت بائسة . خرجت كلماتها مختنقة من بين طيات صدري : الحياة مش حلوه بدونه .

لم أكن متأكدا تماما إن كانت الحياة ستقل جمالا بعد هذا الحدث بالفعل ، إلا أنني وافقتها بتأكيد شديد ، وذهني مشغول بالترتيبات التي أعددتها للاحتفال بعيد زواجنا الأول . كنت قد حجزت بطاقتين لتناول وجبة العشاء على متن رحلة نهرية ، وينبغي علينا أن نلحق بالمركب في الموعد المحدد .

بعد دقائق ، عادت مذيعة الأخبار ونفت خبر الوفاة ، غير أنها أكدت على وضعه الصحيّ الحرج . عندها شكرت الله في سرّي ، وتجرأت على حثّها للخروج . تحاملت على نفسها حتى الحمّام ، غسلت وجهها بماء بارد ثم ارتدت فستانا قطنيا أنيقا وبسيطا يليق بالمناسبة . تزينت ببعض الحلي الصدفية ولم تنس أن تخفي بقايا بكائها تحت طبقة من المكياج .

لا شك في أنها النجمات التي تنفرد بسماء صيفيّة صافية ، أو لعلّها صفحة الماء الرائقة التي تحتضن المركب بحنان ، أو ربما يكون النبيذ هو ما أدار رأسها ، وأسقطه فجأة فوق كتفي وهي تراقصني . احتضنتني بقوة وأمعنت في النحيب . أمسكتُ بها جيدا حين شعرت بأن خطواتها تفقد اتزانها محاولاً إعادتها إلى مقعدها ، إلا أنها تسمّرت في مكانها .

نظرت إليّ نظرة أكّدت فيها أنها في تمام وعيها ، وعادت إلى الرقص .

بعد دقائق خرج صوتها مشروخا : لا أريده أن يموت . . . لا أريده ميتاً .

رفعت رأسها إلى السماء ودعت : يا الله . . . أتوسل إليك ، لا تمته .

سألتها : ما الذي يعنيه لك درويش؟ أعرف أنه الرمز ، القضيّة والوطن . . .

هزت رأسها نافية : لا . لا . أية قضيّة وأي وطن؟!

– ماذا إذن؟

– إنه لغتي! هل تدري معنى أن تفقد لغتك؟ أشعر بأني سأفقد القدرة على النطق من بعده .

– لماذا؟

تابعت مستذكرة : لأني تعلّمت ترتيب الكلام من أشعاره . ليس أنا فقط ، بل جيل كامل تربّى على كلماته .

نظرت إلى السماء مستذكرة وأضافت وهي تبتسم : هل تصدّق؟ في طفولتي ، لم يكن مصروفي الضئيل يسمح لي بشراء دواوينه ، فكنت أقطع صفحات الجرائد التي تحمل قصائده وأحتفظ بها ، حتى تجمّع لدي ديوان من قصاصات الجرائد التي حفظتها عن ظهر قلب . وفي صباي ، صرت أتبعه وأتحيّن جميع الفرص للاستماع إلى قصائده إما شخصيا أو على شاشة التلفزيون ، أتذوّق مفرداته وصوره الشعرية ،

وأختزنها في صندوق خاص في رأسي ، أسترجعها بيني وبين نفسي ، أستعيد صوته ، طريقته في الإلقاء ، حركة يده وهو يثبت نظارته الطبية فوق أنفه ، نكاته التي كان يطلقها على حين غفلة خاصة عندما يكون بين الحضور شخصية سياسية بارزة . أما في شبابي ، وحين اتّخذ من عمان مقرا دائما له أطمأننت إلى أن لغتي باتت في أمان .

حاولت صرف ذهنها إلى مكان آخر ، شاغلتها باستذكار ما حدث يوم زواجنا قبل سنة من هذا اليوم : أتذكرين تلك النظرة التي وجهّها نحوك الشيخ الباكستاني الذي عقد قراننا؟

ضحكت وقالت : بالطبع . لم يكن يتصور أنني سأعيد عليه ما قاله أفضل منه!

قبل سنة من هذا اليوم ، ذهبنا أنا وهي وأخي وائل وأحد أصدقائي إلى الجامع القريب من حيّنا . تركتهم في السيارة وذهبت أبحث عن إمام المسجد . وجدت رجلا يرتدي ثوبا أبيض وشبشبا بلاستيكيا ، ويضع عمامة فوق رأسه في مكتب خاص للاستقبال إلى جوار قاعة الصلاة . أخبرته أنني بحاجة إلى شيخ ليعقد قراني . مسّد شعر لحيته الأسود الكثيف وأخبرني بأنه إمام الجامع ، وأضاف : على بركه الله ، أحضر العروس والشهود .

دخلنا جميعا إلى المبنى ، وعلى أعتاب باب حديدي كبير ، خلعنا أحذيتنا ودلفنا إلى حيث قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد المنقوش باللونين الأخضر ، والبني ، وعلى جنباتها

أرفف خشبية صفّت فوقها نسخ من القرآن الكريم . جلسنا على الأرض وجلس الإمام قبالتنا . طلب وثائق ثبوتية فناولناه جواز سفري البريطاني وجواز سفرها الأردني . نقل البيانات إلى نموذج خاص بعقود الزواج . ثبّت المهر ، وحالة الطرفين الاجتماعية ، ثم طلب منها أن تعيد وراءه . أخذ يلقنها بلغة عربية ركيكة ، وهي تعيد من ورائه بلغة عربية سليمة متعافية أثارت نظرات الإعجاب في عينيه : زوّجتك نفسي على سنة الله ورسوله وعلى المهر المسمّى بيننا ، وأتعهد أمام الله أن أكون مخلصة ووفيّة لك في السرّاء والضرّاء ، وأن أطيعك وأحترمك . . . .»

بعد أن انتهت من تلاوة النذور التي لاحظنا أنها كانت وفقا للتّقاليد الإنجليزية ، استدار نحوي طالبا مني أن أعيد وراءه : «قبلت زواجك على سنة الله ورسوله وعلى القدر المسمّى بيننا ، وأتعهد أمام الله أن أكون مخلصا وفيّاً في السرّاء والضرّاء . . . .»

أعدت وراءه بلغة عربية صحيحة وواضحة زادت من حجم استغرابه . توجّه إلى الشهود ، سجّل بيانات كل من صديقي ، وأخي وائل الثبوتية ، وقعّنا جميعا على العقد ، سلّمها نسختها ، وسلّمني نسختي ، واحتفظ بالنسخة الثالثة في سجلّه .

في اليوم التالي ، وهي ما زالت بعد نائمة ، كان خبر وفاته قد تأكد على مختلف المحطات الفضائية ، وكأن فجيعة واحدة

لا تكفي حتى يميتوه مرتين . ربتّ على كتفها بلطف هامسا في أذنها : Bad news . He's gone

ويبدو أن النبأ كان قد أتاها في المنام ، هزّت رأسها باستسلام وهمست : حتماً ذهب ، الله أيضا يحب الذين نحبهم!

اعتدلت مسندة ظهرها إلى الوسائد ، ضغطت على أزرار جهاز التحكم عن بعد ، استعرضت قناتي الجزيرة ، والعربية وتأكدت من ثبوت الخبر . تنهدت بحرقة قائلة : أخشى إن عدت يوما إلى هناك أن يعميني الظلام الذي خلّفه!

ولم تدر جهاز التلفزيون على هاتين المحطتين لأسبوع كامل .

حزنها على فقدان شاعرها فاقم من حزنها على نفسها ، خشيت عليها من الوقوع فريسة لليأس والاكتئاب ، فاقترحت عليها : اكتبي . . . ألست كاتبة؟

نظرت إلى عيني بألم وتمتمت : لم أعد أقوى على الكتابة ، فقدت القدرة على النطق ، أود لو أستطيع حمل القلم ثانية وتسجيل أية فكرة . المشكلة أنني أحسّ بالأفكار تغزوني ، تحتلّني ، وتفتك برأسي ، لكن الكلمات تاهت مني ، بات تركيب جملة واحدة ذات معنى عملية مرهقة ، كيف ضاعت مني المعاني وهربت الصور؟ كل ما يملأ رأسي الآن هو القحط والجدب .

اختنقت بصوتها وهي تكمل : كل ما أكتبه من أبحاث ودراسات هو رصد لما يقومون به من أفعال وأقوال وسياسات .

هم يصنعون الواقع ونحن نكتفي بالرصد . سئمت من رصد ما يقومون به وتسجيل تفاصيله . سيظلون هم الأفعال ونحن ردودها . هم يفعلون ما يشاؤون ونحن نعيد إليهم الصدى . احتلوا أرضنا ، فجعلنا من فلسطين أسطورة شعرية ، شرّدونا فكتبنا في اللّجوء والمنافي والحنين أطنانا من الأغاني . استباحوا دمنا فامتلأت الصحفات بأدب يتغنى بدم الشهداء . نهبوا خيراتنا ، فكتبنا عن تلك الخيرات المنهوبة آلاف الكتب . المشكلة ، أننا لم نكن يوما فاعلين ، نحن ردود أفعال فحسب ، مجرّد ظاهرة صوتية . هم يصنعون الأحداث ونكتفي نحن بتغطيتها في دواوين من الشعر البليغ ومجلدات من النثر الفاخر . أتصوّر أنني طالما بقيت في الجهة الفاعلة من الأرض ، فلن أستطيع الكتابة ، لن أستطيع ان أكون الفعل والصدى في آن واحد . سأكتب عندما أعود إلى هناك .

بعد أيام ، وصلت رسالة المستشفى تحدّد يوم الرابع عشر من آب موعداً لإجراء فحص الماموغرام وأخذ الخزعة . لم تخبرني بأمر الرسالة ، وفي صبيحة اليوم المحدّد للفحص ، نهضت مبكرة على غير العادة ، قفزت إلى النافذه ، أزاحت الستارة وأطلّت عبر الزجاج تستطلع الحالة الجوّية بعينيها ، وكأن نشرة الأخبار الجوّية مشكوك في مصداقيتها . قالت متذمّرة : ما زالت تمطر ، ثلاثة أيام متواصلة من المطر الغزير ، سنغرق حتما كما غرقت «ويلز» في فياضانات الصيف الماضي . تركتها تتذمر وانطلقت إلى عملي .

قبل الموعد بنصف ساعة ، طلبت سيارة أجرة وذهبت بمفردها إلى المستشفى . ما إن وصلت حتى أحالتها موظفة الاستقبال إلى قسم الأشعّة . أعلنت عن حضورها إلى الممرضة المسؤولة التي طلبت إليها الانتظار في الردهة . جلست على أحد المقاعد وتناولت إحدى المجلات عن الطاولة وحاولت القراءة ، إلا أن رائحة المعقمات والأدوية التي تعبق بها ردهة المستشفى منعتها من التركيز . استطلعت المكان من حولها ، ردهة الانتظار تعج بنساء من أعمار متفاوتة ، كانت الغلبة فيها لمن في مثل عمرها . بعد دقائق سمعت الممرضة تستدعيها . ناولتها رداء أزرق اللون وطلبت منها أن تخلع ملابسها وترتديه على أن تبقيه مفتوحا من الأمام .

قبل أن تقتادها الممرضة إلى الجهاز ، مسحت صدرها بفوطة معقّمة ، ثم قادتها إلى حيث جهاز «ماموغرام» يحتوي على صينية بلاستيكية تتوسطها بعض الدّروع المعدنية . شرحت لها ما ستقوم به طالبة منها الاسترخاء وأخذ نفس عميق . انتصبت في مواجهة الجهاز ، خطت خطوة صغيرة إلى الأمام فالتصق الجهاز بثديها ، أحست به باردا ومعاديا على نحو مزعج . ضغطت الممرضة طرفي الجهاز على ثديها بقوه والتقطت صورة للثدي الأيسر ، وصورة أخرى للثدي الأيمن .

صار لثدييها صور وهي التي طالما تجنبت التقاط صور لنفسها!

قادتها الممرضة إلى قسم آخر ، وطلبت منها أن تتمدّد فوق

سرير مرتفع . تبعتها بصمت ونفذت ما طلبت منها الممرضة دون مناقشة ، مستسلمة لمصير تجهل خواتمه . بعد قليل ، ظهر طبيب يرتدي معطفا أبيض ويضع على فمه كمامة طبية وطلب إليها أن تسترخي ، طهّر الطبيب ثديها بالمعقم ، غرز فيه إبرة حادة وسحب بعضا من الخلايا النسيجية إلى أنبوب بلاستيكي شفّاف . لم تشعر بالألم بقدر ما شعرت بقدر من عدم الارتياح إلى فكرة أن يعبث غرباء في جسدها بحثا عن مرض خفي .

ارتدت ملابسها ثانية وجلست تنتظر ، إلى أن أخبرتها الموظفة بأن النتيجة ستظهر بعد أسبوع ، وأنه سيتم الاتصال بها ثانية بعد ظهورها .

أسبوع كامل بانتظار النتيجة . سبعة أيام عجاف ولست أعلم إن كانت هناك أيام سمان فيما سيلي من الأيام . سبعة أيام تحول الوقت فيها إلى جبل تصعب زحزحته ، تتثاءب فيها الساعات والدقائق وهي تزحف كسلحفاة عجوز تقتلنا بكسلها . كل ما نحسن صنعه هو الانتظار والقلق ، تحاشينا الإتيان على ذكر التحاليل والفحوصات ، والطبيب وكل ما يمتّ إلى مرضها بصلة . غرقنا في مشاهدة أفلام الفيديو ، والتعرّف على مواقع جديدة على الإنترنت ، ومطاردة نوم ضلّ سبيله إلى جفوننا ، وطرد أشباح مرعبة استوطنت رأسينا . كل ليلة تمضي تقرّبنا من واقع مجهول ومخيف ، إلى أن جاء هاتف الطبيب معلنا عن انتهاء مدة الأسبوع . استدعاها إلى العيادة مؤكداً على ضرورة أن تصطحب

معها فرداً من أفراد أسرتها ، فأدركتُ أن الأمر جلل .

في اليوم الموعود ، رافقتها إلى المستشفى والقلق ينهشنا . انتظرنا لبعض الوقت في ردهة الانتظار قبل أن يستقبلنا الطبيب بعبارات الترحيب التقليدية وقد بدا جادّا وواجما . انتظر إلى أن جلسنا على المقعدين قبالته وقال بصوت مهني محايد تماما : أخشى أن لدينا ورما سرطانيا .

لا أعرف كيف وقعت كلماته عليّ . جفّ حلقي وتخشّب ، رفعت كفّي إلى جبيني ومسحت عليه بعصبية . نظرت إليها فكانت ساكنة سكون الموتى . سارع الطبيب إلى وضع صورة الأشعة خلف جهاز الإضاءة وأشار إلى موقع الورم . لم نستطع قراءة الصورة التي بدت لنا شبيهة بالحجابات التي يخربشها السحرة والمشعوذون . لمح الطبيب حيرتنا فالتقط قلما عن الطاولة وأشار به إلى المنطقة المعتمة ، راسما برأس قلمه دوائر حولها ، وهو يشرح : لدينا كتلة كبيرة وعميقة هنا في هذه الدائرة .

بحلقنا في الشكل الذي حدده الطبيب على أنه الكتلة العميقة بعينين فارغتين وأنفاس محروقة .

تابع الطبيب شرحه : مظهر الكتلة يوحي بأنها كبيرة وغائرة جدا ، وأخشى أن تكون قد طالت أنسجة الرئة أيضا . . . .

صوت الطبيب يمضي واثقا : هناك طرق متعددة للعلاج ، لكل مميّزاتها ومضّارها . . . وهي تنكمش على نفسها في المقعد وقد قاربت على التلاشي .

صوت الطبيب يصرّ على سحبها من عالم اللاّوعي إلى قساوة اللحظة الراهنة : ولكني أرى أن الاستئصال هو الحل الأمثل لمثل هذه الحالة . . . وعيناها تجحظان بنظرة بلهاء فارغة من المعنى .

بعد صمت طويل ، همست : وهل ستنتهي المشكلة بعد الاستئصال؟

صوت الطبيب يوضح : ليس تماما . إن ذلك يعتمد على حجم الغدد اللمفاوية المصابة . . .

قاطعته : ماذا يعني هذا؟

قال : يعني قد نحتاج إلى العلاج الشعاعي ، «الكيموثيرابي» أو «الراديوثيرابي» للقضاء على الخلايا السرطانية تماما .

سقطت دمعة فوق خدها وهي تسأل : ماذا لو تبيّن أنني حامل؟ فنحن نخطّط لإنجاب طفل .

نظر إليها الطبيب من غير تصديق سائلا : طفل؟ وهل هذا ممكن؟!

أحست فجأة بالعداء نحوه ، وتمتمت لنفسها : هذا الأحمق ، أيظن أن جسدي قادر على إنجاب الأورام فقط؟

لمح الطبيب نظرة العداء في عينيها فأوضح : إن تبيّن أنك حامل يا سيدتي ، فأظن أنك ستضطرين إلى إجراء عملية إجهاض لأجل استكمال العلاج .

وقبل أن تعترض أو تبدي استياءها ، تابع مؤكدا : لن

أخفي عليك ، إذا خيّرت بين إنقاذ ثديك أو إنقاذ حياتك ، فسأختار إنقاذ حياتك دون أدنى تردّد .

كان كلامه جافا وجارحا كسكّين ثلمة ، وكان مجرد التفكير بتعاطي العلاج الكيماوي كفيلا بجعلها تتقيأ حتى قبل أن تباشر بتعاطيه . تساءلت في نفسها : استئصال ، كيموثيرابي ، راديوثيرابي . . . ماذا تبقى للموت؟

تدخّلتُ معيدا الموضوع إلى أصله : ماذا نفعل الآن؟

قال : في حالة أن قرّرت السيدة فارس إجراء العملية سأحيل ملفها إلى جراح متخصص .

وأضاف : ولكن عليك أن تتخذي قرارك بسرعة ، فالأمر لا يحتمل مزيدا من الانتظار .

في الطريق إلى المنزل ، طلبت منّي الذهاب إلى الحديقة القريبة . تمشينا على ضفة البحيرة ثم جلسنا على المقاعد الخشبية المنتشرة على جنباتها . تطلّعت إلى الأفق بصمت طال كثيرا ، تركتها لنفسها وذهبت إلى حافة الماء أرقب خط التقاء الماء بالسماء ، أو ربما أنتظر رسالة تأتيني من وراء الغيب ، ولمّا لم تأت ، عدت إليها فبادرتني بنظرة طويلة وغامضة . هزّت رأسها أسفا وتمتمت : أرأيت؟ إنه موسم الموت بكل تأكيد!

شجعتها قائلا : لن تموتي ، هذا الورم الحقير لن يتمكّن منك ، أنا متأكد من ذلك .

كان وجهها جامدا ثابت الملامح ، لا يوحي بما يدور في رأسها ، ودموعها تنساب فوق خديها من تلقاء نفسها ، كأنها

خارجة عن نطاق السيطرة . نظرت إليّ وسألت : هل سيتبدّل شعورك نحوي بعد العملية؟ أعني . . . هل ستظلّ تشتهيني كامرأة؟

سؤال فكرت فيه كثيرا ، وتفاديته أكثر ، حاولت التحايل عليه مرارا ، تجنّبت مواجهته بيني وبين نفسي ، وها هي تصفعني به كعادتها . تحشرني في ركن ضيّق ، تعيدني إلى نقطة الصفر ، تطلب مني أن أمنحها وثيقة تأمين شامل على شهواتي! كيف أجيبها وأنا نفسي أجهل الإجابة؟ لا أعرف ما يمكن أن يعتريني من أحاسيس ومشاعر تجاه ما سيستجدّ على جسدها من تفاصيل . يا إلهي ، هل هناك وصفة جاهزة لما ينبغي على الرجل فعله عندما تصاب زوجته بالسرطان؟

مرّرت بأصابعي فوق وجنتيها ماسحا دموعها . احتضنتها وقلت : بصراحة ، أنا لا أعرف بعد . دعينا لا نستبق الأحداث ، ولكني أؤكد لك أننا سنخوض هذه المأساة معا ، سنعيش مرارتها معا ، وسنتعرّف على ما سيعترينا خلالها من أحاسيس معا . ألم نتعاهد على أن نكون معا في السرّاء والضرّاء؟

هزّت رأسها مؤيدة ، وأطبقت شفتيها على ما كانت بصدد أن تقول .

في النهاية ، كان لابدّ لها أن تقرر ما هو منطقي ؛ إجراء العملية . ولم يعد بمقدورنا إبقاء خبر مرضها سرّا بعد الآن . كان يجب أن نخبر والديّ ونطلب مساعدتهما . في البدء ، لم

يصدقا النبأ ، ولكنهما اضطرا إلى الإذعان لمشيئة الله وقدره . وربما كانا يتحسران على نصيبي من هذه الحياة ، ويندبان سوء حظي فيما بينهما . أما والداها ، فظنّا أن الخبر محض حيلة نستجدي بها رضاهما ، وصفحهما عما ارتكبناه من ذنب .

تحدّد موعد إجراء العملية في الثالث من أيلول . أخبرها الطبيب بأن تسلّم نفسها إلى المستشفى في الساعة الثامنة صباحا . وقع عليها الخبر كالصاعقة رغم انتظارها له . صارت تتصرف كطفلة صغيرة أضاعت أمها بين زقاقات سوق شعبي كبير . تبكي ، وترجوني ألاّ نذهب إلى المستشفى . قالت إنها لا تريد إجراء العملية ، لا تريد أن تشفى ، تفضّل الموت على أن يستأصل ثديها .

بعد أن هدأت وعادت إلى رشدها ، قامت إلى تجهيز حاجياتها الضرورية . ألقت في جوف حقيبة صغيرة بعض الغيارات الداخلية ، فرشاة الشعر ، فرشاة الأسنان والمعجون ، منشفة صغيرة ، قميصا للنوم ، خفّا منزليا ، وكتابا . تقدمت بطلب إجازة من العمل لمدة أسبوع حتى أكون إلى جوارها طيلة الوقت .

عشية اليوم المحدّد لإجراء العملية ، لم يغفل لي جفن ، وددت لو يطول هذا الليل إلى الأبد ، أن تنسى الشمس موعدها فلا تأتي ، ألاّ يبزغ فجر ذلك اليوم الذي سأحرم فيه من صدر حنون أطمر بين ضفتيه أوجاعي ، من طفل جميل أداعبه بحنان ، من إجاصة لذيذة ألتهمها بنهم . . .

لم يطل الليل إلى الأبد كما تمنيت ، ولم تتأخر الشمس عن موعدها قيد ثانية ، وحلّ الفجر ساطعا باهرا مشرقا يعلن عن ولادة نهار صيفي جميل .

في الثامنة صباحا ، وصلنا إلى المستشفى ، أنهت موظفة الاستقبال إجراءات الدخول بسرعة ، وقادتها إلى عنبر كبير مخصص للنساء . زوّدتها الممرضة برداء أزرق وطلبت إليها خلع ملابسها وارتداءه . بعد أن أنهت المهمة ، استلقت على السرير ، فجلست بالقرب منها . أمسكتُ بيدها وهمست مطمئنا : كل شيء سينتهي على ما يرام .

تمتمت : أتمنى ذلك .

بعد قليل ، حضرت الممرضة وغرزت في وريدها إبرة تنتهي بأنبوب صغير ، حقنت الأنبوب بمادة قالت إنها مجرد مهدئ يريح الأعصاب ويطرد التوتر ، ثم أغلقت الأنبوب الصغير بسدادته البلاستيكية . تأكدت الممرضة من أنها لم تتناول الطعام منذ الليلة الماضية ، قاست لها الضغط ، والحرارة وسجلتها على لوح صغير معلّق على القاطع المعدني لحافّة السرير .

بعد ساعة من الزّمن حضر طاقم من غرفة العمليات ، وسألها أحدهم : السيدة فارس؟

أرادت أن تقول : لا . لست أنا . ولكنها أومأت له بالإيجاب .

وضعوها على سرير متحرّك ودفعوه إلى حيث المصعد ، وأنا

أسـيـر إلى جـوارها ممسكا بيـدها وقلبي يكاد يهـوي إلى واد سـحيق . همست في أذني : وليـد ، إن خـرجت من هنا على قدمي ، سأعود . . .

– إلى عمّان؟

– لا . إلى الكتابة .

– ستخرجين ، وستكتبين ، وسنزور عمّان سويّة . . . وأغلق باب المصعـد في وجـهي حـامـلا سـريرها إلى الطابق السـفلي حيث غرفة العمليات قبل أن أتمّ جملتي .

جاءت طبيبة تضع كمّامة على فمها وعرّفت بنفسـها ، شرحت لها باختصار ما ستجريه أثناء العملية ، ثم طلبت منها أن تستـعد لحقنة المخدر . ثوان ، وكـانت روحـهـا تحلّق في عـالم آخـر ، بينمـا جسـدها قـابع تحت المشـارط والمقصـات ، ولفـائف الشاش والقطن .

كل سـاعـة مـضت خلتـهـا دهرا وأنا بانتظار أن تنتـهي العـمليـة . لم أسـتطع حـراكـا من مكاني ، وإن تحـرّكت ، فـإلى منصّة الاستعلامات للسؤال عن وضعها في العملية ، ودائما يأتيني الجـواب ذاته : ليس لـدينا أية مـعلومـات حـتى الآن . أخيـرا ، وبعـد أربع سـاعات ، جاءت الممـرضـة وأخبـرتني إنهـا خرجت من غرفة العمليات وستمضي بعض الوقت في غرفة الإنعاش إلى أن تستعيد وعيها .

مرت نصف ساعة قبل أن أرى فريق غرفة العمليات يعود بسريرها المتحرك إليّ ثانية . وجهها شـديد الصفرة ، وأنفاسـهـا

بطيئة من تأثير المخدر . أمسكتُ بيدها وضغطت عليها ضغطة خفيفة ، فأعادت الضغط على يدي . بدت واهنة ، منهكة كأنها خارجة للتوّ من معركة ضارية مع عدو خفيّ . فتحت عينيها ونظرت إليّ وكأنها لا تراني ، أغمضتهما ثانية وغابت .

تركتها وخرجت إلى الهواء الطلق وأشعلت سيجارة . اشتريت فنجانا من القهوة من ماكينة القهوة الجاهزة ، وكان هذا أول ما دخل جوفي منذ الصباح ، رشفت منه رشفتين فشعرت بالغثيان ، تركته وتوجّهت إلى غرفة الطبيب . سألته : كيف سارت العملية؟

قال : تمكنا من استئصال الورم من الثدي والأنسجة اللمفاوية المحيطة به . كل ما أرجوه ألا يكون هناك بقايا خلايا أصابت الرئة .

- كيف؟ وهل هذا ممكن؟

- هناك نوعان من الخلايا السرطانية التي قد تصيب الرئة ، الخلايا السرطانية الصغيرة والخلايا السرطانية غير الصغيرة . ما يقلقني هو الخلايا السرطانية الصغيرة لأنها تنتشر بسرعة وتشكّل خطورة عالية على المريض ، وفي حالة انتشارها فهي غير قابلة للاستئصال ، إنما تتم معالجتها بالعلاج الإشعاعي والكيميائي ، وبالرغم من استجابة هذا النوع للعلاج الكيميائي أو الإشعاعي في بداية المرض إلا أن معظم الحالات تنتكس انتكاسة سريعة خلال سنة أو سنتين على أقصى تقدير ، وبالتالي تصبح غير قابلة للعلاج إلا لفترة بسيطة ومؤقتة .

- وما هي فرصتها يا دكتور؟ كنت أعرف أنه سؤال تصعب الإجابة عليه ، لأن علمه عند الله لا عند البشر ، وإن كانوا أطباء .

- من الصعب تحديد ذلك الآن ، الورم كبير وعميق ، والقصد من العملية هو القضاء نهائيا على الخلايا السرطانية لأن بقاء جزء ، ولو بسيط منها ، يعني أن يعود الورم ثانية ، وينتشر بشكل يصعب القضاء عليه لاحقا . على كل حال ، سنتحقق من وجود أية مخلّفات للخلايا السرطانية بعد أسبوعين من العملية .

عدت إليها بابتسامة كبيرة رسمتها فوق وجهي جاهدا بعد ما أخبرني به الطبيب . وجدتها قد استفاقت تماما . قبلتها فوق جبينها قائلا : welcome back

تمتمت وهي ما بين النوم والصحو : I am hungry

هي أيضا لم تذق الطعام منذ الأمس . ضغطتُ على الجرس فحضرت الممرضة على التو ، فسألتها إن كان بإمكانها أن تأكل . قرأت الممرضة اليافطة المعلّقة فوق السرير بصوت مرتفع : nil by mouth

وأضافت : ليس بإمكانها تناول الطعام بعد .

أحضرت كيسا جديدا من سائل الكلوكوز وشبكته في أنبوب الإبرة المغروسة في ظاهر يدها وحقنتها بجرعة منوّم . التفتت اليّ وطلبت مني أن أذهب لأستريح لأنها لن تصحو قبل صباح اليوم التالي . تركتها وعدت إلى المنزل . سخّنتُ ما

وجدت في الثلاجة من بقايا طعام وأكلت ، ثم أخذت حمّاما ساخنا وغفوت .

لازمتها ليومين متتاليين ، قرأت لها الصحف في ساعات يقظتها القليلة ، همست في أذنها كلمات الحب في ساعات نومها الطويلة ، أشرفت على أوقات تناول الدواء رغم نصائح الممرضات اللواتي يتعاقبن على متابعة حالتها وتطميناتهن لي بأن حالتها مستقرة وأنهن يتابعنها بعناية .

حين وصلت إلى المستشفى في صبيحة اليوم الثالث ، سمعت أصوات ضجة في الجناح الذي يحوي غرفتها . بعد الاستفسار ، عرفت من الممرضة أنها سقطت في الحمّام ، وأنه أغمي عليها بسبب قلة الطعام ، وتأثير المخدر ، إلا أن ما استطعت فهمه من الكلمات المتقاطعة التي تفوهت بها أثناء هذيانها ، هو أن إغماءها كان بسبب النّقصان الذي حلّ بجسدها لا بسبب المخدر .

أفاقت ، اعتدلت في السرير وسردت على مسمعي تفاصيل ما جرى ببطء شديد : ذهبت إلى الحمّام لقضاء حاجتي ، وقفت على المغسلة كي أغسل يديّ ، فأطلّت من المرآه صورة امرأة تشبهني ، إلا أن محيط صدرها بدا متضخما أكثر من العادة . دققّت فيها النظر ، فرأيت صدري الملفوف بالشاش من تحت قماش رداء المرضى ، رفعت الرداء وتحسّست الشاش ، فتلبسّني هاجس ملحّ بأن أتفقد ما حلّ بي .

بلعت ريقها وسحبت نفسا عميقا قبل أن تواصل : أعلم

أنه ما كان ينبغي عليّ أن أفتح صندوق «باندورا» وأكشف عن مكان الجرح من تلقاء نفسي ، إلا أن أصابعي راحت ، ورغما عني ، تفكّ لفائف الشاش ، لفّة إثر لفّة . تحت اللفائف ، وجدت طبقة من القطن ، نزعتها عني هي الأخري . . .

غطّت عينيها بيدها كأنما تبعد عنهما صورة أليمة وأكملت بصوت مختنق : لم يكن في ذهني تصوّر مسبق لما سأرى بعد ذلك ، ولم أكن أتوقع قباحة من هذا القبيل! لم أر ثديي ، ثديي الورديّ الجميل اختفى وحلّ محلّه مسطّح من الجلد المهترئ عديم اللون ، مشبوك من الأعلى ومن الأسفل بخيوط ناتئة تخترق جلدي في خطوط متوازية . . . .

سكتت فجأة ، ضغطت على الجرس ، فأسرعت الممرضة نحوها تسألها عما تريد . قالت على الفور : من فضلك أحقنيني بجرعة قوية من المنوّم ، لا أرغب في البقاء على قيد الوعي .

بعد أيام من العناية الحثيثة في المستشفى ، التأم الجرح ، واختفى الألم ، واستردت حيويتها وقوتها وصار بمقدروها العودة إلى المنزل . زوّدتها الممرضة قبل مغادرتها بحمّالة خاصة للصدر ، تحتلّ حشوة من السيليكون على شكل ثدي ، الجهة اليسرى منها . ارتدتها فعاد شكل صدرها طبيعيا متوازنا .

جاء أبي وأمي لزيارتها والاطمئنان عليها في المنزل ، وأحضرت أمي معها طعاما يكفينا لأسبوع كامل . وجاءت إلهام لزيارتها ، وأحضرت معها باقة من الزهور وبطاقة تحمل تمنيات زوجها وطفلتها بالشّفاء العاجل . استغربت رهام

حضورها في مثل تلك الساعة من الصباح ، والتي كان ينبغي أن تقضيها في تحفيظ الأولاد القرآن الكريم . قالت : شكرا على الزهور والبطاقة ، ولكن ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت؟

قامت إلهام لتضع الزهور في إناء ملأت نصفه بالماء ، قائلة : لم يعد هناك جمعيّة ولا أولاد!

- كيف؟ لماذا؟

- لأنني تركت العمل هناك . . .

- ماذا؟ أخبريني عمّا حصل بالضبط .

عادت إلهام لتجلس على الكرسي مقابل سريرها . تنهّدت بحرقة وأجابت : لأنهم أغبياء ، وليس بمقدوري أن أشارك في عملية تضليل لهؤلاء الأولاد .

أصلحت رهام من جلستها ، مسندة ظهرها إلى الوسائد مستوضحة : أي تضليل؟

- كنت قد لاحظت عند بداية عملي أن الأولاد لا ينطقون الأحرف العربية بشكل صحيح ، وأن تلاوتهم للقرآن غير مضبوطة ، فاقترحت عليهم تخصيص حصص لتعليم الأولاد الأحرف العربية وطريقة نطقها الصحيح حتى يتمكنوا من حفظ القرآن بشكل يخلو من الأخطاء .

- جميل . .

- انتظري قليلا . بعد أن وافقوا وبدأت بتعليم الأولاد الأحرف العربية ، طلبوا مني لاحقا التوقف . وحين استفسرت عن السبب ، تحججوا بأنهم لا يرغبون بتعليم الأولاد اللغة

العربية . تعلمين أن غالبية أعضاء الجمعية هم من الجالية الباكستانية ، وبالتالي فهم الذين يسيطرون على هيئتها الإدارية وقراراتها .

– ولكن ، حتى الباكستانيون معنيون بأن يتعلم أولادهم لغة القرآن ، كي يتمكنوا من تلاوته بشكل صحيح .

– هذا ما قلته لهم ، وأخبرتهم أيضا أنه ليس من الصواب أن يردد أطفال المسلمين القرآن من دون فهم معانيه .

– ماذا كان ردهم؟

– قالوا إن كتب التفسير بلغاتهم الأصلية كفيلة بأن توصل المعنى . ولما قلت لهم إن كتب التفسير لن تكون كاللّغة الأم ، وإن الفهم الصحيح ، يحميهم ويحصّنهم أمام أية محاولات استقطاب ملتوية من قبل جماعات متطرفة من جهة ، وتحميهم من الملاحقات الأمنية بحجة القضاء على الإرهاب عندما يكبرون من جهة ثانية ، خيّروني بين أن أقبل بطريقتهم أو أن أترك العمل .

– والنتيجة؟

ضحكت وأشارت إلى نفسها : النتيجة هي ما ترين ، عاطلة عن العمل بمرتبة الشرف!

ساهمت زيارات إلهام ووجودها المستمر إلى جوارها في التّخفيف من أزمتها وعودتها إلى أكمال أبحاثها ودراساتها .

منذ أن خرجت من المستشفى ، تركتُ لها السّرير بكامله ، اشتريتُ سريرا معدنيا يمكن طيّه وإخفاؤه في خزانة حفظ

الحاجيات القابعة تحت الدرج . لم أكن أعرف أن تصرّفي هذا سيزعجها ، كنت فقط أريد أن أحمي نومها من تقلّباتي الكثيرة وشخيري . غير أنها ألقت باتهامها في وجهي باكية : لم تعد تحبّني .

قبّلتها فوق جبينها ولم أعلّق . فازداد حنقها وعلا صوتها : أرأيت؟ حتى إنك تقبلني على جبيني وكأنني أمك لا زوجتك! هل تنكر أنك لم تقبلني قبلة واحدة على فمي منذ إجراء العملية؟ وأننا لم نمارس الحب مرة واحدة بعد العملية . أخبرني بصراحة هل أصبحت عبئا عليك؟

حاولت امتصاص غضبها قائلا : تحضرني مقولة للأميرة ديانا . . .

اهتاجت مقاطعة : لا أريد معرفة ما قالته الأميرة ديانا . . . . أريد معرفة ما تقوله أنت!

كان صبري قد نفد أيضا وما عدت أحتمل تفسيراتها المغلوطة لتصرفاتي ، فجهرت بما في أعماقي صارخا : حسنا ، ربما أنا من أصبح عبئا عليك . لماذا تجعلين من الأمر كارثة كبرى؟ عدد كبير من النساء فقدن أثداءهن ، وعدد أكبر من الناس فقدوا أطرافهم ، أذرعهم ، أو أرجلهم ، ومع ذلك استمروا في حياتهم وتعايشوا مع أمراضهم . لماذا ترين أن مرضك هو نهاية العالم؟ اشكري الله أن عاهتك غير ظاهرة للناس على الأقل ، وبالإمكان أخفاؤها تحت الملابس فماذا يفعل الذين فقدوا ساقا أو ذراعا؟

صارت تنتحب مردّدة : لأن عاهتي كما تسميها . . . عاهتي لا تخصّ الناس ، تخصّنا نحن فقط ، هل انطلت عليك خدعة حمّالة الصدر؟ تذكّر أنها كذبة ، أنا وأنت نعرف ما وراءها . . . إنها تحمل ثديا من السيليكون . . .

غطّت وجهها بكلتا يديها وتابعت حاجبة دموعها : لن أستطيع تحمّل شعورك بالاشمئزاز مني . . . هل فهمت الآن؟

جلستُ على حافة السرير ، أخذتُ نفسا طويلا وعددت للعشرة ، ثم اقتربت منها وتمتمت : حبيبي ، سأتعايش مع مرور الوقت ، سأعوّد نفسي على تقبّل جسدك الجديد ، امنحيني بعض الوقت فقط .

- لن تتعود ، لن تستطيع ، ما حلّ بصدري يفوق أية قدرة على الاحتمال أو التعود . . .

- ليس الأمر كما تتخيلين . . .

- بل أفدح مما تتخيل أنت!

فجأة ، اجتاحتها حالة من الهيجان ، اعتدلت في السرير ، نزعت عنها قميص البيجامة بنزق وألقت به جانباً ، أطاحت بحمالة الصدر أرضاً وصرخت : أنظر . هل بإمكانك التعايش مع جسد كهذا؟ هل تستطيع أن تعتاد على مثل هذا المنظر؟

كانت تلك المرة الأولى التي أشاهد فيها مكان العملية ، وقد احتلّت مساحة قاتمة ، مسطّحة ، ومشقّقة مثل صحراء مزّقها العطش الجهة اليسرى من صدرها . لم أستطع النظر لأكثر من ثانية واحدة أشعرتني بالاختناق ، تركت على إثرها

الغرفة والبيت وخرجت أجوب الطرقات بحثا عن الهواء دون جدوى . أحسستني مثل سجين أخرجوه من زنزانته إلى فناء السجن في الساعة المخصّصة للتنفّس ، فلم يجد الهواء ، وجده معدوماً ، تنفّسه زملاؤه الذين سبقوه إلى ساعة التنفّس ولم يبقوا له منه شيئا .

قادتني قدماي إلى الحانة ، احتسيت كؤوساً من الخمرة ، أشعلت سيجارة من عقب سيجارة ، ومع كل كأس دلقتها في جوفي وكل سيجارة أهلكتها ، كنت أرثي حالي وحالها معا . حقدت على ذلك العدو المجهول الذي سلبنا القدرة على الضحك أو حتى الابتسام ، وأحال حاضرنا إلى وحش يفترس بأنيابه الضارية غدنا وأيامنا القادمة .

خرجت ، جلست في سيارتي وأجهشت بالبكاء . شعرت بأنني غريب عن نفسي وعن تلك المرأة التي تنتظرني في البيت . وأني ربما أعيش مؤقتا حياة رجل آخر ، رجل غاب فجأة وكلّفني بمتابعة حياته ، أو ربما حياة رجل مثقل بالمتاعب والهموم اختار أن يفقد ذاكرته ، فألقى بها في حضني وفرّ هاربا بجلده . عدت إلى المنزل فوجدتها نائمة ، أخرجت سريري من الخزانة ، فردته ، احتضنت الوسادة واللحاف وذهبت أطارد شبح حلم جميل .

بعد أسبوعين من العملية ، تم فحصها مجدداً وقرّر الطبيب أن تخضع لجلسات مكثّفة من العلاج الكيماوي لمدة ثلاثة أشهر . في موعد الجلسة الأولى ، جاءت سيارة إسعاف أقلّتها

إلى قسم الأورام في المستشفى . عند وصولها ، قادتها موظفة الاستعلامات إلى غرفة صغيرة . ما إن عبرت الباب حتى استقبلتها بحرارة شديدة شابة في حوالي الثلاثين من العمر ، بيضاء طويلة تعلو وجهها ابتسامة ودودة . سلّمت عليها بيد طرية وناعمة معرّفة بنفسها : أنا «ستيفاني وليامز» ، الأخصائية التي ستتولى متابعة علاجك الكيماوي ، تفضلي بالجلوس .

جلست هي على كرسي وجلست الأخصائية على الكرسي الآخر إلى جانبها وقالت : في البداية ، يجب أن أشرح لك ماهيّة العلاج الكيماوي ، وآثاره الجانبية ، وطرق التعامل معها .

أومأت برأسها متفهمة .

تابعت ستيفاني : تعرفين أن جلسات العلاج الكيماوي المخصّصة لك ستكون مكثّفة ، وتستمر ثلاثة أشهر ، بمعدل جلسة كل عشرة أيام . سيتم حقنك بسائل عبر الوريد ، وهذا السائل لا يحتوي على مواد سامة ، لكنه يقوم بقتل الخلايا السرطانية دون الخلايا السليمة . وهناك مادة أخرى سيتم حقنك بها لمدة أسبوع من اليوم الذي يلي جلسة العلاج الكيماوي ، وهذا الدواء اسمه «نيوبوجين» ، وهو عبارة عن بروتين شبيه بالبروتين الذي ينتجه الجسم ، ويعمل على علاج النقص في كريات الدم البيضاء الناجم عن العلاج الكيماوي .

رددت من ورائها : نيوبوجين ، كريات الدم البيضاء ، ماذا أيضا؟

شرحت الأخصائية : في بداية كل جلسة ، سنجري لك فحصاً روتينياً ، كقياس الضغط ، والحرارة ، والتقاط صورة أشعة وهكذا . لا تقلقي ، في العادة لا تستغرق جلسة العلاج الكيماوي أكثر من ٤٥ دقيقة ، تستطيعين بعدها العودة إلى منزلك .

استفسرت : وهل سيكون بمقدوري معاودة روتيني اليومي بعد جلسات العلاج؟ لدي التزامات في العمل ، ودراسات يجب أن أسلّمها في مواعيد محددة .

– لا تخافي ، ستشعرين ، بحالة من الإرهاق ، والتعب في اليومين الأول والثاني فقط بعد جلسة العلاج الكيماوي ، وستتمكنين بعدها من ممارسة حياتك العادية ، ولكني أود أن أضعك في صورة الأعراض الجانبية أيضا ، ستشعرين بالغثيان ، وتصيبك نوبات حادة من القيء ، وتساقط الشعر ، لذا أنصحك بالبحث عن باروكة شعر مناسبة منذ اليوم . وقد تشعرين ببعض الألم في المفاصل والعظام أيضا . على كل حال سأزوّدك بمنشور يضمّ قائمة بالأعراض المألوفة وأخرى بأعراض غير مألوفه . هل لديك أي استفسار قبل أن نبدأ .

زفرت قائلة : لا ، شكرا . لنبدأ .

بعد إجراء الفحوصات الضرورية ، قادتها إلى غرفة داخلية ، جدرانها مطلية باللون الأبيض ، بها سرير مرتفع وإلى جوار السرير جهاز لم تفهم ماهيّته . طلبت منها الأخصائية أن تأخذ نفسا عميقا ، وتسترخي قدر إمكانها . تمدّدت على

السرير ، ولكنها لم تستطع الاسترخاء ، كانت ترتعش خوفاً ، وأحسّت برغبة عاتية في البكاء قتلتها في مهدها . مدّت يدها إلى الأخصائية باستسلام غريزي . مسحت ستيفاني على ذراعها بقطنة معقّمة ، بحثت عن الوريد وحقنته بإبرة ملحقة بأنبوب ينتهي بكيس شفّاف يحتوي على سائل أصفر غريب . استغرق إفراغ الكيس من السائل حوالي الأربعين دقيقة ، وضعت الممرضة بعدها قطنة معقمة على مكان الحقنة وغطّتها بشريط لاصق . قبل مغادرتها ، وصفت لها الأخصائية صنفا من الأدوية يساعدها على التغلب على الغثيان ، زوّدتها بمطبوعة تحتوي على قائمة الأعراض الجانبية ، وكيفية التغلب عليها .

أعادتها سيارة الإسعاف إلى المنزل في حوالي الثالثة بعد الظهر . تمدّدت على السرير لبعض الوقت ، ثم قامت إلى متابعة أبحاثها . لم يكن الأمر بالسوء الذي توقعته ، إلى أن جاء المساء وتناولنا طعام العشاء . دقائق وانتابتها نوبة من الغثيان العنيف . هرعت إلى الحمّام وأفرغت ما تناولته من طعام في المرحاض . وقفت إلى جوارها وأمسكتُ بها حتى انتهت ، ساعدتها على غسل وجهها ثم وضعتها في السرير وطلبت منها أن تنام .

أثناء الليل ، صحوت على صوت قرقعة في الحمّام ، هرعت إلى مكان الصوت فوجدتها تجلس على أرض الحمام وتدلق ما في جوفها من طعام ، وسوائل في المرحاض . تمسّكت بي حين رأتني مستنجدة ، عيناها تكادان تخرجان من

محجريهما . تمتمت بصعوبة : أنياب وأظافر تفتك بأحشائي ، لم يتبق في جوفي ما أفرغه ، أحس بأنني سأتقيأ أمعائي أيضا . أمسكتُ بها وساعدتها حتى فرغت ، ثم نقلتها إلى السرير ، أحضرت منشفة صغيرة مبلولة بالماء البارد ووضعتها فوق جبينها حتى غفت .

في الصباح ، استلمتها نوبة أخرى من القيء ، ولكنها كانت أقصر من سابقتها ، حيث لم يتبق في جوفها ما يمكن استفراغه . ربتّ على كتفها مشجعا : إنه أمر متوقع ، إنها الجلسة الأولى ، ومن المؤكد أن جسمك سيتعود على الكيماوي لاحقا وتخفّ نوبات القيء والغثيان تدريجيا .

أجابتني ساخرة : إنه حريق يصعب التعود عليه . . . صدقني ، لا ريب أن اسمه كيماوي!

نوبات القيء والغثيان لم تخفّ ، بل استمرت مع تكرار جلسات العلاج الكيماوي . صارت تعاف الطعام مهما بدا شهيّاً . اقتصر ما يدخل في جوفها على زجاجات «السفن أب» والخبز الجاف ، وحفنة من حبّات الأدوية التي تمنع عنها فقر الدم . كل جلسة من جلسات العلاج الكيماوي تقرّبها من الجحيم . ازدادت نحولا وشحوبا رغم أن الأعراض الجانبية تشير إلى إمكانية حصول زيادة في الوزن . صارت تصيبها نوبات من الشعور بالحرّ وكأن جسدها معلّق على سيخ شواء . تفتح النافذة في عزّ البرد ، لتلطّف من حرارة جسدها ، وتفاقم من برودة المنزل . وحين شكوت لها البرد ، قالت مازحة : إفرح ،

فاتورة الغاز ستتقلّص إلى عشرين باوندا فقط هذا الشهر .

مع الجلسة الرابعة ، بدأ شعرها يتساقط كأوراق الخريف ، صار يتعلق بالفرشاة ، بالثياب ، بالوسادة ، وينهمر بغزارة بعد كل استحمام حتى ضجرت من وجوده الدائم في كل مكان . ذات مساء ، أخرجت ماكنة الحلاقة الخاصة بي من خزانة الحمّام ، وصلتها بالكهرباء ، وضعت كرسيا في الحمّام أمام المرآة ، وطلبت مني أن أحلق لها شعرها على «الزيرو» بكل جسارة وكبرياء . تردّدتُ كثيرا قبل أن أباشر في تنفيذ طلبها ، وعندما رأيت شعرها الكستنائي المشاكس ينهمر عند قدمي ، شعرت بقلبي ينهمر معه . نظرت إليها برأسها الحليق وحاولت اختلاق نكتة : أتعرفين؟ تذكرينني «بكوجاك» الآن!

ضحكت رغماً عنها واحتضنتني مخفية دمعة سقطت عنوة . حملتها إلى الفراش ، قبلتها قبلة طويلة فوق فمها . داعبت عنقها بأنفاسي ، خلعت عنها ملابسها ، فحاولت التمسك بحمّالة الصدر ، الا أني نزعتها عنها ورميت بها بعيدا . قبّلت ثديها الأيمن ، ثم انتقلت إلى تقبيل ما كان ثديها الأيسر ، ضمّتني إليها بقوة وضاعت الحدود ما بين جسدينا في لقاء حميم استمرّ لساعات .

ذهبنا بعدها إلى السوق وهي تغطّي رأسها بوشاح ملون ، انتقينا باروكة من شعر كستنائي مشاكس مستعار ، صارت ترتديها حين تخرج لأمر ما ، أما في الأوقات التي كانت تشعر بها ببعض التحسن ، أو تلك التي تفصل بين نوبة قيء

وأخرى ، فكانت تعكف على إكمال البحث الذي تعمل عليه حتى أتمّته .

قبل أن تسلّمه إلى المركز ، جاءت إليّ ملوّحة بورقة صغيرة وشعور بالرضا يحرّكها . قالت بفرح غامر : على فكرة ، انتهيت من البحث وإليك نتائجه .

ناولتني الورقة التي قرأت فيها خلاصة بحثها : «هناك ما يقارب الستين مؤسسة وجمعية عربية في لندن ، تتراوح أهدافها بين الثقافية ، والاجتماعية ، والنسائية ، وتلك المعنية بتقديم العون الطبّي ، ومنها ما هو إسلامي الطابع .

تمتاز أغلبية هذه الجمعيات بالقطرية ، بمعنى أنها تحمل اسم دولة عربية معينة مثل الجمعية السورية ، أو المصرية ، أو اليمنية وهكذا . كما تنحصر أهداف وفعاليات معظم هذه الجمعيات في تنظيم الأنشطة الثقافية أو الاجتماعية ، أما الجمعيات المعنية بالقضايا السياسية وخاصة قضيتي العراق وفلسطين فهي محدودة وموسمية . إلا أنه يمكن استثناء عدد من الجمعيات المختلطة الطابع ، والتي ليست عربية خالصة مثل حملة التضامن مع الشعب الفلسطيني ، أو حملة أوقفوا الحرب ، والتي لها قاعدة جماهيرية كبيرة وفاعلة .

من الواضح ، أن هذه الجمعيات لا تعمل كامتداد للجمعيات التي في البلدان العربية ، وليس هناك تنسيق فيما بين الجمعيات في الداخل والخارج من أجل تحريك الرأي العام البريطاني والضغط على الحكومة . والمؤسف حقا ، هو أن ما

تطالب به هذه الجمعيات الحكومة البريطانية التمسك به ، لحماية حقوقنا ، مثل حق العودة ، تنسفه حكوماتها العربية بتقديم المزيد من التنازلات ، مما يضعف مصداقيتها أمام الشارع البريطاني .

ومن المدهش أن الجمعيات الناشطة بالفعل هي الجمعيات الإسلامية ، والتي غالبا ما تتقدم بتقارير أو تصريحات إعلامية إلى الحكومة البريطانية ، مطالبة بتغيير الصورة النمطية للإنسان المسلم ، وإشراكه في القضايا العامة ودوائر صنع القرار . ولكن السبب في ذلك يكمن في أن عضوية هذه الجمعيات ليست مقتصرة على العرب فقط ، بل تشمل المسلمين بسائر جنسياتهم .

بالنتيجة ، هذه الجميعات لا تعمل ككتلة واحدة ، وينقصها التنسيق فيما بينها لكي تتمكن من حمل مشروع موحّد يخدم مصالح العرب بمختلف جنسياتهم ، ويدفع باتجاه أخذ دور فاعل في صنع القرار» .

أثنيت على جهدها وحفزتها على إرسال الدراسة إلى المركز دونما تأخير .

في صبيحة اليوم التالي ، صحوت من النوم فوجدتها تجلس أمام جهاز الكمبيوتر تتفقد بريدها الإلكتروني بعد طول غياب ، أرسلت البحث إلى المركز ، واستعرضت ما وصلها من رسائل فوجدت رسالة جديدة من لورا تحتوي على تعليق قصير ، ومرفق بها ملف من الصّور . التعليق يقول : صورة واحدة

ومخاوف متباينة!

بدا لها التعليق مبهما لحظة قراءته ، ولكنه اتضح بعد أن استعرضت الصور . احتوى الملف المرفق على مجموعة من الصور التي التقطها كل من الأطفال الفلسطينين والاسرائيليين على جانبي الجدار العازل صفّت في صفوف . الصف الأول يحتوي على صورتين متجاورتين ، إحداهما التقطها طفل فلسطيني والأخرى طفل اسرائيلي . للوهلة الأولى ، لم يكن هناك فارق كبير بين الصورتين ، ولكن التعليق يصنع الفرق .

في الصورة الأولى ، يظهر رجل فلسطيني وهو يتسلّق الجدار ويعبر من خلال شقّ صغير إلى الجانب الآخر . تحتها تعليق يقول : هذا الجدار يمنع أبي من الوصول إلى حقله .

في الصورة المجاورة ، يظهر رجل فلسطيني وهو يحاول العبور من خلال الجدار إلى الجانب الآخر . أما التعليق الذي تحتها فيقول : هذا الرجل يعبر من شق الجدار ليفجر نفسه في أسواقنا .

الصف الثاني من الصور يحتوي على صورتين متجاورتين أيضا . الصورة الأولى ، لجرافة اسرائيلية تهدم بيتا يقف في طريق الجدار . وتعليق يقول : هدموا بيتنا لكي يبنوا الجدار .

وفي الصورة الثانية ، ركام منزل مهدم ، والتعليق تحت الصورة يقول : الفلسطينيون يقذفوننا بالحجارة ، ولديهم كثير منها في هذا الركام .

في الصف الثالث ، احتوت الصورة الأولى على مجموعة

من الأطفال وقد منعهم جندي اسرائيلي من العبور عبر الحاجز للوصول إلى مدرستهم ، فأنشأوا كتّاباً سريعا وجلسوا برفقة مدرستهم يحفظون دروسهم بصوت مرتفع وصاخب . وتعليقهم يقول : الجدار يمنعنا من الوصول إلى المدرسة ، لكننا نتعلم .

واحتوت الصورة الثانية على صورة لأطفال يقفون أمام حاجز في الجدار ويصرخون في الجندي طالبين العبور . التعليق تحتها يقول : الأطفال على الجانب الآخر يثيرون الضجيج ومزعجون .

كتبت إليها : «عزيزتي لورا ، الصورة تكذب . ألق بالكاميرات في حاوية القمامة . ما ترينه بأم عينيك هو الحقيقة الوحيدة . أطفال فلسطين بحاجة إلى الأمن ، والعلم ، وقبل كل ذلك الحرية ، والحرية لا تصنعها الصور . انتبهي لنفسك . قبلاتي» .

انتهت جلسات العلاج الكيماوي في منتصف كانون الأول ، وكان لا بد من فحصها مجددا للتأكد من خلوّ جسدها من رواسب الخلايا السرطانية . أجريت لها فحوص جديدة للدم ، والأشعة ، والماموغرام . ومررنا بفترة أسبوع آخر من الانتظار المقيت ، على أننا كنا هذه المرة متفائلين بأن الخلايا السرطانية قد تم القضاء عليها تماما ، وأنه صار بإمكاننا العودة إلى حياتنا الطبيعية ، إلى أن تم استدعاؤنا للحصول على النتيجة ، وما إن دخلنا غرفة الطبيب حتى فهمنا من ملامحه وقبل أن يتكلم بأن النتيجة غير سارة .

قال معتذرا : للأسف ، العلاج الكيماوي لم يقض على الخلايا السرطانية بالكامل ، هناك ألياف مصابة في الكبد ، وليس في الرئة كما توقعت . . .

وقع النبأ علينا كقنبلة نووية . ساد الصمت للحظات قبل أن تستأذن الطبيب وتخرج إلى الحمّام . غابت لبعض الوقت ثم عادت وبحوزتها قرار لا يقل وقعه عن وقع الخبر السابق .

استفسرت : هل يحق لي أن أتوقف عن العلاج ، وأن أمضي أيامي الأخيرة في بيتي لأموت فوق فراشي بسلام .

نظر اليها الطبيب نظرة عطف وقال : يحقّ لك طبعا ، نحن لا نجبر أحدا على العلاج ، ولكن الأمر يستحق المحاولة ، لا تستسلمي بهذه السهولة . . .

قاطعته بحزم : إنها رغبتي وأرجو أن يتم احترامها .

أنهى الطبيب قائلا : أحترم رغبتك بالطبع ، وسأكتب لك أصنافاً من المسكّنات تساعدك على احتمال الألم .

وصف لها الطبيب أنواعا من المسكنات القويّة ، بما فيها المورفين ، محترماً رغبتها في الطريقة التي وقع عليها اختيارها لقضاء أيامها الأخيرة .

عند تلك اللحظة ، وقد لاحت النهاية وشيكة ، قاسية تفوق قدرتي على الاحتمال شعرت بالانهيار ، ودخلت في دوّامة من الحيرة . ماذا أفعل الآن؟ كيف أتصرف؟ هل سأتحمل مسؤولية قرارها ذاك وحيدا؟

بعد أيام من التفكير ، خطر لي أن أنقل الخبر إلى والديها .

اتصلت بوالدتها ، وأخبرتها بأدقّ تفاصيل حالتها الصحية ، لم أخف عنها صغيرة أو كبيرة ، وتركتها لأمومتها . اتصلت بوالدها ، وأخبرته أن الأمر خطير ، وأن مرضها ليس كذبة ، وليس حجّة للاستعطاف أو الاعتذار ، بل أمر واقع ، وحقيقة مؤلمة ، وتركته لضميره . بعد أقل من أسبوع كنت بانتظارهما في المطار .

دخلا البيت وفي نفسيهما بعض الشّك ، ما إن اقتربا منها وتبينا ملامحها الذابلة ، وبنيتها الذاوية ، حتى تبدّد الشك كلية ، وحلّت مكانه نوبات هستيرية مستنكرة . احتضنتها أمها بين ذراعيها وراحت تغسل وجهها بدموع سخيّة ، أسقطت القبعة عن رأسها وكشفت عن رأسها الأصلع ففجعتها رؤيتة ، احتضنتها من جديد وانهمكت في بكاء حارق ، بينما سكن والدها في مكانه على الكرسي المجاور غير قادر على الحركة .

ابتسمت رغماً عنها وعلّقت مازحة : أخيرا اجتمعتما سويّة! لو كنت أعرف أن مرضي سيجمعكما معاً ، لمرضت منذ زمن طويل .

أمضيا بضعة أيام إلى جوارها ، امتصا خلالها مرارة الصدمة الأولى ، واستوعبا حقيقة مرضها وخطورته ، حتى جاء وقت اتخاذ القرارات الصعبة . أمسك والدها بيدها مقرراً : ستعودين معي ، لن أتركك هنا وحيدة . . .

قاطعته بحدّة : بابا ، لست وحيدة ، ولن أعود معك .

- لماذا؟

– لأكثر من سبب! لأن حالتي الصحية لا تسمح لي بالسفر، ولأنني على ذمّة رجل آخر الآن، لم أعد ملكاً لك، انتقلت ملكيتي إلى رجل غيرك، يحبني ولن يتخلى عني. ولأني أرغب في أن أدفن هنا . . . حتى أظلّ في متناول من أحب! أليست هذه أسبابا كافية؟» .

«في أعماقي موسيقى
أخشى عليها من العزف المنفرد . . .»

محمود درويش

(٦)

المظاهرات التي تعمّ لندن تكاد تكون الحدث الأكثر إثارة على شاشات الأخبار. الفعاليات التي أطلقتها حملة التضامن مع الشعب الفلسطيني شملت المدن البريطانية كافة من أقصاها إلى أقصاها، تظاهرات، اعتصامات، ندوات، سهرات لإضاءة شموع، إلا أن أبرزها هو تظاهرات الاحتجاج أمام السفارة الإسرائيلية الممتدّة على ساعات اليوم رغم الجليد والبرد القارص. كل يوم يتجمع المتظاهرون من كل حدب وصوب قبالة الحاجز الحديدي الذي وضعته قوات الأمن على مسافة من مبنى السفارة، يرشقونها بالأحذية وحبات الطماطم العفنة، فيما تستميت عناصر الأمن في الذّود عنها بالعصيّ، واعتقال بعض المتظاهرين الذين يحاولون اجتياز الحاجز الحديدي.

الحكومة البريطانية تقف متفرجة على كل ما يجري من دمار. أمر غزة لا يعنيها، وموقفها في حماية العدوان وإحكام الحصار على شعب شبع قتلاً وحصاراً بات مفضوحاً.

قالت: أريد إن أكون معهم.

- سأتظاهر بالنيابة عنك .
- ولكنك لا تشارك في المظاهرات!
- سأشارك هذه المرّة .
- لماذا؟

جلست قبالتها على حافة السرير ، نظرت إلى عينيها وقلت : لن أخرج للتظاهر من أجل تصفية حسابات قديمة ، سأشارك من أجل الاعتراض على سياسة حكومتي الحالية ، من حقي مساءلتها والتعبير عن رفضي لسياسة الصمت التي تتبعها أمام ما يجري من قتل ودمار .

صنعت يافطة كبيرة كتبت فوقها (I am ashamed to be British) ، وخرجت في اليوم التالي لمشاركة جموع المتظاهرين المعتصمين أمام السفارة الإسرائيلية . متظاهرون من مختلف الأعمار ، بينهم أطفال في عمر الورد ، وشيوخ يرفعون لافتة في يد ويتعكزون على عصيهم الخشبية في اليد الأخرى . نساء ورجال من شتى الألوان والأعراق ، بيض ، شقر ، سمر ، سود ، يرفعون الرايات ويهتفون بهتافات تملأ الأفق ، تخترق الحاجز الحديدي وجدران السفارة المنيعة ، لتقصف آذان موظفي السفارة الإسرائيلية الذين يحتمون بالجدران العالية ، وعصيّ أفراد الأمن .

الغضب يملأ صدور الناس ، الحرقة تفتك بقلوبهم . هتافاتهم الغاضبة ، أجّجت في صدري غضباً مماثلاً ، وحرقة فاقت حرقتهم . تأكّد لي أن ما اجتمعت عليه كل هذه الحناجر

المستنكرة لا يمكنه أن يكون ضلالة ، أو عاريا عن الحقيقة . الحقيقة التي تنكرها السلطات الرسمية وتسدّ آذانها دونها . حملت يافطتي الصغيرة ، ووقفت أشارك الجماهير الغاضبة هتافاتها ، وغضبتها ، وددت لو أحييهم نفرا نفرا ، أقبّل وجناتهم وأشكرهم على استماتتهم في الدفاع عن شعب ضعيف ، يقطن على أطراف الكرة الأرضية ، أعزل إلاّ من إرادة تستعصي على الذلّ والهوان .

عدت إليها وشعور بالرضى يكتنفني ، فوجدتها تنفرد بشاشة التلفزيون تتابع أخبار المظاهرة ، تحتضن أحشاءها وتئن بصوت خافت ، وما عدت أدري إن كان أنينها بسبب ما يتآكل من جسدها تحت أنياب هذا السرطان اللعين ، أم بسبب ما يتآكل من روحها تحت ركام ذاك الدمار الوحشي .

أحضرت قلما وورقة وجلست إلى جوارها في السرير قائلا : سأكتب رسالة إلى النائب في البرلمان عن منطقتنا أشرح له فيها مشكلة لطفي وإلهام ، ساعديني .

طبعت قبلة فوق وجنتي وقالت : كنت على ثقة بأنك لن تتخلى عنهما .

كتبنا وشطبنا مراراً قبل أن تأخذ الرسالة شكلها النهائي الذي تلوته على مسامعها للمرّة الأخيرة :

«سعادة النائب المحترم ،

بعد التحية ،

أكتب لك بالنيابة عن السيد لطفي الدليمي ، وهو مهاجر

عـراقـي حـضـر مع زوجـتـه وطفلتـه إلـى لندن في الـعـام ٢٠٠٥ ، ضـمـن مـجـمـوعة أخـرى من الـعـراقـيين تم نقلهم إلـى لندن تحت مسمى «حالات صعبة» . في الأسبوع الماضي ، وصلته رسالة من دائرة الهجرة تعلمه بقرار رفضها للطلب الذي كان قد تقدّم به لأجل الحـصـول على وضع طالب لجـوء ، وتخـيّـره مـا بين التـوقـيع على طلب للرجـوع الطوعي إلى العـراق خـلال ثلاثة أسابيع على اعتبار أن العراق قد أصبح بلدا آمنا ، أو التعرض للحـرمـان من التـسـهـيـلات الممنوحـة له ولأسـرته من مـأوى ، وعـلاج ، ومعـونة . علمـا بأن قـرار الرفض هذا شـمـل أكـثـر من ١٤٠٠ مهاجر تم رفض منحهم صفة اللّجوء في حزمه واحدة .

أود لفت انتـبـاه سـعـادتكم إلى أن تلك الرسـالـة تتـجـاهل كثيراً من الحقائق فيما يتعلق بالوضع الحقيقي في العراق . إنها تتدّعي أن العراق أصبح بلدا آمنا ، علما أن تقرير اللجنة العليا لشـؤون اللاجـئين يشـيـر إلـى ان عـودة طالبي اللجـوء إلى وسط وجنوب العراق ، وإلى بعض من مناطق الشمال غير محبّذ نظرا لاستـمرار النزاعات المسلّحة هناك . هذا بالإضافة إلى العـديد من التصريحات الحكوميه التي تعترف بأن إعادة اللاجئين إلى وسط العراق غير ممكن بسبب عدم توافر خطوط الطيران الآمنة إليـهـا . والأخطر من ذلك ، هو أن المؤسـسـة التي تتـولى إعـادة المهاجرين ، تطلب منهم التوقيع على إقرار يخلي مسؤوليتها من أي ضرر قد يحدث لهم في العراق بعد العودة ، مما يعني الدفع بهم إلى مـصـيـر مـبـهـم من دون أن يكون لـهـم الحق في المطالـبـة

بأي تعويضات تكفلها القوانين المحلية .

سعادة النائب ،

إنّ استخدام الحرمان والتجويع من أجل الضغط على طالبي اللّجوء لمغادرة البلاد هو أمر مفزع للغاية ، وإن مثل هذه السياسات الفاشلة تضرّ بسمعة الحكومة البريطانية ، وتنتهك حقّ الحياة لهؤلاء المهاجرين . ولست في معرض التذكير بتزايد عدد حالات الانتحار بين هؤلاء المرفوضين الذين بلغ بهم اليأس إلى تفضيل الموت على العودة إلى بلاد تفتقر لأبسط مقومات الأمان .

أرجو أن يعاد النظر في هذه القرارت التي من شأنها تعريض عدد كبير من المهاجرين إلى الخطر ، وتتعارض مع نهج الحكومة في حماية المستضعفين واحترام الأقليات .

المخلص

وليد فارس»

وضعت الرسالة في ظرف ، ألصقت فوقه طابعا بريديا ثم ألقيت به في صندوق البريد القريب من المنزل .

في اليوم التالي ، ذهبت إلى المقبرة الخاصة بالجاليات المسلمة . بدت نظيفة ومغرية ، تصطف القبور في خطوط منتظمة تحمل أرقاما محددة ، تحيط بها الأزهار على الجانبين ، تتخلّلها ممرّات حجرية تتيح التنقل بين الصفوف للوصول إلى القبر المطلوب ، لا ريب أنها أرادت أن تدفن هنا!

توجهت بعدها إلى مكتب من مكاتب خدمات تجهيز

الموتى . كانت تلك هي المرة الأولى التي أقف فيها وجها لوجه أمام الموت في هذا البلد ، فما كنت قد فقدت أحدا من قبل . لم أفقد أما أو أبا ، لم أفقد أختا أو أخا ، لم يرني الله مكروها بعزيز في هذا الزمن الحافل بكل ما هو مكروه . استمعت إلى شرح عما يقدمه المكتب من خدمات ، استعرضت «كاتلوجا» يبيّن أنواع التوابيت وأخشابها ، بطانتها المصنوعة من أقمشة الحرير أو المخمل أو الساتان ، ويظهر أنواع أكاليل الزهور التي تتحلى بها ، ومستحضرات التجميل التي تظهر الموتى على صورة جميلة كأنهم أحياء . شرح يشعر الزبون بعده بالراحة ، ويطمئن إلى أن كل ما ينبغي عليه فعله هو أن يموت فقط ، بينما يتكفل المكتب بما يتبقى من المهام المرهقة الأخرى بالنيابة عنه .

يحرص الموتى هنا على مقابلة خالقهم بكامل أناقتهم وزينتهم ، يرتبون جنازاتهم ، وينتقون أجمل ثيابهم لترافقهم إلى مثواهم الأخير . يختارون القسّيس الذي سيقوم بتلاوة الصلاة على قبورهم وفقا لطوائفهم ومعتقداتهم ، ونحرص نحن على الرجوع إلى خالقنا عراة كما خلقنا ، الا من كفن يستر عوراتنا .

اخترت تابوتا من خشب البلوط وطلبت منه أن يتم تبطينه بالساتان الأبيض ، كما أوصيت بزراعة شجرة ياسمين كبيرة إلى جوار القبر ، وأعفيته من استدعاء القسيس لأن الدفن سيتم وفقا للمراسم الإسلامية .

خرجت إلى الشارع ، الهواء متجمّد ، الأفق أبيض ينذر

بعاصفة ثلجية ، مشيت على غير هدى والريح تتلاعب بي ، تدفعني إلى الخلف بشدّة ، مجمّدة الدّم في وجهي العاري . قادتني قدماي إلى البحيرة ، فلم أجد الماء . جمّدته تلك الريح المجنونة محوّلة وجه البحيرة إلى طبقة زجاجية صلبة ، وبدا حال البطّ الصغير وهو يمشي فوق سطحها على أرجله مثيرا للشفقة . ينقر أطراف الجليد بمنقاره محاولا كسره للعثور على فسحة صغيرة من الماء يعوم فيها . رميت حجرا كبيرا على سطح البحيرة ، فانكسر جزء من الجليد وظهرت مساحة صغيرة من سطح الماء ، فتسابق سرب من البط نحوها فرحا .

أعماقي تعزف لحن الرجوع الأخير : أيها البطّ الصغير ، إرمني بحجر يكسر لي بعضا من جليدي ، يفجّر الدّم المتجمّد في عروقي ، ويحيله إلى مستنقع دام أعوم فيه بفرح يشابه فرحك . خبئني تحت جناحيك ، امنحني قليلا من الدفء أستعين به على ما تبقى لي من أيام بصحبتها ، أو أطعم لحمي لفراخك الصغيرة وخلصني من حياة خالية من ابتسامتها العذبة . . . .

عدت إلى المنزل ، جلست إلى جوارها فسألتني : أين كنت؟

لم أجب .

هل أخبرها بأني كنت أنفّذ وصاياها ، أرعى موتها البهيّ ، وأعد لها مثوى ناعماً وأنيقاً يليق بكبريائها وصبرها؟

هل أخبرها ، بأني كنت أتدرّب على كيفية مواجهة الحياة

وحيداً بعدها؟

هل أخبرها بأني أنهيت نشيدها ، وبدأت نشيجي الذي سيمتد إلى ما لا نهاية؟

هل أخبرها بأنها ، وإن رحلت ، فسوف تبقى في البال أغنية وشجرة ياسمين؟

أعددت ساندويشات خفيفة وجلست على الكرسي المقابل لسريرها ، أطعمها بيدي . منذ أن خارت قواها تماما ولم تعد تستطيع حراكا ، منذ أن استفحل السرطان في أحشائها ، تحوّلت إلى طفلة صغيرة تحت وصايتي ، صرت أطعمها بيدي ، أغسل لها جسدها بمنشفة صغيرة مشبعة بالماء والصابون ، أحمل لها فرشاة الأسنان وكوبا صغيرا من الماء كي تغسل فمها ، أضع حبّة المسكن في فمها وأهدهدها حتى تغفو بأمان .

بلعت حبّة المسكّن و سألتني : هل ستنفّذ وصيتي؟

احتضنتها بقوة ، مخفيا دمعة عنيدة أبت إلا أن تستعرض بريقها وقلت : سأنفذها . . .

تمتمت : بقيت لي رغبة صغيرة .

ضغطت على يدي وتابعت : ضمّني إليك!

احتويتها بين ذراعيّ ، قبّلتها قبلة طويلة فوق شفتيها ، أسبلت على إثرها عينيها ، وما عدت أدري ان كانت ستفتحهما ثانية . . .

الإصدارات السابقة

- موزاييك (رواية) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ .
- شتات (رواية) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٢ .
- خطوط تماس (رواية) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦ .

